وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٨

العقاد
وتطوره الفكري

تاليف
عبد الحي دياب

العقاد وتطوره الفكري

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٨

العقاد وتطوره الفكري

تأليف
عبد الحي دياب

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

تقـــديم

ان من أصعب الاشياء على من يقوم بدراســة شخصية أدبيــة ، أن تكون تلك الشخصية متعددة الجوانب ذات رصيد هائل من الثقافة الذهنية والنفسية عظيم ، ومن هنا أشفقت على نفسي ، وأنا أكتب عن العقاد هذا الكتاب الذي أقدمه للقارىء بكل ما فيه من اخلاص وجهد •

ومنذ قدر لي أن أتصل بالعقاد في عام ١٩٤٧ قارئا ، وأتصل بـــه شخصيا في عام ١٩٥٠ وأنا عاكف على قراءة انتاجه ودراسة آثاره حتى أسفرت تلك الدراسة وهاته القراءة عن اعداد رسالة علمية نلت بهـــا درجة الماجستير في النقد الادبي الحديث ، وموضوعها : « عباس العقــاد ناقدا » • ثم سجلت رسالة أخرى في العام الماضي للحصول بها عـــلى درجة الدكتوراه عن العقاد أيضا ، وموضوعها : « عباس العقاد شاعرا »•

وعلى الرغم من هذا كله ، فانني لا أكتم القارىء سرا ، وهو أنني كنت أشعر بالعجز دائما وأنا أكتب عن العقاد أمام هـــذا الطوفان من قراءاته وانتاجه المتعدد النواحي ، المتشعب المسالك ، الذي زاد به كثيرا من ضروب المعرفة شأنه في ذلك شأن الرواد الانسانيين في العالم •

وقد أكد هذا الشعور في نفسي مصاحبتي للعقاد هذا الردح الطويل من الزمن في ندواته وجلساته الخاصة التي كان يمنحها للمخلصين من تلاميذه ليتحدث معهم حديث الاستاذ لتلاميذه ، أو حديث الوالـــد الى أبنائه ، كما أكد ، في نفسي ما كنت أقروءه عنــه مما كتبــه الفضلاء من النقاد العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا زالت ترن في أذني كلمات المستشرق الالماني «كمفماير» كان دائما يقرأ بنهم شديد ، ويبين لنا من

نقـده وتحليله للكتب أنه يتمتـع بذوق نادر في اختيـار قراءاته ، [1]
ولا زلت مشدوها لما كتبته عنه دوائر المعارف العالمية •

على أنني أشفقت على نفسي أيضا وأنـا أكتب عنـه كتابا عاما ، من محاولة تبسيط المادة العلمية تبسيطا لا يختصم المنهج العلمي السليم مـع ايجازها ايجازا يقدم لنا العقـاد تقديما غـير مخل بجانب من جوانبه الشخصية والفكرية ثم عرض هذه المادة العلمية الموجزة في شكل يقـدم لنا العقاد في صورة حية نابضة ، بحيث لا يعسر على القارىء أن يلقاه في كل مكان ، وفي كثير من القضايا التي تعن لنـا ، فيقول حينئذ من فوره ها هو العقاد بفكرة وسلوكه ، باحساسه وشعوره قد عاد •• عاد ليسير مع السائرين في موكب الزحف العربي ، لا أن يعود منطويا على نفسه يكتب في الفكر المجرد ، والقضايا التي لا نعايشها ولا تعايشنا ، كما زعم بعض معارضيه والشانئين عليه •

ومن هنا أزعم أن الكتاب خرج الى القارىء بصورة تكاد تكون فنية في الوقت الذي لا تجافي فيه المنهـج الاكاديمي الـذي نستخدمه في دراساتنا الجامعيـة •

وأود أن أجيب على تساؤل ربما ينشأ في هذا المقام عن مدى تصور العجز مع انسان يزعم أن له اتصالا شخصيا بالعقاد ، ودراسيا لانتاجـه من حيث ابداعه ودراساته •

وللاجابة على هذا التساؤل لابد من ذكر حقيقة تتمثل في أن العقاد رهيب ومخيف ، لان الكتابة عنه تعني أن يحيط الانسان بالتيارات الادبية والفكرية المعاصرة، وذلك ليكون كلامه أقرب مايكون الى الحقيقة • على أنني لست أول من يتهيب الكتابة عن العقاد على الرغم من ذلك الاتصال وتلك المدارسة ، لان هناك من اخواننا الفضلاء من نجلهم ونقدرهـم ، وممن سبقونا الى عالم الادب والفكر، وسبقونا في الوقت نفسه الى التلمذة على العقاد منذ أربعين عاما أو تزيد ، ومع ذلك لم يبدأ من كلف منهم

(1) **Tahir Khemiri and G, Kanpffmeyer**: *Leaders in contemporary Arabic literature* (1930) p. 13.

بالكتابة عن العقاد • وحجته ـ وهو صادق فيها ـ في التهيب ، هـي ما أبديته في هذه المقدمة ، بالاضافة الى أن الكتابة عن العقـاد تحتاج الى التفرغ الكامل ليتأمل الكاتب آثاره العلمية والادبية ، وسلوكه وأخلاقه لكي يخرج من هذه وتلك بدراسـة أقرب الى الصدق في تصوير العقاد العملاق •

ومهما يكن من أمر فقـد تعرضت للاحداث الكبرى في تاريـخ استاذنا العقاد ، تلك الاحداث التي ترسم لنا ملامحه ، وتأخـذ برقـاب بعضها البعض فتؤثر في فكر العقاد نفسه • كما حرصت عـلى أن أبين مصادر الكتاب ومراجعه في حواشي أملتها المناسبة فرصدتها في صفحـة صفحة •

على أن اعجابي بالعقاد وبمبادئه في النقد والفكر ، وتلمذتي له ، لم يمنعني من التزام الانصاف العلمي فأنتصف للعقاد أو أختلف معه في بعض القضايا كما سيرى القارىء في تضاعيف هذا الكتاب •

ولقد تقاضانا المنهج العلمي أن نتحدث عن البيئـة العامة في الوقت الذي ولد فيه العقاد كتمهيد للحديث عن العقاد نفسه ، لان الذي لاشك فيه ان الانسان ابن جيله وعصره ، ويندر ـ في الوقت نفسه ـ أن يشتهر رجل أو يصل الى قمة العظمة ، الا وللعصر أثر كبير في أخلاقه ان لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لاخلاق عصره ، لان الشهرة أو ارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلما يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلـة أو مقابلة بين الشيئين المتجاوبين وذلك على حد تعبير العقاد في مقدمـة كتابه « عبقرية عمر » •

واذن فلا مناص من دراسة البيئة العامة بحيواتها الثلاث من سياسية واجتماعية وفكرية ، ثم هذه الحيوات الثلاث في نفوس المصريين •

ثم تحدثت في الفصل الاول عن بيئته الخاصة ، فتحدثت عن مولده وأسرته ، ومدرج صباه ، ثم وقوفه في مفترق الطريق بين بيئة جامـدة على التقاليد الشرقية المتوارثـة كما رآهـا لـدى الاسوانيين من أهلـه

ومواطنيه ، وبين بيئة المهندسين والخبراء والمفتشين الذين كانوا يعملون في « خزان أسوان » والذين يأخذون بأسباب المدنية على أتمها وأكملها ، وما انتهت اليه من السفور وعدم المبالاة بهذه الشكليات التي تكاد تخنق الاسوانيين ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن كفاحه في سبيل العمل بصناعة القلم ، وكيف فكر في انشاء مجلة « التلميذ » وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، والثانية الابتدائية في دراسته كما تتبعته في الوظائف التي عمل بها ، وموقفه من التقليد والتجديد في الكتابة ، حينما أفسحت له صحيفة «الدستور» صدرها ، ليكون محررا بها ، وتتبعته كذلك في اتجاه الادبي والفكري •

ثم خصصت الفصل الثالث لتعرفه على الادباء من الجيل الذي سبقه ومن معاصريه ، وكيف استصفى من معرفته هذه اثنين هما ابراهيم عبدالقادر المازني وعبدالرحمن شكري ، وكون معهم صداقة فكرية أسفرت عن قيام مدرسة الجيل الجديد ، التي يسميها بعض الدارسين خطأ بمدرسة «الديوان» • وقد عرضت في هذا الفصل أيضا للخصومة التي نشبت بين شكري والمازني ، وما ادعاه بعض الدارسين من استاذية شكري لكل من المازني والعقاد معا •

وفي الفصل الرابع تحدثت عن معالم المدرسة الثورية وموقف العقاد من مقومات هذه المدرسة ، واصالته في الدعوة ، وعلاقة مدرسة الجيل الجديد بمدرسة المهجريين في أمريكا •

ثم عقدت فصلا خامسا للحديث عن العقاد في عالم السياسة ، وذلك ليتسنى لنا الوقوف على مقومات العقاد الشخصية بصورة كاملة ، وربطت في الوقت نفسه بينها وبين نظرياته النقدية • وفي دراستنا للعقاد السياسى حاولت الوقوف على منهجه السياسى ، وموقفه من السياسة المصرية وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ •

وقد استتبع حديثنا عن موقفه من ثورة ٢٣ يوليو أن نعقد فصلا سادسا للحديث عن العقاد والاشتراكية ، وكيف استهل حياته اشتراكيا

«فابيا» ثم تطـورت الاشتراكية في تصوره الى الاشتراكية الديموقراطية ، وكيف طالب بتذويب الفوارق بين الطبقات في مصر مسايرة للتقريب بين الطبقات في العالم • ثم موقف الاشتراكية من الاسلام •

وفي دراستنا لعالم شخصيته في الفصل السابع ، حاولنا التعرف على شخصيته وعقيدته ، وفلسفته العامة بأسسها الثلاثة : الفردية ، والحرية ، ونظرته الفنية الى الكون والحيـاة •

وفي الفصل الاخير تحدثت عن نهاية المطاف وكيف ودعنا العقـاد ولحق بالرفيق الاعلى ، وكيف استقبل الكتاب وفاته وما قالوه في هـذا الصدد • ولقد حاولت جهدي في هذا المنهج أن أستخلص صورة نفسية للعقاد ، تعرفنا به وتبدي لنا خلائقه وبواعث أعماله ، ومن ثم جاء الكتاب ـ فيما نزعم ـ وصفا للعقـاد ودراسـة لاطواره ودلالـة على خصائص عظمته • ولهذا فانني قد أعطيت كل انتباهي الى العلامات والدلائل الخاصة بنفسيته وأنا أحاول تصوير حياته ، ومن هنا تحررت من مسائل أخرى وقضايا أثيرت حولـه ، لانني لا أهدف الى ادخال العقـاد قفص الاتهـام ـ مهما خالفته في ثنايا الكتاب فيما يتصل بالسياسة ـ بل وقفت الى جانبه وناضلت في صفه بعد أعمال الفكر ، واستيحاء الضمير والاحساس فيمـا أبديت من تحليل لآرائه ودراسة للمواقف التي صدرت فيها هذه الآراء من حيث والعقاد معا •

ولقد انتهيت من هذا الكتاب في اليوم الذي ولد فيه العقاد ، ولهذا فانني أقدمه تحية له في عيد ميلاده ، كما أقدمه للدارسين عساه يسـهم في اجلاء بعض الغوامض التي اكتنفت حياة العقاد ، وعل القارىء يقف على مقدار ما عاناه العقاد في سبيل هذا المجد الادبي الذي وصل اليـه بكفاحه ونضاله ولا سيما أن طريقه لم يكن سويا ، بل كان وعرا مرصوفا بالضحايا •

عبد الحي دياب

جزيرة الروضة في ٢٨ من يونيه سنة ١٩٦٥

تمهيـــد

البيئة الخاصة

ينبغي قبل أن نتحدث عن حياة العقاد ، أن نتعرف في ايجاز شديد على البيئة العامة من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية ، ليتسنى لنا بعد ذلك الحديث عن تفاعل العقاد مع البيئة العامة ومقومات شخصيته •

١ ـ الحياة السياسية :

وللحديث عن الحياة السياسية في البيئــة العامــة التي عاش فيهـا العقاد ، لابد أن ندخل في حسابنا أن نظام الحكم في مصر قبل أن نضع لها دستورا كان فريدا ، فهو فردي يخضع لرغبة الحاكم التحكميــة في مواطنيه •

ومن ناحية أخرى فان شكل الحكومة في مصر والشرق كذلك لم يستفد من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة في فرنســـا وانكلترا ، وذلك لامور تتلخص في أن هـــذا الجمود ناشىء من عـدم أسهام الشعب في اختيار حكوماته المتوالية المتتابعة[1] •

على أنه قد قامت محاولات ثورية كثيرة للتخلص من نظام الحـكم الفردي ، وذلك حينما يشعر الوطن بالوحدة القومية تحل محل القبلية في حياته الاجتماعيــة ، فقامت ثورة عرابي في مصــر عام **١٨٨٢** مستهدفة اسـتبدال ذلك الحكـم الفردي بحكم نيـــابي عن طريق الانتخـاب بين

---

(١) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٦١ ط أولى • القاهرة في عام ١٩١٢ •

المواطنين ، غير أنها أخفقت وحاق بقادتها ألوان العذاب من نفي وتشريد وهول وهوان . ومهما يكن من أمر فان اخفاق الثورة العرابية قد شجع الحاكم المتجبر على أن يطلق يده في البلاد بمساعدة المستعمرين من انكلترا وفرنسا[٢] .

وقد ظهرت في مطلع هذا القرن الاحزاب المصرية ، حتى وصلت عدتها آنذاك أربعة ، وكان لكل حزب منها رجالاته وصحفه التي تنطق بلسانه ، ومنهجه في العمل .. فمن هذه الاحزاب من كان يعمل للانجليز وكانت لسان حاله جريدة «المقطم» ، ومنها من كان يعمل للخديوي وتمثله «المؤيد» وصاحبها ، ومنها من كان يعمل لتركيا أول الامر ، في الوقت الذي يطلب فيه الاستقلال التام لمصر وهو «الحزب الوطني» ، والحزب الاخير هو «حزب الامة» الذي أنشىء في عام ١٩٠٧ بعد مغادرة كرومر للبلاد[٣] .

والدارس للفكرة الوطنية لدى المفكرين السياسيين آنذاك يرى أنها لم تظهر بوضوح بعيدة عن الجامعة الاسلامية الا على يد رجال حزب الامة الذين ترسموا خطى استاذهم الامام محمد عبده[٤] .

وقد كان لمأساة «دنشواي» التي حدثت في عام ١٩٠٦ ، واعلان الحماية على مصر في عام ١٩١٤ ، أثر سيء في نفوس المصريين ، اذ شاع في الناس سيئات الحكم على أسوئه في هذا الوطن[٥] ، وبقيت مصر في حرب عوان بينها وبين المستعمر الغاصب ، فتألفت وزارات لم تستطع حكم البلاد ، ولبثت البلاد من غير حكومة فترات طويلة ، وفي ذلك

---

(٢) عبدالحي دياب : عباس العقاد ناقدا ص ٥٧ وما بعدها ط أولى القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٣) عبدالحي دياب : عباس العقاد ناقدا ص ٥٧ وما بعدها ط أولى القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٤) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود ص ٢١٤ وما بعدها .

(٥) عباس العقاد : في آخر ساعة الصادرة في ٢٣ من كتوبر ١٩٥٧ تحت عنوان « حياة قلم » .

الوقت رضخ المستعمر الى اجراء مفاوضات بينه وبين ممثلي الامة • وانتهت تلك المفاوضات باستقلال مصر داخليا ، وتمثل هذا الاستقلال في وضع دستور لمصر ، أعلن في ١٩ من أبريل سنة ١٩٢٣ • وبه انتقل حكم البلاد الى المصريين الذين كانوا يقفون خلف الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تصدعت بانفصال جماعة عن الوفد كانوا نواة لحزب « الاحرار الدستوريين » الذي أسس في اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وألف حزب « الاتحاد » ثم حزب « الشعب » ، ثم اندمج كلاهما في حزب « الاتحاد الشعبي » وكانا يشايعان القصر الذي احتفظ ببعض مزايا الحكم •• وقد أدت هذه الفرقة الى تناحر الاحزاب فيما بينها ، وظلت على هذه الحال حتى قامت ثورة ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢ بزعامة الرئيس جمال عبدالناصر[٦] •

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

ويرى الباحث في الحياة الاجتماعية في مطلع هذا القرن ، أن الدعوة الوطنية كانت تتضمن اتجاهين يخضعان لمبادىء الاحزاب السياسية اذ يتمثل الاتجاه الاول في عدم فصل الدين عن الدولة ، وليس أدل على ذلك من الحزب الوطني الذي يدعو الى استقلال مصر تحت السيادة العثمانية •

ويتمثل الاتجاه الثاني في عدم اختلاط الدعوة الوطنية بالنزعة الدينية ، كما هو واضح في مبادىء « حزب الامة » وباقي الاحزاب الاخرى التي كانت تدعو الى استقلال مصر تحت السيادة المصرية ، ومن هنا نادى ممثلو هذه الاحزاب بفصل الدين عن الدولة ، كما نادوا بتحرير المرأة ، وفض الحجاب عنها ، وكان في مقدمة الداعين الى ذلك قاسم أمين الذي أبى أن ترزح المرأة العربية تحت وطأة الحجاب ، وألا تشارك الرجل في الحياة ، كما تصنع المرأة الاوربية •

---

(٦) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ج ٢ ص ٧٢ •

وفي نفس الاتجاه سارت ملك حفني ناصف ، غير أنها قيدت السفور بالاحتشام ، وأنكرت اختلاط الجنسين[٧] ٠

وبجانب ذلك نرى عباس العقاد يطالب بتحرير المرأة من الحجاب ويتهكم بالدعاة اليه ، وذلك حينما ذهب الى أنه خير للرجل الذي يخشى أن تصادفه امرأة في الطريق فيفتتن بها ، أن يرجع الى نفسه فيقوم طباعها ويلطف من شبقها ، ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن المؤبد على نساء العالم كله[٨] ٠ كما أنه دعا الى اختلاط الجنسين ، والحد من تعدد الزوجات باسلوب تهكمي ساخر ، وذلك حينما يقول : « لا أدري لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ، ولا يسوغ للمرأة أن تطمع في أكثر من ربع رجل ان لم يكن أقل[٩] »٠

٣ ـ الحياة الفكرية :

أما الحياة الفكرية لدى المصريين فتتمثل في أنهم كانوا كثيري الاعتقاد في الخرافات ، يصغون أيما اصغاء الى القصص الخرافية ، حتى غدا عالمهم مليئا بالسحر والعفاريت ، وبكل ما يوحي بانحطاط الفكر والجهل بحقائق الامور[١٠] ٠

وعلى أية حال فقد قامت حركة اصلاح استهدفت القضاء على الخرافات والشعوذات التي كانت تتربع على معتقدات المصريين ، قام بها جمال الدين الافغاني ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ٠ وكانت هذه الحركة منارا يقبس من ضوئه كثير من المصريين المثقفين ليضيئوا به العقول المتخلفة لدى المصريين ٠

وعلى الرغم من ذلك كله فان القاهرة كما يقول العقاد : كانت

---

(٧) راجع باحثة البادية للانسة « مى » ص ١٢٥ وما بعدها ، مطبعة المقتطف ، القاهرة عام ١٩٢٠ ، وراجع كذلك « في الادب الحديث » جـ ٢ ص ٥٥ ٠

(٨ ، ٩) عباس العقاد : خلاصة اليومية ٢١ ، ٢٨ ٠

(١٠) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ١٥ ، وراجع كذلك : اعترافات شكرى لعبدالرحمن شكرى ص ٢١ ٠

مركزا لكل دعوة .. دعاة الجامعة الاسلامية ، ودعاة الوحدة العربية ، ودعاة تركيا الفتاة ، ودعاة الاصلاح في ايران وفي أواسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في سائر الاقطار الافريقية من شمالها في بلاد المغرب الى جنوبها في بلا السواحي وزنجبار ، ذلك أن الدعوة القلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغا لا يدانيه ما بلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب[١١] .

ويرى الدارس أن قوة هذه الدعوة القلمية كانت تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم وأبدانهم ، كما كانت تخيف المستعمر الذي اهتزت فرائصه منها ، لانها تعني رحيله وعدم بقائه في البلاد ، ومن هنا سعى جاهدا في بعث قانون المطبوعات في ٢٥ من مارس ١٩٠٩ ، ذلك القانون الذي يخول وزير الداخلية الحق في انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا من غير محاكمة أو دفاع[١٢] ، ولبثت الصحافة على هذا الحال بين مد وجزر في حريتها فيما بعد ذلك حتى عام ١٩٥٢ وهو العام الذي قامت فيه الثورة المباركة .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الصورة ــ التي استوحيناها مما ترسب في نفوسنا من قراءاتنا لعصر العقاد ــ قد ابتعثت في نفوس المصريين سوء الظن أفرادا وجماعات ، ومن هنا فقد دهمتهم موجة عارمة من اليأس خلدوا من أجلها الى الراحة والاستسلام والتواكل ، وانعدمت روح التنافس بينهم ، وجمدوا على القديم يستوحونه في كل أعمالهم[١٣] .

ومن هنا ذلك فقد فقدوا الشجاعة الادبية التي تعد تاجا يتزين هامات أصحاء النفوس والاخلاق ، واتصفوا بالرياء والنفاق ، وهما يستتبعان الغيبة والنميمة ، والجرأة على الناس في غيبتهم كالتزلف اليهم

---

(١١) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٨ من اغسطس ١٩٥٧ تحت عنوان « حياة قلم » .

(١٢) محمد توفيق دياب : اللمحات ص ٢٠ وما بعدها ، وراجع : في الادب الحديث لعمر الدسوقى ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها .

(١٣) عباس العقاد ناقدا ص ٦٥ ، وراجع كذلك : « سعد زغلول سيرة وتحية » لعباس العقاد ص ١٩ ، ٢٠ .

في حضرتهم ، وهذه كلها من علامات الجبن والصغار [١٤] .

في هذه البيئة التي كانت متشحة بالسخط والسأم ، والمليئة بالشكوى في الادب والحياة العامة ، بحيث لا يترامى الى سمعك الا آهة متأوه ، أو نشيج محزون .

في هذه البيئة نفسها عاش العقاد بطموحه وتوثبه وتمرده على القيم المألوفة في ذلك العصر ، المتعارف عليها لدى المصريين ، وذلك في الوقت الذي قد انسد فيه باب الامل في وجه طلاب العلا ، الذين أخذوا يسائلون أنفسهم من أين يكون منفرج الطريق ؟[١٥] .

وفي وصف هذا الزمن يستعير العقـــاد وصف « تشارلز ديكنز » لعصر الثورة الفرنسية في الفصل الاول من « قصة المدينتين » وان كان العقاد قد ألبس هذا الوصف رداء مصريا نسجته أنفس مصرية ، يقول تشارلز ديكنز : « أنه كان أحسن الازمان ، وكان أسوأ الازمان ، وكان عهد اليقين والايمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور ، وكان أوان الظلام ، كان ربيــع الرجاء ، وكان زمهرير القنوط ، بين أيدينا كل شيء وليس في أيدينا أي شيء ، وسبيلنا جميعـا الى قـــرار الجحيم .. تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتهــــا أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات »[١٦] .

يرى العقـــاد أن وصف « تشارلز ديكنز » السابق ينطبق أتـــم الانطباق على الزمن الذي عاش فيه العقاد في أوائل القـــرن العشرين ، ابان فترة اليقظة المصرية ، لانهـــا فترة خالقـــة ، تتمخض عن قـــوة جديدة[١٧] .

---

(١٤) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٢٥ .

(١٥) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(١٦) راجع قصة المدينتين لشالز ديكنز بالانكليزية :
A tale of Two Cities, by Charles Dickens, Everyman's Library. London.. 1942. p. 5

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٣ .

الفصل الاول
البيئة الخاصة

على الرغم من أن كثيرا من الدارسين ذهبوا الى أن مقومات الشخصية الفطرية أقوى من المكتسبة ، فاننا لا نستطيع أن نغفل مقومات شخصية العقاد المكتسبة ، لانه « لو كانت المقومات الشخصية هبة طبيعية فحسب ، لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أي أثر في تكوين العظماء من رجال العلم والادب والفن ، ولكن أثرها لا ينكر في تكوين الشخصية والعظمة في نفوس العظماء »[١] .

ويرى الدارس أن مقومات شخصية العقاد الفطرية ليست هي كل مقومات شخصيته ، ولكن يضاف الى ذلك تربيته الشخصية المستقلة ، اذ أنه ربى نفسه بنفسه تربية كاملة من كل الوجوه ، ولم يعن في تربيته لنفسه بتنمية الفرد فيه حتى تتأصل الفردية في نفسه Individuality ولكن كان اهتمامه منصبا على تنمية الشخصية الذاتية فيه Personality كما يتضح ذلك من سلوكه وأخلاقه وفكره[٢] .

وليس معنى هذا أنه من الممكن فصل المقومات الفطرية من المكتسبة ولكنهما يرتبطان معا بخيط تاريخي يصل ما بين ولادة العقاد ، وما بين تغييره لوجه الدراسات النقدية والادبية في مصر .

١ ـ مولده واسرته :

تقول دفاتر المواليد الخاصة بمحافظة أسوان أن عباس محمود العقاد قد ولد في ظهر يوم الجمعة الموافق ٢٨ من يونيه سنة ١٨٨٩ من الميلاد لاب كان يقوم على أمانة المحفوظات « الدفتر خانة » بمحافظة أسوان . وكان والده مزواجا ، اذ تزوج ثلاث نساء ، احداهن والدة

---

(١) محمد عطية الابراشي : الشخصية ص ١٠ ، ١١ .
(٢) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

عباس التي أنجب منها خمسة أبناء وبنتا[٣] •

وكانت ولادة العقاد في بيت عتيق لا يخرج في شكله وتصميمه عن البيوت الكثيرة في أسوان ، أو عامة البيوت في الاقاليم المصرية آنذاك •

وبالاضافة الى ذلك فقد كان والده معروفا بالوقار والاخلاق القويمة ، وكان متدينا يصل به تدينه الى درجة التشدد ، كما أن والدته كانت متمسكة بفريضة الصلاة تؤديها لاوقاتها • ومن ثم قال العقاد في هذا الصدد : « نشأت بين أبوين شديدين في الدين ، لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أرى أبي يستيقظ قبيل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويبتهل الى الله بالدعاء ولا يزال على مصلاه الى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الافطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الاوراد • ورأيت والدتي في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم ، وتطعم المساكين ، وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبيل الاربعين »[٤] •

على ان هذه النزعة الدينية في بيته لم تكن مقصورة ـ كما يقول العقاد على والديه ، بل كان اقاربه يشركونهما في التدين والتقرب الى الله •

وليس ادل على ذلك انك تجد انه من النادر ان تجد في اقاربه من لا يسمى باسم من أسماء النبي وآله ، سواء منهم الرجال او النساء ، او من أسماء الانبياء على العموم ، كما كان في بيت أخواله درس لقراءة الكتب الدينية ، من بينها كتاب « احياء علوم الدين » للغزالي[٥] •

ومهما يكن من امر فان النشأة الدينية لم تكن مقصورة على بيت العقاد دون باقي البيوت المصرية في اواخر القرن التاسع عشر ، لان النشأة الدينية لم تكن غريبة على البيئة المصرية ، اذ كانت تسود كل

---

(٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٤ ، ١٠٥ •

(٤ ، ٥) راجع : مجلة « الهلال » عدد يناير سنة ١٩٤٧ •

بيت ، وتكمن في نفس كل فرد . ولعل هذا يضاعف تقديرنا لعبقرية العقاد ولاسيما حينما نعرف نشأته الاولى بين هاتيك التقاليد التي لا تتيح للفرد بروزا لشخصيته ، الا بمقدار ان تصب في القالب المتعارف عليه آنذاك ، والذى يستعد قوته وبقاءه من تلكم التقاليد المتوارثة .

ويرجع نسب العقاد الى اب مصرى هو محمود ابراهيم مصطفى العقاد من محافظة دمياط ، ووالدته من المحلة الكبرى ، وقد استقر به المقام فى اسوان تبعا لعمله في ديوان المديرية . كما يرجع نسبه من جهة أمه الى اسرة كردية ، لايختلفون كثيرا عن امم الشمال في لونهم وقامتهم، وكان جد والدته لابيها ، وجدها لامها فى الفرقة الكردية التي توجهت الى السودان بعد حادثة اسماعيل بن محمد علي الكبير سنة ١٨٢١ . وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه الى اسوان ، وهو جد أمه لابيها ، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذي اختار « أطيان » المعاش في قرية من قرى الاقليم . وكان محمد أغا الشريف يتكلم التركية والكردية، وينطق العربية بلكنة غريبة توحى بانه ليس عربيا[٦] .

وكانت أسرة والدته تتسم هي الاخرى بالتقوى والصلاح والصلابة وكثير من الانفة والاعتزاز بالكرامة ، كانت تتسم بهذه الاشياء سلوكا وأخلاقا وفكرا . ومن هنا ورثت أمه عن هذه الاسرة التقوى والصلابة والعناد وسلامة البنية ، وكثرة الحركة حتى كانوا يدعونها في البيت « بالمشدة » أي رئيسة العاملين في البيت ، وقد ورثت كذلك عن أبويها صفتين نادرتين يندر وجودهما في النساء ، وهما حب الصمت والاعتكاف ، ولذا كان الناس يحسبون انها تصدر في صمتها واعتكافها عن كبرياء ونفخة أتراك ، كانوا يتوهمون فيها ذلك التوهم ، وما علموا أنها تصدر عن طبيعة تورث ، وخلقة دون تكلف[٧] .

وعلى أية حال فان قوة العزيمة لدى العقاد وصلابته قد ورثها عن

---

(٦) عباس العقاد : أنا ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٧) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ .

والدته ، كما ورث عنها وعن أبيه أيضا الاعتكاف والصمت ، اذ كان لا يبرح بيته في بعض الاحيان لمدة أسبوع • ومن ناحية أخرى فقد كان لا يتحدث عن شيء مطلقا الا اذا طلب اليه الحديث عنه وذلك في الاغلب الاعم [٨] •

وقد ورث العقاد كذلك عن أبويه التنظيم والدقة في معالجة أموره الاسرية وغيرها ، وحسبنا أن نعرف انه التزم نظاما خاصا به يسير عليه في بيته منذ شبابه الباكر حتى وفاته •• وحسبنا أن نعلم أيضا انه كان وفيا لاسرته وفاء يقتضيه ان يبذل من ماله ونفسه الكثير في سبيل مصالحهم وارضائهم ، اذ كان يوجب نفسه ما لم توجبه شريعة قط ازاء الاقارب ، وحتى لو أوجبته للاباء والامهات والاخوات ، فلم تكن توجبه للاخوة والاخوات وسائر الاقارب وابنائهم وبناتهم ••

وعاش العقاد بالشريعة الاسرية التي ارتضاها لنفسه كانسان فحسب ازاء أهله وعشيرته الاقربين وغيرهم ، عاش العقاد على هذه الشريعة حتى وفاته ••

٢ ـ مدرج الصبى :

وقد استقبلت العقاد مدينة صافية في جو المكان قلما تشوبه غاشية ، ممتلئة في جو الزمان قلما تخلو منه زاوية ـ كما يقول العقاد ـ وتتمتع بان كل شيء فيها جديد مع كل التفاتة ، ومع كل خطوة يخطوها المرء في أي اتجاه ، اذ تنتقل فيها من عصر الى عصر ، كما تنتقل فيها من حارة الى حارة ، وترجع في تاريخ مصر الى أقصى الماضي فتلقى لها تاريخا مثله [٩] •

ففي اسوان يلتقي التاريخ الماضي بالحاضر الذي كان يعيش فيه العقاد ، اذ كان المتحف والبيت فيها يتقابلان ، « والتاريخ فيها ـ كما يقول العقاد ـ حي يرزق ، ويتنفس الهواء لانه ماثل شاخص في الاحياء •

---

(٨) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ •
(٩) عباس العقاد : أنا ص ٥٣ •

والحياة فيها تتسربل بقداسة التاريخ العريق ، لانها صورة منه تتجدد مع الاجيال ، وفي أسوان ـ كذلك ـ رأى العقاد التقاء المشرق والمغرب ، ودرج وهو يشهد الحضارة الاوربية في كل جنس من أجناسها ، وكل ناحية من أنحائها[١٠] .

وقد كانت مناظر أسوان آنذاك فريدة بين مناظر الطبيعة المصرية، اذ كانت تشتمل على جزر وجنادل ، وتيارات وصخور في الماء والصحراء ، وتجمع هذه وتلك من الالوان ما تجمعه المعادن والجواهر ، فتحكي الذهب والفضة ، والشبه ، كما تحكي الزمرد والمرجان والياقوت . وقد قام « الخزان » مكان الجنادل التي ذهبت وتلاشت على مذبح عوامل التعرية ، واتجهت مصر صوب الخزان ترقب منه ومن معجزتها الخالدة (السد العالي) الضياء ممثلا في الطاقة الكهربائية والمائية التي ستنتصر بفضلها على الصحراوات المصرية[١١] .

وقد كانت هذه المناظر الجميلة باعثا للتنزه فيها بعيدا عن المدينة ومن فيها وما فيها ، وذلك للكشف والريادة ، وللمتعة والرياضة على سواء ..

على ان نزهة العقاد لم تقف عند السير فى جبال أسوان ، بل تجاوزتها الى الرحلة النيلية ، اذ قام برحلة نيلية في طفولته الباكرة واضطربت به السفينة بين الشاطئين ، واضطرب معها الشراع الذي يحاول ان يستقبل مهب الريح على غير جدوى[١٢] . ولكن هذه الحادثة لم تكن لتمنعه بعد ذلك من السير على شاطىء النيل حتى يصل قصر « ملا » فيجلس هناك على صخرة عالية على مقربة من ذلك القصر يناجي أحلامه ، فتنطلق شاعريته من مكمنها في نفسه ، وتقبل عليه عرائس الشعر وبنات الاماني في جلسته هذه التي تغريه بالنظر الى النيل ، وتشعره بالوحدة والانفصال عن عالم الناس ، ويظل في هذه الجلسة ـ في ذلك

---

(١٠) المرجع السابق ص ٥٦ .

(١١ ، ١٢) عباس العقاد : أنا ـ صفحات ٥٥ ، ٥٨ .

المكان الموحش المخيف وسط الجنادل والصخور ـ حتى ساعة متأخرة من الليل • ويصف العقاد ليلة مقمرة في أسوان فيقول : (١٤) •

في الليلـــة القمـــراء مـــا أحـــلى النظـــر
لكـــل شـــيء لاح فـــي ضـــوء القمـــر
حتى الثرى ، حتى الحصى ، حتى الحجر

ليســت مـــن الآجـــر هاتيـــك البنـــى
لا بـــل خيـــال مـــن ظـــلام وسنـــى
كخيـــلة الاشـــكال في السحـــب لنـــا

أكـــاد عنـــد رؤيتـــي طـــلاعها
أرســـل عينـــي لمـــا وراءهـــا
كمـــا تخـــوض نظـــرة فضـــاءها

قـــد شـــف بالصخـــرة مصباح الدجى
فكيـــف بالنفـــس وكيـــف بالحجـــى
عـــاش عـــلى مر الليـــالي مســـرجا

على ان هناك شيئا في أسوان غير المناظر الخلابة الآخذة بفؤاده وايقاظ ربة الشعر لديه ، وهو الشمس ، الشمس التي لم يكن العقاد يحس ازاءها بانها مصدر دفء وفقط ، او لتوضيح منهج وكفى ، بل انها (١٥):

شمس اسوان في الشتاء ... ارقصـــي أو تبرجـــي
انك الشمس صـــورت ... فوقنـــا للتفـــرج
لا لدفء كمـــا ادعـــوا ... او لتوضيـــح منهـــج

---

(١٣) عباس العقاد : الفصول ص ٨٧ •

(١٤) عباس العقاد : ديوان عابر سبيل ص ١٢ ، ١٢٧ ط أولى القاهرة عام ١٩٣٧ •

(١٥) عباس العقاد : وحي الاربعين ص ٩٧ •

واسوان في نظر العقاد « مدينة الشمس » لانها مدينة النور الذي تجد العيون به كفايتها ، وحظ النفوس والقلوب منه لا يقل عن حظ العيون انلم يزد ، وان الضياء اذا شغل نفس الانسان لفرط بهائه وشموله أفعمها بالحس فلا تلتفت الى ما يسمع ويلمس (١٦) .

وهذا النور الذي وهب « اسوان » شمسها ، من عالم الروحانيات، لان العقاد يشبع منه الروح والعين ، ولا يكتفي بشبع العين فقط ، وكان مغرما به أيما اغرام ، فهو يحبه .. يحبه حين ينظره ، وينظر به ، ويحبه حين يهتدي به في عالم البصر ، ويحبه حين يهتدي به في عالم البصيرة ، وذلك لانه يحسبه سرا من الاسرار ، او يحسبه سبل الهداية الى سر الاسرار حتى أوشك ان يؤمن بهذا الحسبان كل الايمان(١٧) .

وفي اعتقادنا ان هذه الصور المتضاربة المتناقضة التي ألفها العقاد في طفولته الاولى ، بما اشتملت عليه من جبال ووهاد ، ومن صحراء وعمران، ومن صمت وضوضاء ، ومن أسرار وبينات ، ومن عظمة النيل وجلاله ، وهدوئه الموار أو اضطرابه الرزين ، يزحف بطيئا في نظر العين سريعا في حساب المسافات ، وعظمة الشمس وجلالها في علياء السماء ، تعبر المدينة من الشرق الى الغرب في صراحة لا تميل ، وهذه الصخور نفسها التي تنتزع حق البقاء انتزاعا ، فتقف في وسط تيار الماء غريزة متماسكة لا يخيفها من النيل امواجه وفعله على مر السنين وآلافها ، قوية صلبة ، شامخة بأنفها ، تلهم القوة والعناد في سبيل الحق والبقاء ، وتوحى بالخلود والثقة بالنفس مهما تغيرت بها الغير ، وتقاذفتها الانواء(١٨) .

أجل ، توحى تلك الصور المتعارضة المتناقضة بالقداسة المحاطة بالاسرار العميقة في النفس والشعور ، تلك القداسة التي نحسها ولا نحيط بها ، تملأ النفس والشعور ، وتتحدى قوى النفس وتسبر أغوار

---

(١٦) عباس العقاد : في بيتي ص ٦ وما بعدها .

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ .

(١٨) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ ، وراجع كذلك : العقاد في مدرج صباه في كتاب « العقاد دراسة وتحية » لاحمد الشريف ص ١٤٣-١٤٤ .

العظمة في مكامن تلك النفس حتى تأتى بالعظائم والتضحيات ، وتستغرق الافكار والعقول[١٩] .

٣ ـ في مفترق الطريق :

واذا عرفنا ان « اسوان » من المشاتي العالمية ، تستهوى السائحين بمناظرها الطبيعية ، وشتائها العجيب ، وآثار الحضارة المصرية القديمة والحضارة الاسلامية ، اذا عرفنا هذا فلا عجب اذن ان تكون « اسوان » مرادا للسائحين يؤمونها في الشتاء من مختلف الاجناس والطبقات من جميع بلدان العالم . وبالاضافة فان سكانها الاصليين عبارة عن عصبة أمم صغيرة « يتجاوز فيها من ينتمى الى الفراعنة ، ومن ينتمى الى العرب ، ومن ينتمي الى البجاة ، وتسأل عن نسب الاسرة فيدلك عنوانها على أصل من الفرس ، أو من الترك ، أو من المجر ، أو من البوشناق ، أو من العباسين ، أو من العبيديين ، لانهم جميعا وفدوا اليها مع قوافل التجارة ، أو مع سرايا الجيوش ، أو مع اللائذين الناجين بأنفسهم من تقلب الدول وتنازع الحكومات[٢٠] .

وطبيعي ان يتمثل في هؤلاء وهؤلاء كل الحضارات والعادات والتقاليد مما يستدعى الدهشة والعجب ويستلفت النظر ..

فبينا تقف أمام أهالي « اسوان » المتمسكين بالتقاليد المتوارثة ، المحافظين المتشددين في المحافظة على الشعائر الاسلامية ، بينا تقف مع هؤلاء اذا بك حينما تسرح نظرك تجدك قد التقت بالمهندسين والخبراء والمفتشين الذين كانوا يعدون بالمئات وغيرهم ممن كانوا يقومون بأمر المحافظة من الانجليز العسكريين أو المدنيين الاخذين بأسباب المدنية على أتمها وأكملها، وما انتهت اليه من السفور وعدم المبالاة بهذه الشكليات التي تكاد تخنق الاسوانيين ، على حين تجيش بهؤلاء الحياة على أعنف ما تكون من الجيشان

(١٩) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ ، وراجع كذلك : العقاد في مدرج صباه في كتاب (العقاد دراسة وتحية) لاحمد الشريف ص ١٤٣ـ١٤٤ .

(٢٠) عباس العقاد « أنا » ص ٥٦ .

في ملاعبهم ومراقصهم وندواتهم وميادين السباق للتسري والتسلية وتزجية الفراغ[٢١] .

ومهما يكن من أمر فان هذا التفاوت في أساليب الحياة ، ووقوف العقاد في خير أسلوب تستقيم به الحياة والاخلاق في هذا البلد وفي هذه الظروف[٢٢] .

* *

وقد تلقى في « اسوان » من ظروفها التاريخية التي تحيط بها دروسا كثيرة عن طريق الخبرة والممارسة ، فثبتت في روعه بحيث لا يبلغ مبلغها مئات الكتب وآلافها في نفس ناشئنا الصغير[٢٣] ..

ولم تكن الدروس التي تلقاها العقاد في أسوان مقصورة على ما سبق فحسب ، لان هناك دروسا واضحة وصريحة من حوادث ذلك الزمن الذي يتسم بالنقائض والموافقات . وقد تلقى هذه الدروس على يدالشيخ الجداوى القاضي الشرعي ، أحد أبناء اسوان في القرن التاسع عشر ، وواحد ممن حضروا مع الشيخ محمد عبده دروس جمال الدين الافغاني ، ومن هنا عرف العقاد دعوة جمال الدين في اصلاح السياسة والدين على يد الجداوى في ندوته التي كان يعقدها في بيته أو في بيت والد العقاد ، حيث كانوا يقرأون الصحف ، والمقامات الادبية ، وبعض الدواوين الشعرية ودائرة المعارف للبستاني ، ويتطارحون الشعر .. كما عرف العقاد في هذه الندوة الكثير عن الشيخ محمد عبده عن طريق زميله وصديقه الجداوى ، فكان الامام محمد عبده موضع اعجاب العقاد وتقديره[٢٤] .

---

(٢١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٥ ، ٧٦ ، وراجع كذلك : اخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

(٢٢ ، ٢٣) راجع عباس العقاد ناقدا ص ٧٥ ، ٧٦ ، وراجع كذلك آخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

(٢٤) العقاد في ندوته ، راجع : العقاد دراسة وتحية «العقاد في مدرج صباه » ص ١٠٣ ، ومحمد عبده للعقاد ص ١١٦ ، وسعد زغلول سيرة وتحية للعقاد أيضا ص ٨٤ وما بعدها .

وازداد تقدير العقاد لمحمد عبده حينما رآه يتقدم المدعوين من ذوي المناصب العالية في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة افتتاح خزان اسوان ، وهو في ذلك محتفظ بكرامة العلم والدين والانسان العظيم[٢٥] . ولذا فقد كان الامام محمد عبده لدى العقاد مثلا أعلى يقبس من ضوئه الفكري في فلسفته في الاصلاح القائمة على التعليم .

ومما قوى هذا التصور في نفس العقاد تأييد الامام محمد عبده للعقاد حينما زار مدرسة « اسوان » الابتدائية ، وتصفح كراسة انشاء العقاد ، ثم ناقشه في بعض الموضوعات ، اذ قال له حينذاك ، وهو يربت على كتف العقاد الصغير « ما أجدر هذا ان يكون كاتبا بعد » ، ثم نصحه الا يقنع من العلم بوظيفة الحكومة[٢٦] .

والذي لاشك فيه ان شخصية العقاد قد تفتحت ، ونمى استعداد ملكاته النفسية والفطرية ، وذلك باستيعاب العقاد لتلك الدروس التي تلقاها من النشأة الاسوانية التي ابتلى فيها العقاد بالنقيضين على مفترق الطريق منذ طفولته الباكرة .

وخلاصة ما يقال في مفترق الطريق يتمثل في انه كان أبعد ما تكون الشقة بين النقيضين في أساليب الحياة، وهو الذي قاده الى الجرأة على النقد الاجتماعي والفكري منذ شبابه الباكر كما يتضح في كتبه ولا سيما كتبه الاولى مثل خلاصة اليومية[٢٧] . وهو الذي حدا به أيضا الى أن يدعوا الى الانسانية في الادب ، والعالمية في السياسة ، والوطن الذي تتسع له آفاق الفكر وآفاق الشعور ، فهو يحب مصر والشرق ، ولكنه لا يحب في الوقت نفسه ضيق الافق في عصبية وطنية أو شرقية[٢٨] ..

---

(٢٥) العقاد في ندوته ، وراجع العقاد دراسة وتحية « العقاد في مدرج صباه » ص ١٠٣ ، ومحمد عبده للعقاد ص ١١٦ ، وسعد زغلول سيرة وتحية للعقاد أيضا ص ٨٤ وما بعدها .

(٢٦) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٦٠١ وما بعدها .

(٢٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٨ .

(٢٨) عباس العقاد : أنا ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

ويتضح مما سبق ان النشأة الاسوانية قد قامت بدورها خير قيام في بلورة صفات العقاد وطبائعه التي غدت تمثل اتجاها ينفرد به ولا يشركه فيه غيره .

* *

ويبين هذا الاتجاه من تصرفه في المشاكل المألوفة لدى الاطفال الذين يمرون بمرحلة الطفولة . فقد كان اقرباؤه وجيرانه يمنعون أبناءهم من التورط في المزاح معه ، لان نتيجة المزاح معه ان يلقى الطفل ما يسوءه ، ولا تعقيب على ما يفعله العقاد : ويقول العقاد في هذا الصدد : « والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الاسرة كلمة الامهات التي كن يرددنها لاطفالهن كلما اصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أسيغه ، فاذا ذهبوا الى أمهاتهم يشكون ما أصابهم ، كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يا بني ، ولكن كل الناس ولا عباس[٢٩] .

ومن هذا القبيل أيضا رفضه للذهاب الى « الكتاب » لان المقريء الذي كان يقرئه القرآن حاول أن يضربه ، مع ان الضرب في «الكتاتيب» يعد الاساس الاول في دستور معلمي « الكتاتيب » ، وهذا الضرب او تلك العقوبة البدنية يقبلها الاطفال عن طواعية ، كما يقبلها أولياء أمورهم ويدعون الشيخ ان يستزيد منها مع أبنائهم ، لكن العقاد يرفضها ، وتقره الاسرة على عدم رجوعه الى المكتب ، لما ألفته منه ومن تصرفه في مثل هذه الامور ، وهذا الذي ألفته منه يتمثل في عدم رجوعه عن قرار اصدره مهما كانت الظروف[٣٠] .

ويمضي العقاد في هذا الاتجاه الى آخر مداه فنراه يرفض وهو في المدرسة الابتدائية ان يجيب المعلم حين دعاه باسم « عباس حلمي » جريا على تقاليد هذا العهد ، اذ لم يكن يدعى أحد من التلاميذ باسم أبيه ،

---

(٢٩) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ تحت عنوان « حياة قلم » .

(٣٠) العقاد في ندوته ..

ولكنهم كانوا يلقبونه بألقاب تركية مثل حلمي وصبري وما شاكلها(٣١) .

كما يرفض العقاد الالتحاق بالفرق الرياضية بالرغم من إغراء الاساتذة له ، لانه كان يأخذ نفسه بالتقاليد الاسوانية التي تنظر الى الالعاب الرياضية غير نظرتهم اليها اليوم ، ومن هنا نرى العقاد يستبدل رياضة السير على قدميه بسائر الفنون الرياضية(٣٢) .

وبجانب ذلك لم يرتد العقاد « البنطلون » القصير ، وكان يسير منفردا دائما فلم ير في صحبة التلاميذ في خروجه من المدرسة او دخوله اليها(٣٣) .

وبالاضافة الى ذلك كان العقاد كثير التأمل في الحشرات والطيور الغريبة النادرة والآثار الدارسة ، اذ كان يراقب الحشرات تحت « بير السلم » الذي يعتبر مزرعة خصيبة لانواع الحشرات الموجودة في مثل هذا البيت العتيق الذي نشأ فيه العقاد . فكان العقاد يقضي أغلب وقته في تأمل الحشرات ومراقبة سلوكها ، ولم تشفع لديه توسلات والدته التي كانت تخاف عليه منها ، لم تشفع لديه تلك التوسلات ، كما لم تنفع التهديدات على مختلف ضروبه ، ولم تفز الام من وليدها بعد ذلك بطائل(٣٤) .

ومن يقف على هذا السلوك من العقاد ، يفسر لنا مدى اغرامه فيما بعد بدراسة علم الحشرات والتاريخ الطبيعي ، إذ كان هذا اللون من الدراسة يستنفذ منه ثلاثة أرباع وقته وقراءاته ..

كما ان تأمله في الطيور الغريبة النادرة جعله يسعى وراء لفيف منها يسمى « بالكركى » واخذ يتأمله في صحراء أسوان ويلاحظ سلوكه في الجو وهو مشدوه لا يدري شيئا عن الوقت الذي قضاه في هذه المراقبة ، ولا عن المسافة الكبيرة التي قطعها سيرا على قدميه منذ خروجه من المدرسة

---

(٣١) عباس العقاد « حياة قلم » في اخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ .

(٣٢ ، ٣٣) العقاد في ندوته .

(٣٤ ، ٣٥) العقاد في ندوته .

حتى وصل الى الشلال[٣٥] • ثم قفل راجعا حتى وصل الى البيت في النصف الاخير من الليل ، فوجد أسرته في قلق واضطراب ، تبحث عنه في المدينة من أقصاها الى أقصاها حتى أعياها البحث ، فلجأت الى التسليم بقضاء الله في هذا الفتى • ومن العجيب ان تكون اجابته في هذا الجو النفسي المشحون بتوتر الاعصاب ـ حينما ثارت عليه الاسرة ـ أنه كان يمشي وراء الكركى ، ثم يتعجب في بساطة من ثورتهم عليه[٣٦] •

وليس عجيبا اذن ان يجد الدارس من بين دواوين العقاد الشعرية ديوانا يتحدث فيه عن نوع من الطيور يسمى « الكروان » ، ويهدى ديوانه الى الكروان ، ويعتبر الطير حجة لشعر الانسان وغناء الانسان ،فهو عند الشاعر وثيقة لا يعرض عنها ولا يفلتها من يديه • ويستهل هذا الديوان بقصيدة يقول في مطلعها[٣٧] •

هل يسمعون صدى الكروان
صوتا يرفرف في الهزيع الثاني
من كل سار في الظلام كأنه
بعض الظلام ، تضله العينان
يدعو اذا ما الليل أطبق فوقه
موج الدياجر ، دعوة الغرقان

وفيما يختص بتأمل الآثار الدارسة ، فقد عرفنا فيما سبق ان نزهته التي لا تعد لها نزهة أخرى هي الجلوس على صخرة بجوار قصر «ملا» التي يجرى تحتها النيل الخالد منذ آلاف السنين • وقد كان يتجرد في جلسته من حدود الزمان والمكان[٣٨] ، حيث يقرأ في صفحات النيل العظيم تاريخ الامم الغابرة التي عاشت على شاطئيه ، ويتأمل ويطلق العنان لتأمله ، فيذهب كل مذهب فيما يختص بأماني هذه الامم ، وهل تحققت ، أم انها ذهبت ادراج الرياح على مذبح الواقع الاليم ، ثم يربط بين أماني

---

(٣٦) العقاد في ندوته •
(٣٧) عباس العقاد : هدية الكروان ص ١٤ •
(٣٨) أنظر ص (   ) من هذا الكتاب •

هؤلاء وأمنياته هو ، وهل يكتب لها التحقيق أم انها تزول وتتلاشى ويجد نفسه منقولا الى العالم الاخر دون أن يقدم للخلود هدية متواضعة من فكره ونفسه تجبر خاطره .

أجل ، كان يجلس هذه الجلسة ويقف حائرا أمام ذلك المجد الخالد ، فينظر الى المقياس في هيكله القديم ، والى القصر ومدى روعة آثاره التي تشهد بعظمة المصريين القدماء ، ويمضي في تأمله - الى آخر مداه - من النيل الى القصر ، فيشعر بالوحدة والانفصال بل والانفصام عن عالم الناس .

وبجانب ذلك كله ، فقد كان العقاد لا يقبل كل ما يتعارض مع شخصيته ولو كلفه به أقرب الناس الى نفسه ووجدانه ، وذلك لانه نشأ مستقلا بكيانه وتقديراته في كل صفة من صفاته ، وفي كل عمل من أعماله ، ومن هنا كان ينفر من الكذب ويؤثر الصدق في كل شيء حتى المزاح(٣٩) .

ويتضح مما سبق ان ايثار العقاد للصدق ومقته للكذب ، حدا به الى التعويل على الصدق الشعوري في التجربة الادبية ، ومدى تعبير الشاعر عن هذا الصدق الشعوري في تجربته بالصدق الفني(٤٠) .

ومن يتتبع العقاد في سلوكه - وهو طفل يحبو أو فتى يافع - ازاء الحوادث التي اعترضته ، او التي يتجنبها غيره ، ووقف منها صامدا لم تلن قناته لها ، من يتتبعه في هذه الامور كلها ، يجد انها كانت مؤذنة بأن الطفل الناشيء يعمل عقله ويشحذ فكره في الوصول الى جوهر الاشياء مطرحا المظاهر الخادعة البراقة ، ومن هنا كان يشعر بالجلال والروعة التي تهوله في أشياء لا يخطر ببال لداته وأترابه أن يمروا بها ولو من بعيد ، وذلك كجلوسه في ذلك المكان المخيف - لمن هم في مثل سنه ليلا - عند قصر « ملا » أو في متابعته للكركي ليلا حتى يصل الى

---

(٣٩) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٠ ، ٨١ .
(٤٠) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٢ .

الشلال أو مراقبته للحشرات[٤١] .

وفي اعتقادنا أن تفكيره في جواهر الاشياء ومحاولته الوصول الى ذلك هو الذي حدا به ، أن يمقت في نقده ـ فيما بعد ـ الصنعة في الشعر بما فيها من وشى وبهرج محاولا الوصول الى لباب التجربة ، والنظرة الى الاشياء نظرة كلية يرفدها الوعي الكوني والوعي الحيوي الذي يتمتع به العقاد[٤٢] .

وخلاصة الخلاصات في اتجاه العقاد الذي برز من تصرفاته ازاء الحوادث التي كانت تعن له تؤكد أن اتجاهه في طفولته لا يقل خطورة ولا غرابة عن اتجاهه وهو ناقد كبير ، أو مفكر عظيم ، أو شاعر ملك ناصية الشعر وتربع على سمائه ، لان منبع هذا وذاك واحد في أنفس العظماء[٤٣] .

ونظرا لغرابة اتجاه العقاد بين أقرانه ولداته ، كانت الأسرة تعقد بسببه المجالس تلو المجالس ، مدعيا أحدهم أنه « واد تليفة » ، ولم يكن يدافع عنه من هذا الجمع الحاشد سوى خاله علي الشريف ، الذي كان يقول لهم : غدا سترون أنه سيكون « باشتنا كلنا » ، والعقاد مع ذلك كله كان يمضي في طريقه لا يلوى على شيء ، ولا يحس بما يعقد من مجالس أو اجتماعات ، منفذا ما يروق له ، أو معتقدا أنه الصواب[٤٤].

---

(٤١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٢ .

(٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

الفصل الثاني

كفـاح قلم

عرفنا فيما سبق أننا أمام انسـان له اتجـاه خاص بـه وحـده في طفولته وقد برز هذا الاتجاه من خلال تصرفاته ازاء الحوادث التي كانت تعن له ، أو التي كان من الممكن أن يتجنبها مثل لداته وأترابه مـن الاطفال • ولكنه لم يقبل أن يصدر في تصرفاته وسلوكه عما هو مألوف لدى الجميع ، ومن هنا كان يألف الغريب ويستغرب المألوف ، ومـن هنا كذلك كان نسيج وحده في طفولته ، ولذا فقد عانى الكثير في تطبيق فلسفته هذه ، على مشاكل عصره سواء أكانت سياسية أو اجتماعيـة أم خلقية أم ثقافية ، كما كانت تبدو له ، وذلك لان طريقه لم يكن سـهلا لينا ، واضحا ممهدا ، بل كان طريقا مفروشـا بالشوك مغلفـا بالضباب ، مرصوفا بالضحايا ، لا يعرف العقاد أين سيكون منفرجه ، ولكنه مـع ذلك كله كان يمضي وسط هذا التيار الجارف معارضا له ومناوئا ولذلك فلم تلن له قناة ، ولم يفت في عضده عن تحقيق فلسفته في الحياة ، ما أصابه من كوارث ومحن وخطوب ، بل أنه قد بذل كل ما في وسـعه من جهد وطاقة لئلا تكون هذه الفلسفة مقصورة عليه • ولكن كيف يتم ذلك ؟ وبأية وسيلة ؟

وللاجابة على ذلك نقول : لقد تسرب الى نفس الفتى أمل في الحياة خاله محققا لما يراوده ازاء مستقبله ، أو ازاء الوجهة القصوى في نهاية الطريق الذي يقصده وهو صناعة القلم ، ولم يكن لديه لصناعة القلـم صورة في أول الامر غير صناعة الصحافة[1] •

---

(١) راجـع : الرسـالة الصـادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ تحت عنوان « أمنيتي » للعقاد •

ولم يكن أمله مقصورا على صناعة القلم فحسب ، بل تجاوز ذلك الى أشياء أخرى طمح الفتى في تحقيقها ، اذ تمنى أن يصبح وليا من أولياء الله ، ورجلا من رجال الزراعة ، وقائدا من قواد الجيش[٢] .

هذه الامنيات مجتمعة تمناها العقاد في طفولته ، فأحب في الولاية تسخير قوى الطبيعة ، واستطلاع أسرار الدنيا والآخرة ، ومن هنا عكف على قراءة مناقب الصالحين ، وكتب السحر ، وصلى عشرات الركعات ، وسرد ألوف الاسماء» ولم يرجع عن هاتيك «الدروشة» الا بعد أن حدث له حادثان صبيانيان مضحكان على حد تعبير العقاد : أحدهما ضياع حذائه بالمسجد الجامع الكبير بين أولئك الذين يقال فيهم أنهم أهل طريق ، فقال العقاد : « ان أناسا يسرقون الاحذية في مساجد الله لا يرجى بينهم فلاح »[٣] .

وثانيهما : يتمثل في أن اماما من أئمة « المندل » كذب على الحاضرين باسم العقاد وهو ينظر في الفنجان ليستطلع الغيب ، فقال العقاد في ذلك : « أن الذي يكذب في الحس المشهود لن يدلني على الغيب المحجوب » . ومن هنا حدث بينه وبين الولاية والكرامات فراق لا رجعة فيه حتى انتهت حياته[٤] .

وكانت بواعث حبه للزراعة ترجع الى ولعه بتطبيق الاشعار التي كان يقرأها عن الازهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والانهار ، وقد يكون مدخلها الى نفسه أنها تعين على مراقبة أطوار الحياة ، وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والاطوار[٥] .

كما أنه لم يتمن قيادة الجيش الا لانه كان مغرما بلعبة الجيوش التي كانت مفضلة لدى الاطفال في ذلك العصر ، وكانت في تصوره لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد . وكان هو قائد الجيش المصري في هذه

(٢ ، ٣) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ تحت عنوان « أمنيتي » للعقاد .

(٤ ، ٥) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ .

اللعبة دائما ، وكانت مهمة القيادة لديه تتمثل في أن يطلب المبارزة من الاعداء ، ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسى على حسب المقام . وقد أعانته في هذه المهمة أنه جرب النظم في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعته التجربة[٦] على نظم الاناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، وأراد أن يثبت للسامعين أنه صاحب تلك الاناشيد ، فالتزم في نظمها أن يذكر اسمه كاملا في كل قطعة منها ، وانتصر بأناشيده انتصارا أعظم من انتصار القتال ، اذ أوشكت المناوشة كلها أن تنحصر في الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال[٧] .

ويرى العقاد أن حماسة النشيد هي بيت القصيد عنده من الجندية والتجنيد ، وأنها كانت متنفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرار[٨] .

وبالاضافة الى ذلك فان أمنياته السابقة كانت ترجمة أمينة لامنية الكتابة مستعارة في صورة من صور الصناعات الاخرى ، ولا سيما الصناعات التي لا تخلو من نضال ، أو لا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والاحياء[٩] .

« ومثل هذه الترجمة ــ كما يقول العقاد ــ معهودة في كل محاولة ناشئة قبل أن تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشيء يتمنى شيئا بعد شيء،

---

(٦) هذه التجربة تتمثل في مدح العلوم ويقول فيها :

علم الحساب له مزايا جمة — وبه يزيد المرء في العرفان
النحو قنطرة العلوم جميعها — ومبين غامضها وزين لسان
وكذلك الجغرفيا هادية الفتى — لمسالك البلدان والوديان
واذا علمت لسان قوم يا فتى — ندت الامان به وأي لسان

راجع : كتاب « أنا » للعقاد ص ٨٣ .

(٧ ، ٨ ، ٩) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ . وراجع كذلك : آخر ساعة الصادرة في ١٤ أغسطس ١٩٥٧ تحت عنوان « حياة قلم » للعقاد .

ويجهل ما يتمناه حتى ينبت فيه على القرار الاخير »[١٠] •

وهنا نتساءل عن حقيقة القرار الاخير •• ولكن الاجابة تأتي من قبل العقاد أيضا متضمنة أنه بعد طواف قصير في هذا التيه من الامنيات تنتهي الى أمنية الادب والكتابة •

وعلى الرغم من أنها تنتهي الى تلك الامنية ، لكنها تحمل في أطواء هذه الامنية مسحة من غلبة القيادة ، ونفحة من أسرار الولاية ، وشوقا الى المجهول لم يقف عند حد من الحدود ، ولم يفارقه قط حتى حين يحسب نفسه مستغرقا في الحس وفي غواياته وملاهيه[١١] •

وفي اعتقادنا أن العقاد بهذا التحليل قد فسر لنا ما التبس عليه في أول الامر من ثكنة القائد ، وصومعة العابد ، وروضة الشاعر •

وبعد هذا التفسير تتجلى لنا رؤية العقاد من وراء الغشاوة الظاهرة شيئا فشيئا ، تلك الغشاوة الناتجة من عدم اتضاح الرؤية كما ظهرت أخيرا لدى العقاد ، اذ تبين أن الثكنة والصومعة والروضة شيء واحد يفترق من بعيد ، ويتفق من قريب[١٢] •

١ ـ مجلة التلميذ :

ويرى الدارس أن العقادَ منذ وقر في نفسه أنه يمضي نحو تحقيق هدفه في صناعة القلم ، وخاصة بعد أشعاره التي كان ينشدها في معاركه الحربية ، والتي ذاع صيتها لدى أترابه ولداته في مدينة أسوان • بعد ذلك أخذ يبذل قصارى جهده ليقرأ كل ما يقع تحت يده من الكتب والمجلات وغيرها •

وأول شيء من هذا القبيل وقع تحت يده هو طائفة من صحف « عبدالله نديم » بصفة عامة ، ومجلة الاستاذ بصفة خاصة ، وقد عثر عليها العقاد في « دولاب المنظرة » التي كان يجلس فيها أبوه ورفاقه في

---

(١٠) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ ، وراجع آخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس سنة ١٩٥٧ •

(١١ ، ١٢) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ وراجع وراجع اخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس سنة ١٩٥٧ •

ندوة الشيخ أحمد الجداوي[١٣] .

ولا يسل القاريء عن مدى فتنـة العقاد الصغير بعناوين النديـم في مجلة الاستاذ . وحسبنا أن نعرف أن هذا الفتى الصغير راح يحاكـي مجلة الاستاذ ، وذلك بأن قطع الورق قطعا قطعا على قدر مساحتها ، وعمد الى مكان العنوان من مجلة « الاستاذ » فكتبـه في مجلتـه « التلميـذ » معارضا بذلك النديم في عنوان مجلته[١٤] .

ولم تقف معارضة العقاد للنديم عند العنوان ، بل تجاوزت ذلك الى المقالة الافتتاحية في أحد أعداد « الاستاذ » ، وهي مقالة[١٥] لها شهرتها وتحت عنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » ، وفحوى هذه المقالة أننـا نطالب بالاستقلال ونزعم أننا والاوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون هذا الزعم ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا ، تلك دعواكم ولو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا . وهي مقالة طويلة أربت مساحتها على عشرين صفحة ، وقد ختمها النديم بقوله : « ان آخر الدواء الكي ، وقد بلـغ السيل الزبى ، فان رفأنا الخرق وشددنا أزر بعضنا ، أمكننا أن نقـول لأوربا نحن نحن ، وأنتم أنتم ، وان بقينا على هـذا التضـاد والتخاذل واللياذ بالاجانب ، فريقا بعد فريق ، حق لاوربا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال ، لتلحقنا بالبهيم الوحشى ، وتصدق في قولها لو كنتـم مثلنا لفعلتم فعلنا »[١٦] .

وقد عارض العقاد مقالة النديم ، بأن أخذ فقراتها ورد عليها واحدة واحدة ، ومن هذه الردود « اننا نحن الشرقيين ، لو كنا مثلكم – أيها الغربيون – فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال ، واستباحة

(١٣ ، ١٤) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس ١٩٥٧ .

(١٥) افتتح بها عبدالله نديم الجزء الثانى والعشرين من السنة الاولى .

(١٦) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ من أغسطس ١٩٥٧ .

الحقوق ، وافتراء الاكاذيب ، والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ، ولا نريد أن نفعل فعلكم وسترون فعلنا عما قريب »[١٧] •

وقد ظلت مجلة « التلميذ » تصدر ، وهي مخطوطة ، وليس لها من هيئة التحرير سوى محرر واحد هو العقاد التلميذ ، وليس لها من قراء سوى زملائه في المدرسة ، وأقربائه المشجعين أو المتندرين المتفكهين ، ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن اليسير[١٨] •

واذن فان السر في اتجاه العقاد الى صناعة القلم يرجع بعضه الى دولاب المنظرة بما يحتويه من صحف ومجلات ، ويرجع البعض الآخر الى الملكة النفسية التي خلقت في العقاد قبل أن تخلق له أدواتها • وفي هذا الصدد يقول العقاد : « وربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا الا لانني سأكون كاتبا يوما من الايام متى تيسرت الاداة»[١٩] •

* *

وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا المقام : ما المدرسة الصحفية الاولى التي واجهت العقاد الى ميدان صناعة القلم ، هل هي مدرسة النديم بصحفه المتعددة ، وبذلك يكون النديم استاذه في هذه الصناعة ؟

ان الباحث المدقق يرى أن العقاد كان يحب صحف النديم ويغرم بها اغراما جعله يحاكي واحدة منها ، وهي مجلة « الاستاذ » النديمية ، بمجلة « التلميذ » العقادية •

وهل يعتبر الحب للنديم وصحفه وثيقة تدين العقاد بالتلمذة للنديم وبأنه يصدر في عمله الصحفي عن اتجاهات المدرسة النديمية ؟

وللاجابة على هذا التساؤل نقول : لم يكن الحب يوما ما وثيقة للتدليل على أن التلميذ يصدر عن اتجاه الاستاذ وفكره ، لان الحب

---

(١٧) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ من أغسطس ١٩٥٧ •

(١٨ ، ١٩) المرجع السابق ونفس العدد •

مصدره الاهتمام والعطف والشعور ، والتلمذة تنشأ عن مدى ما للاستاذ من أثر فكري على ذهن التلميذ من حيث المنهج والقضايا التي يعالجها ، وفرق بين مصدر الحب والتلمذة .

ودعنا أيها القارىء نقف على رأي العقاد في هـذه القضية بدلا من الحدس والتخمين ، أو من الايهام والتهويم .

يقول العقاد : ان النديم كان أول من لفته الى العمل في الصحافة ، ولكنه ينفي في الوقت نفسه أن يكون من مدرسة النديم في صناعـة القلم ، أو أن تكون قدرته المختارة بين أمثلة النبوغ التي يتمناها ، أو بين الشخصيات المثالية التي يجلها ويحب أن ينتمي اليها[٢٠] .

ويرجع العقـاد الاختلاف بينـه وبين النديم الى سبيلين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، وثانيهما يرجع الى مزاج العقاد الشخصى الذي فطر عليه .

فمن ناحية الاحوال العامة في عصر العقاد يرى أنهـا كانت تخالف الاحوال العامة قبل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال وذلك لان دخول الانكليز مصر كان مسألة دولية تعمـل فيها الدولـة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامـج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه[٢١] .

ومن ثم يرى العقاد أن الذين ولدوا بعد الاحتلال ، أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائهم الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ، ولـذا فانه لا يجوز لهم أن يفرطوا في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة «شكلية» لا تفيدهم في جهادهم ان صح أنها كانت تفيدهم قبل ذلك[٢٢] .

واما من ناحية المزاج الشخصي فخلاصة ما يقال فيه : ان النديم كان ينزع الى شيء من التهريج ، وليس كذلك العقاد في نشأته بين أبوين

(٢٠ ، ٢١) راجع : اخر ساعة الصـادرة في ٢١ اغسطس سنة ١٩٥٧ .

(٢٢) المرجع السابق ونفس العدد .

متدينين ، بل ومتشددين في تدينهما ، على سمت ووقار يندر أن يتحقق مثلهما لكثيرين ، ومن هنا انطبع بالمحافظة الشديدة على سمت الوقار « واللياقة » بالوراثة والقدرة والمحاكاة[٢٣] .

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر الى مثله الأعلى فلا يراه فى صاحب « التنكيت والتبكيت » وصاحب « المسامير » ، ولكنه بفضل الامام محمد عبده على النديم في هذا الضرب ، ويرى فيه مثله الاعلى ، وذلك لأن وقار محمد عبده هو القدرة التي يرتضيها حين ينظر الى النديم فيظفر منه بالثناء ولا يظفر منه بالاقتداء[٢٤] .

واذن فمثل العقاد الاعلى هو الشيخ محمد عبده ، وأثره في نفس العقاد من أقوى الآثار ، وذلك لما سمعه عنه من الاستاذ الجداوى في ندوته ، ولوقوفه ، جانب الحق ضد رجل من أثرياء اسوان استولى على أموال رجل من المهاجرين الى السودان ، وعز عليه اثبات حقه لدى القضاء ، فلجأ الى الشيخ محمد عبده ، فتولى القضية بنفسه وخاطب في شأنها سعد زغلول الذي تحولت اليه ، فحكم سعد فيها حكما فاصلا هز الاقاليم بأسره ، ومن هنا راق العقاد أن يقتدى بالشيخ محمد عبده في غيرته على الحق ونجدته للضعيف ، وقلة اكترائه للقيل والقال ، وأعجب بخلقه فوق اعجابه بعلمه[٢٥] .

ويعد العقاد نفسه مديناً بخطته في السياسة الوطنية لاعجابه بالشيخ محمد عبده ومريديه من أمثال سعد زغلول ، وبتتبعه لمناهج الشيخ محمد عبده السياسية ارتسمت في مخيلة العقاد في بواكير صباه مناهج السياسة التي كان يقاد بها ، وقاد غيره بها مدى الحياة[٢٦] .

ولكن هل مجرد القدرة ، أو مجرد التأسّي بمثل أعلى ، قد وجه العقاد الى صناعة القلم ؟

وهنا يجدر بنا أن نقف على رأى العقاد في هذا الصدد ، اذ ركز

(٢٣ ، ٢٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢١ من اغسطس ١٩٥٧
(٢٥ ، ٢٦) عباس العقاد : « أنا » ص ٨٣ وما بعدها .

بواعث الكتابة لديه في ثلاثة اشياء :

أولها : كلمات التشجيع التي يتلقاها الناشىء في مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم ، فيمضي الى وجهته على يقين من النجاح ، وأكبر تشجيع صادفه العقاد وكان له أثره في نفسه ، هو تشجيع الشيخ محمد عبده له وهو في زيارته لمدرسة أسوان الابتدائية ، اذ قال له حين اطلع على كراسة العقاد في التعبير : ما اجدر هذا ان يكون كاتبا بعد . فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمع العقاد من كلمات التشجيع على حد تعبير العقاد ، ولكنها جاءت بعد سنوات في القراءة ومحاولة الكتابة واصدار الصحف التي تطبع على « البالوظة » .. ولا يقرأها أحد غير العقاد وغير تلميذين أو ثلاثة من الزملاء ، ومن هنا كان لابد أن يوجد سبب آخر يدفع العقاد نحو النجاح في اتخاذ الكتابة صناعة(٢٧) .

ثانيها : الرغبة التي كانت تدفع العقاد تجاه هذه الصناعة وذلك لانه أحس من نفسه القدرة على هذا العمل ، والاستعداد له مع الاجتهاد والتذرع بالوسيلة الناجحة لتحقيق تلك الرغبة الكامنة في طويته(٢٨) .

وثالثها : الظروف التي تمهد اسباب النجاح للكاتب الناشىء ، وتيسر له البدء في طريقه ، ثم المثابرة عليه الى غاياته القريبة والبعيدة(٢٩) .

ولقد اجتمت للعقاد هذه الاسباب الثلاثة ، ومن هنا نجح في هذه الصناعة كأحسن ما يكون النجاح ، وبز أقرانه في هذا المضمار ، ولولا اجتماع هذه الاسباب للعقاد لم يكن قد تحقق له هذا النجاح . وذلك لأن كلمات التشجيع قلما تفيد اذا امتنعت الظروف المواتية ، وهي مع مؤاتاة الظروف تضيع عبثا اذا امتنعت الرغبة في نفس الناشىء ودل امتناعها على نقص الاستعداد ، أو على الرغبة في عمل آخر يضل عنه حتى يهتدى اليه في ظرف من الظروف(٣٠) .

٢ — في عالم الوظائف :

نحن الآن أمام انسان ظهرت عليه أعراض الكتابة ، ولم تكن تعني

(٢٧،٢٨،٢٩،٣٠) عباس العقاد : أنا ، ص ٨٨ ، ٨٩

في تصوره ، سوى الاشتغال بالصحافة ، ومن هنـا فانه بعد حصوله على الشهادة الابتدائية في عام ١٩٠٣ ، وبعد ان افتقد امله في الالتحاق بالكلية الحربية أو مدرسة الزراعة العليا على مذبح مشورة الوالد الذي رأى أن يكتفي بما حصل العقاد من الدرس وأن يلتحق باحدى الوظائف ، وبعد أن لمح في طويته المكبوتة أن شغفه بدراسة الزراعة وتعلقـه بطيـور الكركي المهاجرة في اسوان ، وتأمله في الحشرات .. بعد أن لمح أن شغفه بهذه الاشياء كلها صادر عن وجدان فنى صادق فلسف به العقـاد قراءاته في هذه الاشياء فيما بعد ، فذهب الى أن غرائز الحشرات بحث في اوائل الحياة ، وفلسفة الاديان بحث في الحياة الخالدة الابديـة ، وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء ، قبسان من حياة انسان في حالى الحب والنقمة ، ونهضة الام أو ثورتهما هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة انسان ممتاز بين سائر الملايين . وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول الى المحيطالكبير ، ومن هنا يخرج العقاد بزاد الفكر والشعور والخيال ، يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله ، كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين(٣١) .

نقول بعد قلقه تجاه تحقيق أمنياته هذه ، وبعد أن وقف في التعليم الى هذه المرحلة قصدته البطالة ، وأمه البؤس ، وتحالف عليه النحس ، فظل عامين يجاهد جهاد الابطال كي يخرج من هذه الضائقة ، واشتغل في هذين العامين مدرساً في مدرسة المواساة الابتدائية بأسوان ، وهي المدرسة التي تخرج فيها العقاد .

وفي هذه الاثناء زار مصطفى كامل أسوان ومعه الكاتبة الفرنسـية « مدام جوليت آدم » وكاتبة انجليزية من حزب الاحرار تدعى « مسز يونج » ، وانتهز ناظر المدرسة الفرصة ودعا مصطفى كامـل لزيارة المدرسة ، فذهب اليها ومعه الكاتبتان ، وكانت الحصة حصة محفوظـات

---

(٣١) عباس العقاد : « أنا » ص ١١١

ولغة ، فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لم تفد نفعـا اقامتـه   غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وايقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ، والتفت مصطفى كامل الى العقاد والى الاستاذ «محمد عيد شلبي» متسائلا ، فأدركه العقاد قائلا : ان التلاميذ معذورون، لانهم في أسوان يعلمون انالغيم الذي يظلل الرؤوس نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع ، فلعله أنفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر •

وعلى الرغم من حسن التخلص الذى ابداه العقاد لمصطفى كامل – وكان ينتظر منه أن يتقبله بالاستحسان والارتياح بوصفه خطيبا – فان مصطفى كامل ، قد تجهم وجهه ، وحينئذ عرف العقاد أن الاستدراك على مصطفى كامل – ولو من باب الفكاهة ، أمر كثير على طاقته النفسية والفكرية(٣٢) •

واشتغل أيضا في تعلية « خزان اسوان » مقاولا للانفار ، وكان يقف وراءهم في حمارة القيظ في أسوان(٣٣) ، وظل في هذا العمل حتى استطاع والده أن يلحقه بالعمل في القسم المالي في مدينة قنا ، وحينما ثبت في وظيفته نقل الى القسم المالي في مدينة الزقازيق ، وكان ذلك في عام ١٩٠٥ ، وتكرر زياراته الى القاهرة مرة كل أسبوعين ، ليشاهد التمثيل لدى فرقة سلامة حجازي ، وليشترى زاده من الكتب التي كان يدخر لها من راتبه ، على قلته اذ لم يبلغ سوى خمسة جنيهات ، جزءا كبيرا في كل شهر •

وفي تردداه على المكتبات بالقاهرة كان يلتقى بكبار الكتاب من أمثال جرجي زيدان والدكتور يعقوب صروف وغيرهما من مشاهير الكتاب الذين كان يسألهم العقاد عما يعن له في قراءاته ، وعن بعض الكتب التي تعالج

(٣٢) لااجع : عباس العقاد ناقدا ص ٩١

(٣٣) عباس العقاد : « أنا » ص ٩٦

ما يعترضه من مشكلات وقضايا فكرية ..

ويعاود العقاد الحنين الى الصحافة وهو في مدينة الزقازيق ، فيتطلع اليها من جديد ، وتتوق نفسه الى اصدار مجلة ، لكي تمنحه الحرية في أن يقول ما يعتقد من غير سلطان لأحد عليه ، ومن هنا نراه يزمع ـ وهو يعمل في مدينة الزقازيق ـ على اصدار مجلة أدبية ، ولهذا راح يدخر من راتبه الشهرى جنيها في كل شهر لهذا المشروع ، على الرغم من أنه ينفق من راتبه جزءا لشراء الكتب أيضا . وقد شجعه على الاقدام في هذا المشروع أنه عرف تكاليف الطباعة عندما طبع قصيدته التي يصور فيها شوقه الى اسوان ، والتى يقول في مطلعها(٣٤)

ذكرانى نعيمهـــا ذكـــرانى   حبذا لو علمتما ما أعـــاني

وقال منها في أسوان :

لست أرجو عودا الى أسوان

وقد عارض بها قصيدة المعري

عللاني فان بيض الامـــاني   فنيت والزمان ليس بفـان

وحينما سمعها زملاؤه في العمل ، اقترحوا عليه أن يطبعها ويوزعها عليهم ، وقد لبى العقاد طلبتهم . ولكن الذى حدث بعد هذه القصيدة ، أن تحركت في نفسه بواعث الصحافة ، ففكر في مشروعه السابق ، ومضى يذلل كل عقبة كؤود تتصدى لتعويقه . ولكنه غض النظر عن اتمـــام مشروعه حينما وقف على حقيقة الصحافة الاسبوعية في تلك الآونة ، وما تنزر به من المهانة والازدراء ، اذ لم ينقطع لها حينذاك سوى الحثالة من نفايات البلد ، ولا تعتمد في ذلك الوقت على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال(٣٥) .

وعلى الرغم من أنه توقف عن اصدار المجلة الاسبوعية ، الا أن

---

(٣٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢٨ من أغسطس ١٩٥٧

(٣٥) المرجع السابق نفس العدد

بريق الصحافة ، وما تنطوي عليه نفسه من جيشان ازاء هذه الصناعة لم يفارقه ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، ومن هنا وعلى غير موعد نراه يستقيل من وظيفته في الزقازيق في عام ١٩٠٦ ، ويتخلص من عبودية القرن العشرين في تصوره ، اذ قال في هذا الصدد : انني لا أنسى حتى اليوم أنني تلقيت خبر قبولي في الوظيفة الأولى التي أكرهتني الظروف على طلبها كأنني أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الاسر أو العبودية • اذ كنت أؤمن كل الايمان ، بان الموظف رقيق القرن العشرين[٣٦] •

وبعد ذلك نراه يلتحق بمدرسة الفنون والصنائع ببولاق ، ولا يمكث فيها طويلا حتى نرى الظروف قد أكرهته على قبول وظيفة في مصلحة البرق (التلغراف) هنا يلتحق بمدرسة « التلغراف » في ضاحية حدائق القبة بالقاهرة •

نقول لم يستطع التخلص من اسار هواه في صناعة القلم ، ومن هنا نراه يحاول الاشتغال بالصحافة اليومية ، ولا سيما اذا ما كانت الصحيفة التي سيعمل فيها يتفق منهجها واتجاه العقاد وفلسفته ••

فأين يعمل اذن •• أيعمل في جريدة اللواء ، وخاصة أنهم كانوا يطلبون في ذلك الوقت مترجمين يعرفون الانجليزية والفرنسية بعد تفكيرهم في انشاء " لواءات » غير « اللواء » العربي ، تصدر باسم « الاستاندارد » و « ليتندار » • واذن ففي « اللواء » متسع لأن يضم العقاد بين محرريه ، ولكن هل عند العقاد طاقة نفسية للاشتغال في « اللواء » ، وهل يرى العقاد أن جريدة « اللواء » يتفق منهجها ومنهج العقاد وفلسفته ، وهل وظيفة مترجم هي بغية العقاد من العمل في الصحافة[٣٧] •

وللاجابة على هذا التساؤل نقول : ان العقاد رفض العمل في جريدة « اللواء » لأن محادثته الاولى مع مصطفى كامل والتي أشرنا اليها فيما

---

(٣٦) عباس العقاد : « أنا » ص ٩٦

(٣٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ سبتمبر ١٩٥٧

سبق لم تشجعه على مزاولته له في عمل دائم ، بل صورته له رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو « للقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحح قولة قالها ، أو رأيا ارتآه •

ومن ناحية اخرى فان العقاد يريد أن يعمل في الصحافة كاتبا لا مترجما • كما أن منهج الجريدة لا يتفق مع منهج العقاد أحد تلاميذ الامام محمد عبده ، ومن هنا يختلف منهج العقاد مع أساس دعوة الحزب الوطني ، فليس هو من القائلين باستقلال مصر تحت السيادة العثمانية كما يقول دعاة الحزب الوطنى صاحب صحيفة اللواء • ولهذه الامور مجتمعة رفض العمل في صحيفة « اللواء » •

فأين يعمل اذن ؟ •• وهنا ضاقت به الارض بما رحبت ، ولم يجد ملجأ سوى أن يتجه الى الله في هذه الضائقة ، وخاصة أنه كان في حاجة أي حاجة الى العمل •

وبينما هو على هذه الحال ، اذ بالاستاذ فريد وجدى يعلن عن صدور صحيفة « الدستور » اليومية ، ويطلب في الاعلان حاجته الى محررين •

ومن ثم تنفس العقاد الصعداء ، لان بوادر أمل ــ طالما أرقه وأقلقه في عالمي النفس والحس ــ لاح له أن يتحقق •

وذلك لان منهج الاستاذ وجدي في العمل ، ومناقشته القضايا بروح علمية تكفل للعقاد حرية الفكر في كل ما يكتب في الصحيفة ، ومن هنا استقال من وظيفته الحكومية ، واشتغل محررا مع الاستاذ وجدي ، وقامت الجريدة على أكتافهما وحدهما من حيث التحرير والترجمة والتبويب وغير ذلك من الامور الصحفية التي تلزم لاصدارهما جريدة •

٣ ــ العقاد بين التقليد والتجديد :

وماذا يصنع امعقاد بعد ان تحقق أمله في الاشتغال بالصحافة ، هل يعمل فيها كما يعمل الصحفيون التقليديون ، أم ما هو مخططه في العمل الجديد ؟

وفي اعتقادنا أن العقاد لا يمكن ان يدخـــل في قالب الصحفيـــين التقليديين لان الصحافة حينئذ لا تخرج عن كونها وسيلة للشـــهرة والادعاء ، والعقاد لا يريد العمل بالصحافة من أجل الشهرة ، التي دعا الى تركها وعدم الانقياد لها[٣٩] :

دع الشهرة العورات تقتاد غافـــلا على حكها يجري وان طاش او ظلم
اذا الدهر لم يعرف لأي الحق حقه فللدهر مني موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيع الذكر في شرع أمة فلا كان من ذكر ولا كانت الامم

ولكنه يريد العمل بالصحافة من أجل رسالة يؤمن بها ويريد أن يوصلها الى الناس عن طريقها .

وهنا نسأل انفسنا عن الجديد الذي يريد استحداثه العقاد في هـذا الميدان ؟ نقول ذلك : لان العقاد قد الفى الصحافة المصرية قائمة على فن المقالة الادبية منذ انشائها قبيل الثورة العرابية ، وكانت « الجريدة » التي انشأها حزب الامة ، قد سبقت صحيفة « الدستور » في تاريخ الصدور ، وكان من بين كتابها الفطاحل " محمد السباعي » تلميذ « لى هنت » في فن المقالة على منهج المدرسة الانكليزية ، ومن ثم كان السباعي رائدا لفن المقالة في الصحافة المصرية غير مدافع[٤٠] .

والدارس لمقالات أستاذنا محمد السباعي يخرج منها بأن للسباعي فيها ابداعا يعرفه قراء كتابه الذى سماه " بالصور » . ذلك الكتاب الذي أراد أن يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم " الاسكتش » Sketch في أدب الغرب الحديث[٤١] .

ومن ثم فان العقاد لم يحاول في كتابة مقالاته جديدا ، غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم يتعرض للنقد الاجتماعي الا قليلا ، وكذلك موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، وذلك لانه ابـان اشتغاله في صحيفة الدستور كان مشغولا بنظم الشعر من موضوعاته ، وهو

(٣٩) عباس العقاد : وحي الاربعين ص ١٦٧
(٤٠،٤١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧ .

أولى ـ من وجهة نظره ـ بالوصف العاطفي من المقالات[٤٢] .

لم يحاول العقاد اذن أن يجدد في المقالات الادبية على الرغم من ان مطالعاته في تلك الآونة كانت تستوعب أدب المقالة أو تكاد ، اذ أنه كان يدمن القراءة في انتاج أعلام النقد الادبى والادب الانجليزي من أمثال « توماس كارلايل » Thomas Carlyle وماكولى Macaulay ووليم هزلت William Hazlitt وكوليردج Coleridge ولى هنت Leigh Hunt وماثيوز ارنولد Mathews Arnold وغيرهم من أئمة فن المقالة في القرن التاسع عشر ، وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في المجلات الضافية ، ولاينشر في الصحف اليومية ، لانها قد تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين او أربعين صفحة[٤٣] . وكان العقاد يترجم منها ما يصلح للنشر في الصحيفة السيارة ، ومن أمثلة ذلك البحث الذي كتبه فرانسيس بيكون عن « التنبؤ » حيث عرض « بيكون » للتنبؤات التي صدرت عن حساب وتقدير صحيحين ، وقد اتفق أنها تحققت لاسباب أخرى خفية[٤٤] .

ويرى « بيكون » أنه يحسن الا تعار تلك التنبوءات جانبا من الاهمية ، وغاية ما هناك أنها تصلح للسمر في ليالي الشتاء القارصة حول نيران الموائد . كما طالب بألا يعتقد فيها أحد ، لان الاعتقاد فيها يغر بسطاء العقول فيتخذونها قضية مسلمة ، ويبنون عليها . انه من الممكن لبعض الناس الانباء عن المستقبل فيلجؤن اليهم ويؤسسون أعمالهم على أقوالهم الكاذبة[٤٥] .

ولعل السبب في ترجمة العقاد لهذا البحث يتمثل في تصحيح العقائد العامة ، بل والخاصة تجاه التنبوء والاستخارة وغير ذلك من الاساليب

(٤٢) المرجع السابق .
(٤٣) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧ .
(٤٤) راجع الدستور الصادرة في ٧ديسمبر ١٩٠٧
(٤٥) المرجع السابق ، نفس العدد

التي كانت سائدة في مصر حتى أوائل هذا القرن •

كما ترجم العقاد حاشية على كتاب « جمهورية افلاطون » المترجم الى الانجليزية بقلم « السير برسى شيللى » وفي هذه الحاشية بحث « برسى » فلسفة الاخلاق عند أفلاطون ، كما كتب فيها مقالات أخرى في الاخلاق والشعر لدى كل من سقراط وافلاطون[٤٦] •

ولم تقف استفادة العقاد من المقالات الادبيـــة في الادب والنقـــد الاوربيين على الترجمة لبعضها فحسب ـ وذلك على الرغم من عدم محاولته للتجديد في المقالة الادبية في اللغة العربية ـ بل حاول أن يكتب عن الادباء على غرار هذه المقالات •

وفي اعتقادنا اننا لو حاولنا أن نتعرف على المبادىء الفكرية الطليعية والنقدية في مقالاته في صحيفة « الدستور » ، لكان ذلك دليلا قاطعا على مدى استفادته من الابحاث النقدية الاوربية وهو لم يتجـاوز من عمره عشرين ربيعا •

ومن أفكاره الطليعية في صحيفة « الدستور » ما ذهب اليه من ان المصري ينزل الى ميدان الحياة غير هياب ولا وجل ، اذا هو تعلم ، لانه اذا تعلم ينفض عن نفسه غبار الخمول ، وينضو ثوب الراحة ، وتنزع همته الى طلب المجد الصحيح من أبوابه التي هي العمل والتعليم ••

وينتهي الى قوله : « علموا الناس وانتم لا تجـدون تلميـذا يؤثـر السجن على المدرسة ومتعلما يفضل الحبس على الحرية »[٤٧]•

ومن ناحية أخرى نراه يعرض للمستشرقـين الذيـن يبحثـون في شئون الأمة الاسلامية ويبين أن وجهتهم العلم وتطبيق قضايا علم الاجتماع على أدوار هذه الامة التي كانت آية الرفعة فأصبحت آية في الانحطاط •• ومن ناحية اخرى يبين العقاد أن لهم وجهة أخرى ، سياسية بحتة تجري

---

(٤٦) راجع صحيفة « الدستور » الصـــادرة في ١١ ينـاير ١٩٠٨ والاعداد التي تليها •

(٤٧) راجع صحيفة الدستور الصادرة في ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠٧

مباحثهم فيها مجرى الصائد يتعرف مكامن الصيد ومسارحه ، ويتبين مواقع الضعف والقوة منه ، ليرصد له الشرك في الطريق الذى يختلف اليه ، وتتكيف مشارب هذه الفئة بتكيف مشارب السياسة وتناوح مهاب الاستعمار[٤٨] .

والرأى العام في تصور العقاد عبارة عن مجموع آراء افراد الامة ، وكلما كانت الامة أوفر من المعارف حظا ، وأوفى من الاتحاد قسطا ، كان لرأيها العام شخصية واضحة وصورة صحيحة ، وكلما كانت الامة جاهلة مفككة الاوصال كان رأيها العام مشوها مضطربا لا تكاد تعرف له صورة .

ويقول العقاد على هذا الرأى العام في تهذيب طباع أفراد الامة وترقية عواطفهم وعلى أسسه تلين شكائم الجبارين وتهدأ أشرة المستبدين : ومن هنا فانه يرى أن الرأى العام قوة دونها كل قوة ، لأنه ارادة الملايين مجتمعة في ارادة واحدة ، ومتجهة الى اتجاه واحد .

وتأسيسا على هذا الفهم نراه ينعى على المصريين تجاهلهم لقوة الرأى العام فلا يجهرون بمطالبهم ويكتفون بالالم والشكوى في بيوتهم ، ولا يتكلفون في اظهار ما تكنه صدورهم أقل مشقة ، ، ويكلون أمر كل صلاح على عاتق الحكومة « ومن أين تعلم الحكومة مكان الشكوى منا ونحن سكوت على ما بنا ، صموت لا يسمع صوتنا » .

« نعم قد تعلم حكومتنا بحاجاتها فتهملها أحيانا كثيرة ، الا أن في التنبيه قوة ليست في السكوت حتى ان الخالق تقدست صفاته مع احاطته بسرائر النفوس ومطويات الضمائر ، طلب الينا ان نجاهر له بحاجاتنا »[٤٩] .

على أن الشعب هو كل شيء لدى العقاد ، ومن هنا يرجع اليه الفضل كله ، ويتضح هذا من ذهابه الى أن « خوفو » ليس صاحب الهرم الكبير ولكن صاحبته الامة المصرية باقامته تمثالا لها وهو أول تمثال أقيم لتخليد

---

(٤٩) راجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧
(٤٩) للجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧
(٤٩) راجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧

ذكرى الامم على حين لم يهتد الناس الى نصب تماثيل الرجال • وان من يتفرسه جيدا يرى فيه الذكاء المصرى متجسدا ، والحذق بالصناعة والفنون مشخصا يكاد يلمس ، فهو خير تمثال لخير مثال[٥٠].

ويخلص من حديثه لنفسه بجوار هذا الهرم ساعة الغروب الى أن الدنيا معهد تمثيل ، وكان يحسبها كذلك « موضوعا » فاذا بها لا تختلف عن معاهد التمثيل في شيء » فهذه استار حمراء أسدلت على فصل مثل اليوم ، وستعقبه فترة الليل ثم تنكشف أستار الغسق عن فصل جديد ربما ملك فيه الخادم وخدم فيه المالك ، ولعل لبلادنا العزيزة فيه شأنا ارقى من شأنها في فصول الرواية السابقة»[٥١].

وأما المبادىء النقدية التي تبرز من مقالاته في صحيفة « الدستور » فمن أهمها أنه كان ينقد الشعر على أساس تصويره للمعاني وتشخيص أدواء الاجتماع ، والتعبير عن خطرات النفس والاماطة من مساوىء «العالم»[٥٢] ومن هنا نراه يعد أبا العلاء من الذين عرفوا للشعر مقامه ، فلم يستعمله في مدح أحد تطلعا لنواله مهما كان واسع السلطة عريض الجاه ، وذلك خلافا لما جرى عليه الشعراء في أشعارهم ، اذ أنهم كانوا يدورون في محور واحد هو الغزل والتشبيب بالنساء حتى أكسبهم ذلك طباع بعضهن فصاروا لا يمدحون الا ذانوال ولا ينأون الا عن فقير ضيق الحال ، وكانوا يأخذون على مدحهم الاموال وتخلع عليهم لأجله أنفس الحلل وأوطأ الفرش ، ثم يعيب العقاد على مكانة الشاعر والشعر في ذلك العصر ، اذ انه لم يكن من الوقعة ومنعة الجانب كما يتوهم بعض المعاصرين ، ولكنه كان يمنح ويدنى من مجالس الملوك والولاة اتقاء للسانه وشراء لمدحه ، ويستدل على ذلك بقول أبي سعيد المخزومي :

الكلب والشاعر في حالة ... ياليت أني لم اكن شاعرا
هل هو الا باسط كفه ... يستطعم الوارد والصادرا

---

(٥٠) نفس المرجع بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٩٠٨
(٥١) المرجع السابق ، نفس العدد
(٥٢) نفس المرجع بتاريخ ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٧

ثم يتحدث عن رسالة الشاعر في مطلع هذا القرن فيقول : « ان شاعر العصر معدود من القوى العاملة على ترقية الاحساس وتوثيق العواطف فهو في مقام سام » .

ويعلل ذلك بأنه لا يوجد في أشخاص الشعراء اليوم سر يجذب اليهم القلوب ولم يكن هذا السر في سابقيهم ، بل لأن الشعر نفسه قد مر من مناخل العصور فوصل الينا على فطرته الاولى أي تكييف عواطف النفس وتصوير الفضائل بهيئة تحبب اليها النفوس ، وتمثل الرذائل في صورة يشترك الحس والعقل في تقبيحها(٥٣) .

وتأسيسا على هذا الفهم عد أبا العلاء المعرى أقرب الى هذا الفهم للشعر ، لأنه كان أعجوبة في سمو نفسه وأخلاقه وأعماله ، فقد كانت نفسه لا تلين لمدح أحد ، ولا تولع بالتغزل في امرأة أو فتاة ، وظل جالسا في كسر دار يصدر أحكامه على الكون من أعلاه الى أسفله ، ومن عنصره الى ما بدا منه ، ويقبح أعمال الناس الذين يتكوفون على الدنيا تكوف الكلاب على الجيفة قانعا بالثلاثين دينار من ريع وقفه الى آ نفس من أنفاسه حتى أمكنه ان يودع العالم وهو يقول بحق:(٥٤) .

ولم يجني أحد نعمة ... ولكن مولى الموالي حبا

ثم يوازن بينه وبين « شكسبير » في انتقاد كل منهما على أوضار المجتمع وذلك اذ يقول أبو العلاء في الفقراء وشكواهم والاغنياء وتغاضيهم :

وأحسب الناس لو اعطوا زكاتهم ... لما رأيت بني الاعدام شاكينا

ويقول :

غلت الشرور ولو عقلنا صيرت ... دية القتيل كرامة للقاتل

وفي البيت الاخير تقع الموازنة بينه وبين قول « شكسبير » الشاعر الانجليزي بلسان يوليوس قيصر : « انك ان قتلت الجبان فقد ارحته من

(٥٣) راجع : صحيفة الدستور الصادرة في ١١ من ديسمبر ١٩٠٧
(٥٤) نفس المرجع بتاريخ ٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧

توقع الموت طول حياته فكأنك أمته مرة واحدة وهو لو عاش لمات في حياته اكثر من مرة »[٥٥].

وتأسيسا على هذه النظرة للشعر ، نظر الى ابن الرومي فذهب الى أنه كان سريع الخاطر حسن التصوير في المدح والثناء ، واستعاراته وتشبيهاته يستدني بها النفوس الى تصديق ما يقول ، والاشتراك معه في الثنـــاء وان لم تشترك في الجزاء ، واستدل على ذلك بقول ابن الرومي :[٥٦]

كم قد وردنا فلم نكدر موارده ... ولا بدا في لقاء منه تحميض
كأنه الحق يصفو كلما اعتلجت ... فيه من الفحص والبحث المخاويض

ونظرية اشتراكية القارىء أو السامع للشعر عند العقاد تتضح اكثر حينما يقول عن « صريع الغواني » انه كان ينظم تجربته في ســـــمط من المعنى رقيق يحول الفكر من اللفظ الى الجوهر فكأنما تتلقاه الروح من روح القائل بلا وساطة العين[٥٧] .

على أن عمق العقاد يتضح حينما يذهب الى أن للوسط الاجتماعـى الذى كان يعيش فيه الحطيئة أثرا في تشبيهاته ، ومن هنا يرى أن أحسن الشعراء استعارة وأرقهم تشبيها أكثرهم سياحة وأرقاهم وسطا والعكـس بالعكس[٥٨] .

وعلى هذا المستوى من الفهم يفهم الوصف على أنه أحسن ما ينتظم فيه الشعر لأنه يربى ملكة المقارنة بين جليل الاشياء وصغائرها ، ويمرن الفكر على القياس وقوة الدليل فضلا عما فيه من لذة وفكاهــة . كما أنـــه يعتمد على كثرة ما رأى الشاعر وعلى رقة ذوقه[٥٩] .

وفيما كتبه العقــاد عن « فارس شــعرها وشعراؤها » ــراه يفضل

---

(٥٥) صحيفة الدستور الصادرة في ٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧
(٥٦ ، ٥٧) نفس المرجع بتاريخ ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٧
(٥٨،٥٩) نفس المرجـع بتـــاريخ ٣١ من ديسمبر ١٩٠٧ ، ١٠ يناير ١٩٠٨

السعدي في وصف الشيطان على « ملتون» وأضرابه من الشعراء والمصورين ، لان وصف السعدي للشيطان يعد أحسن وصف له ، اذ ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأنه دميم الخلقة مشوه الطلعة ، بل أن ما ترويه الكتب المنزلة عن تكبره على آدم واغتراره بجماله الرائع يؤيد ما تنزل على قلب هذا الشاعر من وحي الخيال ، وكذلك يتبادر الى الذهن انه على غير ما يمثله المصورون والشعراء لانه لا يدفع الناس الى الشر مرغمين فيقال انه يخيفهم بمنظره الرهيب وانما يزين لهم الباطل ويقرب اليهم المحال حتى يأنسوا به ويطمئنوا اليه • ومعنى هذا ان الشيطان – في تصور العقاد – ليس من المعقول أن يكون هائل الجثة غائر العينين كما وصفه « ملتون » ، وهو الذي التبس أمره على حارس الجنان فظنه ملكا ومر « باريال » صاحب منطقة الشمس على ما يقول « ملتون » فسمح له بالعبور الى السماء ، ولا أن تكون مملكته هاوية سحيقة ذات لهب لا ينبعث منه الا ما يكشف طريق اليأس والآلام ، فان من يستدرج أبوينا في الجنة لا يرهب وانما يرغب ، ومن يذهل الغافل عن نعيم السماء لا يمنيه بمثل تلك الهوة السحيقة ، ولا يقابله بذلك الوجه الدميم(٦٠) •

ثم ينقد « الشاهنامة » على أساس أنها عمل فني متكامل كسلسلة متصلة الحلقات يعسر أن تنتزع منها جزءا دون أن تخل ببقية أجزائها ، ولا ينقدها على أساس وحدة البيت كما كان النقد سائدا في ذلك الحين(٦١) •

ومن ثم نراه يثور على الشعر العربي لخلوه من القصص كالشعر الفارسي أو الشعر الاوربي ، ذلك الشعر القصصي المترع في الاغلب الاعم بآيات البلاغة ، المفعم بالتعابير الحسنة •

ويرى العقاد في هذا الصدد أن هذا اللون من الشعر الروائي مزية اختصت به كل لغة غير اللغة العربية • ثم يعلل اقفار الشعر العربي منه

(٦٠،٦١) راجع : صحيفة الدستور الصادرة في ١٣ من ديسمبر ١٩٠٨

بوعورته لما يلتزمه الشاعر من مراعاة الوزن والقافيــة ، والاتيـان بالبيت منفردا في انسجام ، منسجما في انفراد حتى لايزيد المعنى عن البيت ولا يخل البيت بانسجام القصيدة ، وليس الغربيون كذلك فان الشعر القصصي لديهم لايمتاز عن النثر الا بالوزن فلا تراعي فيه القافية ولا الاتصال ، ومن هنا فهو مركب ذلول وسبيل سهل الطروق ، ولو شاء العرب لرجزوا على كون الرجز أوعر من شعر الافرنج ، ولكنهم آثروا استخدام الرجز فيما يضيق عنه الشعر كالعلميات وما شاكلها(٦٢) •

ويخلص من هذا كله الى أنه من الخطأ قول بعضهم : « ان خلـو الشعر العربي من هذا الاسلوب يعد نقصا في اللغة العربية ، لان النقص انما ينسب الى اللغة اذا لم يكن في مفرداتها ما يعبر به عن معانيها وليست العربية من هذا القبيل »(٦٣) •

وفي اعتقادنا أنه من العسير على الدارس لمقالات العقاد في «الدستور» واستخلاص المبادىء النقدية التي كان ينقد على مقتضاها قبل العشرين من عمره ، ومن ثم فاننا نرى أن فيما أوردناه منها يكفي للتدليل على مـــدى استفادته من الابحاث النقدية الاوربية ، وعلى أنه أجاد تطبيقها في الكتابة عن الشعراء والقضايا النقدية في يومياته في صحيفــة الدستور ، اذ كتب عن عدد غير قليل من شعراء العربية ، كما كتب ست مقالات عن شعراء ايران تحت عنوان « فارس ـ شعرها وشعراؤها » •

ونود أن يتقرر في ذهن القارىء أننا حينما ننظر الى أن العقاد لم يحاول التجديد في المقالــة الادبية ، فانمــا نعني بذلــك قالبها Form وذلك لانه قد نقل قالبها محمـــد الســباعي وأضرابــه من الكتاب ، ولا يستطيع العقاد التجديد فيه لضلاعة المتقدمين عليه فيه ، اذ أنهم أوصدوا أبوابه أمامه •

ومن ثم لجأ العقاد الى باب واحد لم تشتمل عليه الصحافة المصرية ، وهو باب الاحاديث الصحفية مع الوزراء والساسة ، وباقتحامه لهذا الباب

(٦٢،٦٣) راجع صحيفة الدستور الصادرة في ١٤من ديسمبر١٩٠٨

استطاع ان يفتح صفحة جديدة في تاريخ الصحافة المصرية ، لانه كان أول السابقين اليه[٦٤] وأجرى الحديث الاول مع سعد زغلول في وزارة المعارف[٦٥] ، وأجرى غيره من الاحاديث مع المغازي أحمد مختار « قومسيير » الدولة العثمانية ، كما كانوا يسمونه في زمانه ، وغيره من الشخصيات المصريه والاجنبية على سواء[٦٦] ، وتعتبر هذه الاحاديث التي أجراها العقاد غير مسبوق بها هي أوليته التي خرج بها من أول عمل في صحيفة يومية .

وقد كان العقاد يوقع مقالاته في صحيفة « الدستور » على الطريقة التي كان يوقع بها كتاب المجلات الاجنبية ، وكان توقيعه باللقب وبالحرفين الاولين من الاسمين « ع.م. العقاد » . ومثل هذا التوقيع كان مثارا لبعض الظرفاء الى ان يسلقوا العقاد بألسنة حداد حيث يتندرون وينفكهون بتوقيعه حين راحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد » ، وماذا قال عمك؟ وماذا تقول يا عم؟ واكتب لنا يا عمنا بما تراه[٦٧] .

أما من حيث المضمون الذي كانت تحتويه مقالات العقاد فكان كله جديدا بالنسبة للفكر والنقد العربيين ، وحسبنا ما عرضناه من المبادىء الفكرية الطليعية والنقدية فيما سبق لنعرف كيف كان هذا الشاب يقرأ ويفتح قلبه وحواسه للتيارات الادبية والانسانية في العالم بأسره ، وكيف كانت هذه المبادىء لا زالت غريبة على معاصريه من الكتاب والشعراء بله المفكرين .

□

وعلى الرغم من أن العقاد كان موضع تقدير فريد وجدي

---

(٦٤) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٩٤،٩٥

(٦٥) أجرى العقاد حديثه مع سعد زغلول في صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من مايو سنة ١٩٠٨

(٦٦) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٦٠٠ ، وراجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٥٧

(٦٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧

واحترامه ، فانه قد تخلى عن التحرير في « الدستور نظرا لان العقاد أراد أن يرثي مصطفى كامل بعد وفاته رثاء لا يخلو من النقدالموضوعي لمنهجه في السياسة تجاه الاستانة وتجاه الخديو ، وتجاه السيادة العثمانية ، ولكن فريد وجدي - وان لم يكن يسمح لنفسه أن يتدخل في مقالات العقاد - فانه أبى على العقاد أن يرثي كاملا هذا الرثاء ، لان صحيفة « الدستور » من صحف الحزب الوطني ، وهو لا يريد الا الرثاء المتعارف عليه الذي ينأى بالفقيد عن المساوىء ويهيل عليه المحامد من كل اتجاه ، ومن هنا حدثت القطيعة الموقوتة بين العقاد وصحيفةالدستور(٦٨).

ولم تدم تلك القطيعة طويلا لانه عاد الى «الدستور» بعد ذلك للعمل فيه ، وظل يعمل فيه حتى صدر آخر عدد منه ، ولكنه في هذه المدة الثانية كانت مخالفته للاستاذ وجدي أكثر من موافقته له في القضايا الفكرية والسياسية ، ومع ذلك فان الاستاذ فريد وجدي لم يكن يغير للعقاد كلمة واحدة تختلف مع رأي الاستاذ وجدي ، ولو كان الخلاف على مسألة من مسائل الاصول(٦٩) .

وعلى الرغم من تطلع العقاد الى العمل الصحفي وتجويده فيه وتحمله للمشقات التي كان يلاقيها في سبيله ، اذ كان يذهب كل يوم من حدائق القبة الى « درب الجماميز » حيث مقر الصحيفة ، وحدائق القبة أو الدمرداش حيث مدرسة التلغراف التي كان يدرس بها ، بالرغم من ذلك كله فان الذين كانوا يعملون بالصحافة وقتذاك كانوا يرون انه ليس من اهلها متطفل على العمل بها ، ولا يتورع بعضهم عن سبه وشتمه على مقربة منه بحيث يسمع العقاد سبه وشتمه ، فيمضي في سبيله لايلوي على شيء(٧٠) متمثلا بقول الشاعر :

---

(٦٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر ١٩٦٧

(٦٩) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ سبتمبر ١٩٥٧

(٧٠) المرجع السابق نفس العدد ، وراجع كذلك : رجال عرفتهم للعقاد ص ١٥٧ وما بعدها

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت قلت ثمت لا يعنيني

والدارس لحياة العقاد يرى أنه قد صادفته ابان اشتغاله بجريدة الدستور صعوبات مادية نتجت عن نهمه في شراء الكتب العربية والافرنجية، اذ كان لا يبالي بعد شراء الكتب أن يحل أي مشكلة تعترضه بأهون الاسباب وأقلها ملائمة له بوصفه محررا صحفيا بالمفهوم الحديث للمحرر الصحفي الذي يرى أن نجاحه رهن بملابسه فيتزيى زيا يلحقه«بالمانيكان» لا بأصحاب الاعمال الذهنية ان صح أن الصحافة في الاغلب الاعم من الاعمال الذهنية •

ومن ثم فقد حل العقاد مشكلة الكساء بشراء بذلتين قديمتين ليرتديهما • ثم حلها في مرحلة تالية على وجه آخر أهداه اليه جاره ، ويتمثل في اعطاء دروس خاصة لتاجر أقمشة ، يتولى تفصيل القماش وتسليمه للعقاد كسوة كاملة ، ويوفيه أجر الدروس كسوة كل ثلاثة أشهر ، وان كانت مدة التعليم لم تزد على كسوتين كما يقول العقاد ،نظرا لنشاط التلميذ وذكائه ، أو لبراعة الاستاذ ، أو لرغبة كل منهما في فسخ العقد بسلام [71] • وعاد العقاد الى سيرته الاولى في مواجهة مشكلاته المادية التي تضخمت نظرا لاحتجاب صحيفة الدستور في نهاية سنة١٩٠٩• ونزل العقاد مرة ثانية الى الطريق العام يبحث عن عمل ولا عمل •

وقد أصيب العقاد عقب احتجابها بمحنة البطالة التي ألجأته الى التفكير في بيع الكتب التي اشتراها طيلة بقائه في القاهرة •• وحتى هذه الحيلة على الرغم من عنفها وقسوتها على نفس العقاد ، فانه قد حيل بينه وبين بيعها ، لاحتجاز أصحاب الحجرة التي كان يقطنها في ضاحيةحدائق القبة لهذه الكتب استيفاء بما عليه من ايجار متأخر ، وكادت أن تحدث معه مشاجرة بالعصى عند الكمين الذي أعدوه له ، لولا أن فطن العقاد الى أن يسلمهم ما يحمله من الكتب ، وفي الوقت نفسه كره أن يلجأ الى أحد أقاربه الميسورين ، لانه قد خرج على ارادتهم ، وخيب رجاءهم بالخروج

(٧١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧

من الخدمة الاميرية ، بعد أن وصل اليهـــا بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليهـــا [٧٢] •

ومن ثم اضطر العقاد الى السفر الى أسوان للبقاء بها فترة من الزمن ريثما يعثر على عمل ملائم في الصحافة • ولكن هذه الرحلة كـانت بدء مرحلة جديدة في حياته وفكره • لانه وصل الى اسوان كالساهر الذي طوى الليالي بغير راحة، ثم ركن بجنبه لحظة واحدة الى طرف الفراش[٧٣] •

لقد كان العقاد في سهرته هذه يواصل الحركة ، ولا يبـــالي متى يرقد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة ، فلا يدري متى هو قادر على النهوض ، وذلك من جراء التعب الذي ترسب في نفسه طوال الفترة التي قضاها في العمل ، فقـد كان يجور على جسده ، ولا يعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لان تلك الحـــدود لم تصدمـــه قط بصخرة من صخورها ، ولا بحاجز من حواجزها [٧٤] •

ولا أدل على ذلك من أنه كان يحضر ندوة الزملاء ـ ابان اشتغاله بمدينة الزقازيق ـ في ميدان المديرية ، ثم يعبر المدينة في ليالي الشتاء الى مسكنه على حافة كفر الصيادين، ولا يكترث للمطر ولا للبرد ، بل ولا يلبس المعطف ولا يحمله تخففا من مؤنة حملة على الـــذراع ، وهو معلق في حجرة الدار يعلوه الغبار •

وبالاضافة الى ذلك فانه كان يقضي اليوم في حدائق القبة على وجبة واحـــدة من الخبز والجبن او من الخبز والفول ، ولا يخطـــر له ان اهمال الغذاء ضرر يذكره لحظة بعد ذهاب الجوع [٧٥] •

ومن هذا الضرب أيضا أنه كان يفتح الكتاب الجديد فيروقه ما قرأه فلا يلقيه من يده حتى يفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء في البيت غير شمعة أو مصباح ذي فتيل [٧٦] •

(٧٢،٧٣،٧٤) المرجع السابق بتاريخ ٢ من اكتوبر سنة ١٩٥٧

(٧٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر ١٩٥٧

(٧٦) نفس المرجع ونفس العدد

وكل هذه الاشياء وغيرهـــا أسفرت عن شعور ترسب في نفسه في هذه المرحلة بأنه مريض بكافة الامراض ، وأخذ يتردد على الاطباء الذين أثبتوا له أنه غير مريض ، ولا يوجد به سوى الركود والاعياء ، ولكنه مع ذلك كله قد استولت عليه فكرة الموت العاجل ، وان لم يفزع وجدانه منها ، لانه كان يطلبها ولا ينفر منها ، وكانت صدمـــة اليأس أشد على عزيمته من صدمة الاعياء ، ولم يكن يأسه من أمل واحد حتى يستطيع التغلب عليه ، بل كان يأسا من جميع الآمال ، وفي ذلك يقول :

« كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية في الحياة ، لانني قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة في كتب « الفلسفة المادية » وأكثرت من النظر في مذهب النشوء والارتقاء ، فـلاح لـي أن اصدقه من أقـــوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليـه بين الاوربيين باسم الدين ، ولاح لي من النظرة الاولى ، على غير روية أنه يهبط بالانسان الى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراج واحد يرتفع عليه ، كذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليومية » ان الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » (٧٧) .

والدارس لحياة العقاد يرى أن قراءاته للفلسفة الحديثة ولمذهب دارون قد أصابته بصدمة أورثته شكا في كل القيم والمعايير (٧٨) ،ويتضح هذا في قوله شعرا (٧٩) :

أين الحقيقـــة ؟؟ لا حقيقـــ.....ـــة كل ما زعمـوا كـــلام
النـــاس غرقى في الهـــــوى لـــم ينج غر أو أمـــــام
ان الحقيقـــــــة غـــــادة كالغيـــد يضمرهـا اللثـام

(٧٧) راجع آخر ساعة الصادرة في ٩ من اكتوبر ١٩٥٧
(٧٨) من حديث خاص مع العقاد في الاسكندريـــة في يوم ١٢ من يولية ١٩٦٠
(٧٩) عباس العقاد : خلاصة اليوميـة ص ٧٩ ، والجزء الاول من ديوان العقاد ص ١٢٩ ، ١٣٠

كــــل يهيم بهـــا فـــان لاحت لهم صـــدوا وهاموا
كــــم أشـــرق الحق الصرا ح فأعرضـــت عنه الانـــام
والنـــاس لو تــدري خفـا فيش يطيب لهـــا الظـــلام
لا حـــق الا أنـــــــه لا حـــق في الدنيـــا يرام

وكان مؤثرا للعزلة في تلك الآونة ، اذ كان يتسلل الى مكان عزلته في البيت في أسوان لواذا ، لان عيون أهله كـــانت ترشقه بسهامهـــا ، ويجتنبونه ، لانه وقر في نفوسهم أنه متمرد على العقيدة ، وهذا بطبيعة الحال يخالف نشأتهم الدينية التي نشأوا عليها •

خلاصة اليومية :

وخلاصة اليومية التي ذهب في مقـــدمتها الى أن الانسان حيوان ، ولكنه حيوان راق ، خلاصة الخلاصات في هـــذا الكتاب أنه قصة الامل الذي بقى عنده يومئذ في شهرة الادب ، وفي عدد الايام التي يقضيها قبل ظهور هـــذا الكتاب • وكان يخال نفسه مبالغـــا اذا حسبها بأكثر من الايـــام (٨٠) •

وفي هذه الاثناء وقر في نفس العقاد أنه ميت لا محـــالة ، ولكن بلا أثر ولا خبر ، وأنه يمضى الى الموت صفر اليدين من مجد الادب ، ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ، وأن هذا لا يليق به ، وانها لضيعة لرجاء المجد الذي يتطلع اليه ويعشقه ويعبده ، ومن ثم فانه لا أقل من هدية في اليد ، تجبر خاطر العرف على أبواب الابدية ، لانه لا يجوز أن يجلس على الابواب في انتظار زيارة فارغة اليدين (٨١) •

وهنا نتساءل عن الطريقة التي يوفي بها العقاد القربان المطلوب ؟•• هل يوفيها بتصنيف كتاب مثلا ؟•

وللاجابة على ذلك نرى أن العقاد كان لا يطيق في تلك الغاشية التي

(٨٠) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧
(٨١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

اعترته أن يوفي القربان المطلوب منـه بتصنيف كتـاب من وحي الساعة والمناسبة لضيق الوقت والشك في اتساع الاجل ، ومن ثم وجد العقاد أن خير جود يقدمه قربانا هو الموجود لديه ، وهو « خلاصة اليومية » الذي يحوي الخواطر والتعليقات التي قيدها العقاد فيه ، كما يحوي رؤوس الموضوعات التي نظر فيها ولما يفرغ من دراستها بعد ، وأبيات الشعر التي نظمها ولم يتممها فبادر بتقييدها في هذه الدفاتر الثلاثة (٨٢) .

وحينما وقع في وهمه انـه ذاهب بغير اثر ولاخبر ، تصفح هـذه الدفاتر ، ونقل منها صفحات متفرقة تشمل على جميع نماذجهـا ، وبعث بها الى صديق له في القـاهرة يقول له : « ان هذه الصفحات هي كل ما أتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدتني أهلا للذكر ، ووجدتها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج عليك أن تهمل نشرهـا ، وتسلمها للنسيان ، يطويها حيث طواهـا في زاوية من زواياه » (٨٣) .

ومن هنا استخدم أصدقاء العقاد هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا من أسلحة الفكاهة والنكاية ولم يتورعوا عن استغلال هذه القصة في كل مناسبة ، فمنهم من يقول للعقاد مستمهلا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟لقد طال الامد على انتظارها ، ومنهم من يقول متمهلا كلمـا شكا أو التمس العلاج : على رسلك بالله ان المطابع مشغولة في هذه الايام ، فاصبر هنيهة حتى تفرغ المطابع لطبع خلاصتك وأمثالها . ومـا فتىء أصدقاء العقاد وزملاؤه يستعجلونه ويستمهلونـه حتى أراحهم وأراح نفسه بطبعها بعد اضافة اليها وحذف منها (٨٤) .

وعلى أية حال فان وهم الموت ظل يطارده طيلة المدة التي قضاها في أسوان ، والمدة التي قضاها في القاهرة بعـد أن رجع من أسوان اليها في

---

(٨٢) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧
(٨٣) المرجع السابق ونفس العدد
(٨٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

وقت الصيف ، ولكن هذا الوهم قد زايله في شاطيء الاسكندرية يوم ذهب اليها لاول مرة ، ووجد نفسه مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة من لجج الامل والمغامرة [٨٥] .

ويرجع العقاد بعد شهرين من الاسكندرية، وهو مزود بطاقة ضخمة من الامل في العمل، ومن ثم كان لابد ان يتعرض لمشكلته الخالدة .. تلك المشكلة التي تتمثل في البحث عن عمل في القاهرة .. ولكنه لا يستطيع أن يعمل في الصحافة نظرا لانها كانت تعاني محنة سببها لها غضب ولاة الامور آنذاك على الصحافة والصحفيين ، ولا سيما الثوريون منهم من أمثال العقاد ، ولهذا لم يحاول البحث فيها عن عمل هذه المرة [٨٦] .

وأين يعمل أذن ؟

لقد ظل مدة يوالي الكتابة في مجلة « البيان » التي كان يصدرها المرحوم الشيخ عبدالرحمن البرقوقي ، ومن هنا جاءه العمل في وظيفة حكومية عن طريق المصادفة لا عن طريق البحث والتنقيب والتدبير ..

ذلك أن محمد المويلحي مدير قسم الادارة بديوان الاوقاف سأل الشيخ عبد الرحمن البرقوقي عن العقاد الذي يكتب في مجلة « البيان » هل هو قريب للسيد حسن موسى العقاد المشهور ، فأجابه البرقوقي بأنه لا توجد قرابة بينهما ، وهنا سأله المويلحي عن عمله ، فكانت اجابة البرقوقي على هذا السؤال بأنه لا عمل له . ومن هنا تأثر المويلحي من أجل هذا النابغة ـ على حد تعبيره ـ الذي يعاني ما يعاني من ويلات البطالة ، وأردف قائلا للبرقوقي : « انه اولى بالعمل في الديوان من أكثر (التنابلة) الذين عندنا » [٨٧] .

ويمكث العقاد في هذه الوظيفة عامين من سنة ١٩١٢ الى ١٩١٤ وكان عمله فيها مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية .

ولقد صادف عمل العقاد في هذا الديوان ابان الازمات ومراحل

---

(٨٥) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٨٦) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٢٦ وما بعدها

(٨٧) عباس العقاد : حياة قلم ص١٢٦ وما بعدها

الاضطرابات اذ كان هذا الديوان ميدانا للمعركـة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح [٨٨] •

والدارس لحياة العقاد يرى ان عمله في الديوان في تلك الآونة كان أنفع لتربيته النفسية ، لانه كان يجهل الكثير من حقـائق الوطن ومن أسرار شؤونه العامة لو لم يقض تينك السنتين في ذلك الديوان [٨٩] •

ذلك أن يد الخديوي كانت مطلقة في وظائفـه وأمواله ، وكان يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأبى أن يسف الى درجة أن يختلس مـن أموال الصدقـات وأن يستبيح السمسرة على صفقات الاستبدال [٩٠] •

ولا أدل على ذلك من أنه قـد شاعت في تلك الايام قصة أرض «المطاعنة» التي أخذ الخديوي لنفسه ستين الف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين النزهاء • فعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال [٩١] •

ووسط هـذا المضطرب المتشح بالسواد المتزر بالفضائح والفساد الخلقي لدى ولاة الامور عمل العقاد •• وعمل في قلم هو حومة المعركة في ميدانها ، عمل في قلم السكرتارية ، اذ كانت تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى • ومن خلال هذه المذكرات كان العقاد يقف على فضائح الاوقاف ، وكان يتكلم فيهذه الفضـائح ولا يتحفـظ في كلامه • بل كان يصنع أكثر من هـذا ، بأن يكتب في الصحف بعض مقترحاته لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وقد يتحدث بهـذه المقترحات في المجالس والمنتديات الادبية التي كان يرتادها ، وربما نقل أحد الادباء أو غيرهم ممن يجلسون مع العقـاد الى ولاة الامور حـديث العقاد في هـذا الصدد [٩٢] •

وآية ذلك أن الاستاذ حسين روحي الايراني كان صاحب مدرسة

(٨٨،٨٩،٩٠،٩١) المرجع السابق ص ١٢٨،١٢٩

(٩٢) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٣٠ ، ١٣١

كبيرة في العباسية البحرية ، وكان مع ذلك يقوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية بعض الوقت ، وكانت مهمته ان يترجم بعض محتويات الصحف المصرية . وحينما وصل الى مقترحات العقاد سألوه عن صاحبها ، فقال لهم في الوكالة انه يعرف كاتبها ويلقاه كل يوم ، ومن هنا حينما وصل الى العباسية سارع الى لقاء العقاد ليعتذر له عما بدر منه (٩٣) .

★ ★

على أنه قد جرت محاولة لاختيار العقاد رئيسا لتحرير صحيفة « المؤيد » ابان عمله بديوان الاوقاف من قبل « اللورد كتشنر » عن طريق السكرتير الشرقي لدار الوكالة البريطانية « مستر ستورز » ، وذلك بوساطة الاستاذ حسين روحي الايراني الذي أخبر العقاد بأن « مستر ستورز » يريد مقابلته في أمر يهم العقاد . غير أن مقابلة العقاد للسكرتير الشرقي « ستورز » لم تشجعه على أن يسند اليه هذا العمل ، نظرا لجوابه الصارم حينما قال له « مستر ستورز » ألا ترى أن حرمان الاوقاف من الرقابة الاجنبية هو علة هذه المفاسد التي شاعت فيه . فلم يلبث العقاد الا أن أجابه بقوله : « ان المجلس البلدي الاسكندري يتمتع برقابة أجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونه مثلا من أمثلة النزاهة والنظام» . وحينئذ تنبه « ستورز » وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بقوله : ان اللورد « كتشنر » كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد سريع ، ثم نهض العقاد وودع « مستر ستورز » وهنا صافحه « اللورد كتشنر » على باب المكتب ، فأومأ له العقاد بالتحية ومضى في طريقه لا يلوى على شيء (٩٤) .

وحينما فشلت هذه المحاولة لاجتذاب العقاد للعمل في صحيفة

---

(٩٣) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٣٠ ، ١٣١

(٩٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ أكتوبر ١٩٥٧ ، وراجع كذلك : حياة قلم للعقاد ص ١٣١ وما بعدها ، وكذلك : رجال عرفتهم للعقاد أيضا ص ٧٩ وما بعدها

« المؤيد » وتركه ديوان الاوقــاف ، قام أحمــد حافظ عوض بمحاولة اخرى للسبب نفسه عن طريق ناظر الاوقاف أحمد حشمت باشا ، وذلك بعد ان تحول ديوان الاوقاف الى نظارة ، اذ ذهب أحمد حافظ عوض الى مكتب ناظر الاوقاف وطلب العقاد ، وحينما جاء العقاد الى مكتب الوزير زعم احمد حافظ عوض ان صفحة الادب بالمؤيد تحتاج الى أديب يتفرغ لها ولا ينظر في عمل من أعمال الصحيفة غير كتابتها ، أو الاشراف على ما يكتب فيها . ثم أبدى أسفه من عدم اتساع وقته للتفرغ لهذه الصحيفة، لانه لو اتسع لهذا لما استغفله عبد الحليم المصري ودس عليه تلك القصيدة المسمومة التي جعلته سخرية المجالس الادبية — على حد تعبيره — والتي يقول في مطلعها : [٩٥]

وشاعر النيل دون الخلق يشربه   بينا يشق الصدى منا الحشاشات

ويعني بذلك الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي ، ولم يكن القاريء في ذلك الوقت في حاجة الى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة[٩٦] .

وبطبيعة الحال لم يتردد العقاد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية في « شيخ الصحافة العربية » . لانه لم يكن يطمع وهو في الرابعة والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة [٩٧] .

وبالاضافــة الى ذلك فان عمله في الـديوان لم يكن مرضيا لنفسه الوثابة وطموحه الشرود المتمرد على كل التقاليد المتعارف عليها ، والتي هي موضع تقديس وعبادة لــدى الاكثرين . لم يكن عملـه في ديوان الاوقاف مرضيا له اذن في حياته الادبية ، بل وفي حياته المعيشية ، ولهذا وذاك لم يكن مجال لان يتردد العقاد في قبول دعوة أحمد حافظ عوض رئيس تحرير المؤيد آنذاك [٩٨] .

ويرى الدارس أن محاولات أخذ العقاد من ديوان الاوقاف مرتبطة

(٩٥،٩٦) راجع : حياة قلم للعقاد ص ١٤٠ وما بعدها
(٩٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧
(٩٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

بكتاباته في الصحف عن هذا الديوان والاخطاء والجرائم التي يقترفها و الامور فيه ..

وليس أدل على ذلك من أن السبب في أخذه في المحاولة الثانية هو أحمد حافظ عوض ، وهو نفسه السبب في استقالة العقاد من «المؤيد» . وذلك حين تواطأ مع من استغل اسم العقاد من المحررين في قبول الهدايا والرشوة من المشتركين في المؤيد والكتاب الذهبي الذي كان المؤيد يزمع اصداره ليسجل فيه الرحلة التي قام بها الخديو الى الوجه البحري ،والتي تعمد فيها زيارة الاعيان في قصورهم ، وزيارة الفلاحين بين اكواخهم ، واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، ولج به الحرص على ابراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية فجعل اسماءهم في الصف الاول بين اسماء الاعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، واولهم سعد زغلول .

وقد قام الخديو بهذه الرحلة الشعبية ليقوى الرأى العام في مصر لمصلحته ضد «اللورد كتشنر » الذي كان يصر على خلع الخديو وترشيح أمير من امراء بيت حليم للخديوية(٩٩) .

وكان من المقرر ان يرافق الخديو في هذه الرحلة رئيس تحرير « المؤيد » احمد حافظ عوض ، ومن هنا رأى رئيس التحرير ان يعهدالى العقاد بمهمة تتمثل في تنقيح اخبار المراسلين بالصبغة الادبية ، وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الاخيرة ، وهي الصيغة التى ستظهر بها في الكتاب الذهبى ، وفي الوقت نفسه لفت نظر العقاد الى ان هذا العمل عمل ادبى خالد على أية حال ، وانه يستحق ان يؤجل من اجله صفحة الادب الى حين(١٠٠) .

وبينما كان العقاد منهمكا في العمل في هذ الكتاب « الذهبي » اذا بمشترك في الكتاب يضل طريقه ويدخل حجرة العقاد بدلا من ان يدخل

---

(٩٩) عباس العقاد : حياة قلم ص١٤١ وما بعدها

(١٠٠) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٤١ وما بعدها

حجرة المحرر الذي كان منوطا بتسليم الرسائل وتسليمها الى العقاد بقائمة مكتوبة لايداعها في ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها .

وقد استشف العقاد من خلال حديث المشترك انه اعطى المحرر عشرة جنيهات باسم العقاد ، وانه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية ، وهذا الشيء الزهيد يتمثل في ساعة ذهبية بسلسلتها ؛ ثم طمأن المشترك العقاد بأن له هدية أخرى بعد ظهور الكتاب[١٠٢].

وحينذاك توقف العقاد عن العمل في الكتاب الذهبي الى ان يحضر رئيس التحرير . وحينما رجع احمد حافظ عوض أطلعه العقاد على ماحدث من المحرر ، فتجهم رئيس التحرير وتوعد ذلك المحرر المسؤول بالويل والثبور ، ووعد العقاد ان يكتب كلمة في « المؤيد » في الغد لتزيل اللبس وتبعد الشبهة عن العقاد في امر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجا الاستاذ العقاد ان يغض النظر عن المسألة ولا ينقطع عن العمل في الكتاب ، وقبل العقاد هذا التصحيح ، ولكن قبوله كان متعلقا بتنفيذ التصحيح ، فهل نفذ رئيس التحرير ماوعد به حتى يستطيع العقاد مباشرة العمل باقبال وبواعث سامية .. أم ان رئيس التحرير ترك للمحرر المسؤول الحبل على الغارب ولم يصحح الوضع بالكلمة التى سينشرها في المؤيد ، والتى وعد بها العقاد[١٠٣] ؟

يقول لعقاد في هذا الصدد : في مساء حديثه مع رئيس التحرير زاره بعض اصدقائه ، ونزلوا الى باب الدار ينتظرون مركبة خالية تمر بهم ليستقلوها الى دوتهم المعهودة عند دار القضاء « في الوقت الحاضر » ؛ ولم يكد العقاد ينادى المركبة العابرة حتى مر بهم الاستاذ حافظ عوض يحييهم بيمناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صدر « المؤيد » في اليوم التالى وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون[١٠٤] .

(١٠١،١٠٢) المرجع السابق ص ١٤٣،١٤٤

(١٠٣،١٠٤) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٤٤،١٤٥

ومن هنا استقال العقاد ، وكان عمله بالمؤيد اخر عهده بالصحافة قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهاية الصيف •

ومن هنا كذلك نستطيع ان نرجح ان خروج العقاد من نظارة الاوقاف ثم من صحيفة « المؤيد » لم يكن قضاء وقدرا ، بل كان عملا مرتبا ومحسوبا له حسابه في أذهان المسؤولين •

واذا ادخلنا في حسابنا ان خطة القصر انذاك فصل كل موظف بالاوقاف يعارض في نظام الديوان •

وتأسيسا على هذه الخطة أحيل عبدالرحمن فهمى « بك » وكيل النظارة الى المعاش ، لانه من اكبر المعارضين لنزوات الخديو في الاوقاف وفي مقدمتها صفقات السمسرة والاستبدال بالذات(١٠٥)

لكن العقاد صغير واحالته الى المعاش تكون مكشوفة ، ففضح خطة القصر ازاء الاحرار ، وليس في المصلحة بالنسبة للقصر ، ان يعرف عنه ذلك • فلابد له من وسيلة اخرى لابعاده من نظارة الاوقاف ، ومن هنا كانت الوسيلة بالشيء المحبب للعقاد الذى يملك كل شغاف قلبه ، الا وهو الصحافة (١٠٦)

وقد مكث العقاد اياما في القاهرة بعد استقلته من « المؤيد » وهو على نية الرحيل الى اسوان ، اذ كان يأمل ان يستقبل موسما كاملا من المواسم الجميلة في ذلك المشتى العالمى البديع • ومن هنا رسم برنامجا لذلك الموسم يشتمل على المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعى ، ومضامين الاثار في اسوان ، وهى غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة من أيام الفراعنة الى أيام العرب الى المماليك الى أيام الدولة العثمانية(١٠٧) •

واثناء اقامته بأسوان انتهى من تأليف كتابه «ساعات بين الكتب » الذى سطر فيه خلاصة قراءاته وتعليقاته التى وقعت في خاطره ، واطلع عليها اثناء القراءة ، وكان هدف العقاد من تأليف هذا الكتاب ، ان يصل

(١٠٥،١٠٦) المصدر السابق ص ١٤٥،١٤٦

(١٠٧) راجع آخر ساعة الصادرة في ١٦ من اكتوبر سنة ١٩٥٧

بين عالم الكتب وعالم الحياة ، وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما بدت له من النظر والمراجعة والاحاديث ، وكان الكتاب يشتمل على خمسمائة صفحة اودعها ثمرة اطلاعه وتأمله في مذاهب الفكر الحديث ، واولها مذهب « داروين» ومذهب « نيتشة » في السوبرمان • غير انه بعد اعداده للطبع فقد منه مرتين ، ولم يبق من « ساعات بين الكتب » في صورته الاولى سوى خمسين صفحة ، ومن هنا فان كتاب العقاد « ساعات بين الكتب » الماثل في ايدى القراء الذى ظهر بعد ذلك بنفس الاسم واعيد طبعه مرات هو غير الكتاب الذى فقد من العقاد مرتين(١٠٨)

وقد انتهى العقاد كذلك من كتابه « الانسان الثانى » ولم يبق منه كذلك غير صفحات وقد وقف العقاد فيه على آراء الفيلسوف الالمانى «آرثر شوبنهور » في المرأة فأعجب بحذق الرجل وجرأته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها في اوربا خلوا من التهذيب وسلامة الذوق(١٠٩)

وبعد انتهائه من هذا الكتاب في هذا الموسم ، أتم رسالته «مجمع الاحياء» التى تعتبر تلخيصها للاراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة ، وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية •

والدارس لهذا الكتاب يرى أن العقاد قد استهدف فيه ان يبين النضال بين الاهواء والمبادىء ، وان الحق الذى نعرفه ونغار عليه ، غير الحق الذى تتوخاه حركات الكون المتجلية في تاريخ البشر ، فليس مانعتقده حقا الا اداة موصلة الى الحق العميق المكون عنا ، والذي يرتسم طرق منه في عقائد الطبائع القوية السليمة ، اذ ان القانون الذى يوضع لبقاء فرد واحد غير القانون الذى يوضع لبقاء جميع الامم في جميع العصور ، لان غاية الكون اكبر من غاية هذا الفرد او ذاك الشعب ومتى تعارضت الغايتان ـ ولابد ان تتعارضا في حادثة من الحوادث ـ فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لاجل الكبرى ، بل الظلم ان يدرك بمجهود أحد الشعوب

(١٠٨) المرجع السابق ونفس العدد
(١٠٩) الانسان الثاني ص ١٤،٣ ط أولى سنة ١٩١٢ بالقاهرة

مالا يجوز ان يدرك بمجهود كافة الشعوب ماضيها وحاضرها ومستقبلها(١١٠) .

على ان العقاد يذهب الى ان الغيرة على الحق هى روح الانسانية ،او هى مظهر اثرتها وحب البقاء فيها ، فاذا هى رضيت لامة ان تستنزف موارد الامم بغير الحق ، ثم اطمأنت الى هذه الحالة ، فقد آذن ذلك بانحلالها ، وكان منها بمثابة ضعف الوطنية في الامة وضعف الحيوية في الفرد ، وكلاهما الفناء (١١١)

ويرى الدارس ان هذا الكتاب بالرغم من قدم العهد على تأليفه ، وبالرغم من انه نتاج شباب العقاد الفكرى ، فانه ليدلنا دلالة واضحة على وعي العقاد الكونى ، وشمول نظرته الكلية للعالم والوجود .

وقد عبر عن وعيه هذا شعرا في قوله : (١١٢)

كم آيـة في الكـون أخفى من خفيات الضمير
من لا يرى الا العيـا ن فلا يرى الا اليسير

كما عبر عنه في ختام مقدمة الطبعة الثانية من رسالته تلك بقوله : « اسمعوا صوت الطبيعة : اسمعوه همسا قبل ان تضطركم الى سماعه زمجرة ووعيدا وليسمعه كل حي على شاكلته ، يسمعه الشرير فيتمادى في شره ، وتسمعه الأمة فتقضي على ذلك الشرير ، وتسمعه الانسانية فتنحى على الامة التى تفرط في حقوق الحياة ، أو التي تمسخ عناصرها الباقية في الامم ايثارا لمنافعها المحدودة . وما دام هذا الصوت مسموع النداء ، فالعالم الانسانى ممدود البناء(١١٣) .

* * *

وقد نظم أكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان في هذا

---

(١١٠) عباس العقاد : مجمع الاحياء ص ١ ط ثانية سنة ١٩٢٠ القاهرة .

(١١١) مجمع الاحياء ص١ وما بعدها

(١١٢) ديوان العقاد الجزء الاول ص ٦٩

(١١٣) عباس العقاد : مجمع الاحياء ص١٥، ١٦

الموسم ايضا ، وهو الجزء الذى طبع في عام ١٩١٦ ، وأعيد طبعه في عام ١٩٢٨ مع ثلاثة اجزاء أخر تحت عنوان « ديوان العقاد » .

وقد استبعد العقاد من الجزء الاول في طبعته الثانية قصيدتين : احداهما دالية نبذها لأنها ـ كما يقول ـ كانت تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسه سند سليم ، ولا مسوغ مقبول ، لأنها كانت تمثل نوبة فلسفية الحادية ، من جراء قراءته للفلسفة المادية الحديثة . كما أنه استبعد من شعره كل ما يدل على رأى سلبى أو انكار أو تشاؤم ، حتى هم أن يحذف من الجزء الثالث قصيدته « ترجمة شيطان » فيما بعد ، لولا أن قيض الله لها الاستاذ المازنى وعبد الرحمن صدقى اللذين أثنياه عما اعتزم عليه[١١٤] .

أما القصيدة الثانية فهي « ليالى الهوى »[١١٥] التي يقول في مقدمتها « عن لسان بعض من طلب النظم في هذا المعنى ، وهي قصيدة غزل حسى مكشوف ، ولذا فانه قد استبعدها هى الاخرى .

ومن العجيب أنه وقع في وهم العقاد أنه لن يكتب الى الصحافة ، وأنه قد أعطى نفسه منها اجازة الى موعد غير مسمى ، اللهم الا اذا عاد الى الصحافة بقصيدة من الشعر ، ومقالة في حكم القصيدة الشعرية توحى بها لمحة من لمحات الخاطر ، أو عارض من عوارض الشعور[١١٦] .

ولكن الانسان يقدر ويدبر،وتأتي الاقدار فتضحك من تقديره وتدبيره، وتمضى به رغم أنفه الى ما امتنع عنه واعتبر نفسه في اجازة منه ، وكذلك كان شأن العقاد الذى انقلب تقديره وتدبيره رأسا على عقب ، حينما كتب مقالة قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم تكن تزيد نسخها على عدد اصابع اليدين ، تلك هى مقالة « نادى العجول » التى أوشك العقاد

---

(١١٤) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٠٩

(١١٥) ديوان العقاد جـ١ ص٣٩

(١١٦ ، ١١٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢٣ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

أن يذهب من جرائها منفيا الى « مالطة » ، وهو أحرج ما يكون الى الراحة والمقام بأسوان ، أو في جو القطر المصرى من المشتى الى المصيف(١١٧) .

والباعث على كتابة العقاد لهذه المقالة هو أنه قد ادركته الحرب العالمية وهو بأسوان ، وأحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، ومرجع الاحكام العرفية فيها الى رئيس اقليمى بعيد من الرقابة مطلق التصرف في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم(١١٨) .

وهذه المظالم التى كانت تحدث وذلك الطغيان الذى يجرى في أسوان داعيا لأن يتكلم العقاد بلسانه وقلمه كاتبا الى وزير الداخلية ، ونظم قصيدة منثورة سماها « نادي العجول » ، لأن النادى كان للسادة الحاكمين ، وسراة القوم في المدينة وكانت تدبر فيه مؤامرات السلب عن طريق المساومات والالعاب ، وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس في ساعات معدودة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات . والسر في تسمية العقاد لهذا النادى « بنادي العجول » أن رؤساءه كلهم كانوا من أصحاب الوزن الثقيل ، ولأنه « حظيرة من حظائر الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون .

وقد كتب مقاله (١١٩) وتناسخه الادباء وأرسله الى الصحف ،وقرأه

---

(١١٨) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٧

(١١٩) وكانت هذه المقالة عبارة عن مقامة فكاهية جاء في مقدمتها :

« أيها السادة ان العجل مدني بالطبع ، ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون ، وقد غبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ، ويتمسحون بأذيالنا حتى أيقنوا أنه لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا فعبدونا من فرط الاجلال ، وسبحوا لنا بالعشي والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا ، فدعوا أكبر ابطالهم واشدهم بأسا وارفعهم ذكرا – أعني الاسكندر المقدوني –

النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجتريء على ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم (١٢٠) •

ويتمثل ذلك المصير في نفي العقاد ، غير أنه قـد تبين من مجرى الحوادث فيما بعد ، أن النفي قد تعذر على مدير النادي ، لانه نفي قبله ناظرا لمدرسة المواساة ، وكـان العقاد في تلك الآونة ناظرها الثاني ، فأشفق القوم أن يقال انهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيـدة في البلدة ، وحينما تعذر على المدير نفي العقاد ، لم يكن أمامه الا ان يشدد الرقابة عليه ، ويقيد اقامته بالمدينة ، فلم يكترث العقاد لهـذه الرقابة ولا لذلك التقييد ، لانه بطبيعتـه كثير العكوف في المنزل قانع من الحركـة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل (١٢١) •

ولم تقف حيل مدير النادي وألاعيبه في التنكيل بالعقاد الى هـذا الحد ، وانما اوقع بينه وبين مفتش الداخلية الانجليزي مدعيا أن العقاد يتهم المفتش بالرشوة ، وأنه يقاسم الموظفين اتاوات السلطة على وظائف العمد والمشايخ ، و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين • ولم يكذب المدير فيما ادعاه لان العقاد كتب في هذا الموضوع وأخذ يقول ويعيد القول أن المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرؤوسيه •

ويصف لنا العقاد ما حدث له بعد ذلك قائلا : « واستدعاني المفتش الانجليزي الى ديوان المديرية فقال فيما قـال في حـديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش Corrupt في الحـرب ولا في السلم » فبدرت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول ــ سواها ــ لو قصدتهـا في روية ، وقلت ان الانجليز جديرون بالتهنئة بعـد حرب

بذي القرنين ، وما اسكندرهم وما قرناه ، أن أصغر عجل فينـا ليهشم رأسه اذا ناطحه ، ويجندله اذا واثبـه أو صارعـه ، فالعجب لك ايتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد •• » آخر ساعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠٠

(١٢٠ ، ١٢١) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الترنسفال [١٢٢] ، ولكنني لو تعمــدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى ، فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائي من المدينة [١٢٣] .

هروبـــه :

وتلعب المصادفة دورا خطيرا في معرفة موقف المفتش الانجليزي من العقاد ، والتقرير الذي كتبه عن العقاد طالبا فيه نفيه الى مالطة ، وذلك عن طريق أحد قراء مقامة «العجول» الذي أسر للعقاد بما ينتويه المدير بالنسبة له ، ومن هنا كـــان لا بد من الرحيل من المدينــة بكل وسيلة مستطاعة .

ويتمكن العقاد من الرحيل الى القاهرة بالرغم من الرقيب الذى كان ملازما لباب الدار بالليل والنهار ويلازمـــه اذا خرج ويسلمه في المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكـــانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد [١٢٤] .

وفي اليوم التالى لوصوله الى القاهرة كان العقاد في ديوان الداخلية يزور صديقه الاديب جعفر والي «باشا» وكيل الوزارة ، ثم تتابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان الى الوزارة بتفصيلات المؤامرات التي يدبرها العقاد ، والاحاديث التي يذيعها ، والاقاويل التي يثير بها الخواطر ويستحق من أجلها التعجيل بالاعتقـال والنفي من الديار . وكان وكيل الداخلية يصطحب العقاد كل يوم الى مكتب المستشار ويشهده على مقامه بعيدا من اسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وفي الوقت نفسه هو بأسوان يراه المفتش والمدير يثير الخواطر ويدبر المؤامرات .

ولم يكن جزاء المدير على ما اقترفته يداه في حق العقاد ووظيفته معا

---

(١٢٢) المعروف أن حرب الترنسفال قـــد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح في حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .

(١٢٣) راجـع آخـــر ساعة الصادرة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠٠

(١٢٤) راجـع آخـــر ساعة الصادرة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٧

الا الاحالة الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ، ويعين بدلا منه محمد مقبل «باشا» ، كما خرج المفتش من أسوان ، وهنا أبرق العقاد الى أصدقائه الاسوانيين حينما عرف الحركة قبل تنفيذها بقوله : « شر مدبر وخير مقبل » (١٢٥)

الرقابة على الصحافة :

ولقد كانت صداقة العقاد بجعفر والي وكيل وزارة الداخلية سببا في عمله بالرقابة على الصحف ، لانه حينما علم أن مجيئه الى القاهرة للبحث عن عمل لانه لا يطيق قضاء فصل الصيف في أسوان لمرضه بالكبد ، سعى في ايجاد عمل للعقاد ، وكان هذا العمل يتمثل في الرقابة على الصحف ، لانهم كانوا في حاجة الى رقيب للصحف العربية • وقبل العقاد هذا العمل في الرقابة بلا تردد ولا غضاضة لانه يعتقد أن الرقابة في أيام الحروب من المصالح العامة التي ينبغي الاسهام فيها •

غير أن هذا العمل لم يطل مقام العقاد فيه ، لانه أصبح بغيضا الى نفسه وفكره بعد ثلاثة أيام •• وهنأ نفسه بالخيبة فيه ، ذلك أنه بعدثلاثة أيام جاءه تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركها للنشر ، وتحقق للمسؤولين أنه لم يحذفها • فاستدعي الى مكتب مستر « هورنبلور » الرقيب العام ، فلما دخل على مستر «هورنبلور» سأله وهو مقطب الوجه بقوله : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم له رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية ، فقال له العقاد بعد ارجاء النظر فيها : نعم ، انها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانكليزية ، ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير • فصاح به الرقيب العام متهكما •• الصحف الانكليزية؟ ثم أردف قائلا : هل أنت من الحزب الوطني ؟ فقال له العقاد : أنا مصري وطني بطبيعة الحال ، وحينئذ قال له الرقيب العام اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟ فأجابه العقاد بما يفيد أنه لا يفهم المقصود من

---

(١٢٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠٠

العطف معهم ، ولذا فانه لا يبقى في هذا العمل اذا كان يتطلب منه شعورا لا يفهمه ، وله أن يتقبل استقالته مشكورا على قبولها .

وهكذا عجز العقاد عن مهمة الرقابة بعد أسبوع واحد ، وكاد يعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة ، وحمد الله على هذه الخيبة الموفقة (١٢٦) .

المراسلة الحربيـــة :

وحينما كان يعمل مدرسا بمدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق ، وهي على مدى خطوات من مكتب المقتطف الذي كان يكتب فيه عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهور ، في هذه الاثناء زاره ذات يوم الاستاذ نجيب شاهين بالمـدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف ، وقال له أن بعض ذوي الشأن ينتظرونه في المقتطف .

وذهب اليهم العقاد بعد الانتهاء من الحصة التي كان يشغلها ، فلما دخل المكتب وجد الدكتور صروف وشابا من أصهاره ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ورجلا انجليزيا لا يعرفه العقاد ، ولم يعرفه به الدكتور صروف، ولكنه قال : انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود الشرقية، وكلهم يظنون أن الهجمة منها قريبة على قنـاة السويس ، ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليق أن يعيد الطمأنينـــة الى نفوسهم بما تراه عيانا ، وتعبر عنه بأسلوبك المعهود ، لان مجرد الوصف الصحفي الشائع لا يكفي للاقنـــاع والتأثير ، ولولا ذلك لكـان في مخبر من مخبرينا أو مخبري الصحف الاخرى من يغنى هذا الغناء .

فلما سمع العقاد هذا الاقتراح من الـدكتور صروف قال له « انني لا أكره ان ابث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع ، أما وهو ـ كما يحدث الآن ـ من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعها » (١٢٧) .

(١٢٦ ، ١٢٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٣٠ آكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠١

ولم يعقب أحد من الحاضرين في تلك الجلسة بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني .. فانه طفق يقول ويعيد يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في ذلك يا سيد عباس ؟ أليس المهم الآن ان تطمئن النفوس على الحدود ؟ فلم يجبه العقاد ولم يجبه أحد من الحاضرين وانصرف العقاد (١٢٨) .

جريدة الاهالى :

على أن العقاد قد أمضى سنتين في التدريس مع صديقه ابراهيم المازني في مدرسة بعد مدرسة من المدارس الثانوية الكبيرة ، وقد جرت عادتهما أن ينتهي عملهما في كل مدرسة بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لانهما قد دأبا على تصحيح الاسئلة والاجوبة في أوراق الاجابة . وهذا بطبيعة الحال مناف لما درجت عليه الوزارة بالنسبة لاوراق الامتحان التي تدعها في خزائنها بعد الامتحان ، وتنظر اليها كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

وقد انتهت السنتان في مهنة التدريس وخرجا منه بعد حدوث الازمة السنوية الخالدة حينما آن أوانها المقدور ، واتفقا بعد خروجهما من مهنة التدريس على ان يقطنا بالامام الشافعي حيث تقيم أسرة المازني من زمن بعيد ، وقدرا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى في « الامام الشافعي » بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنيهما عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر الى أن ييسر الله العمل بعد ذلك أو قبل ذلك كما يشاء .

ومن هنا صارح العقاد صديقه المازني بقوله : « ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني أنتظر العمل في صناعتي حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ، ولا في البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه » (١٢٩) .

وفي هذه الاثناء تيسر للمازني العمل ناظرا للمدرسة المصرية

---

(١٢٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠١

(١٢٩) آخر ساعة الصادرة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ العدد ١٢٠١

الثانوية ، ولبث العقاد في البيت بالامام الشافعي يترقب أوائل الشتاء ليعمل فيما يتهيأ له من عمل يرتضيه أو يزمع الرحلة الى أسوان ، لانه كان يعاني حالة يأس من العمل في الصحافة والتدريس معا الى ما بعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب قبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى ..

وبينما هو على هذه الحال من اليأس والضيق والفتور ، مما جعله يفكر في ازماع الرحلة الى أسوان ، اذ بالاستاذ محمد عبدالقادر حمزه يستدعيه عن طريق عبدالمؤمن الحكيم ، ليقوم بالتحرير في صحيفة «الاهالى» بالاسكندرية ، وقد فوض عبدالقادر حمزه لعبدالمؤمن الحكيم أن يصرف للعقاد مرتب شهر ، وما يطلبه من تكاليف السفر الى الاسكندرية ، وأن يراجع الصحيفة اذا طلب العقاد مرتبا أكبر .

على أن يكون السفر في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الاكثر ، فكان رد العقاد عليه : أنه لا حاجة الى المراجعة الان ، ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر وانثنى يومئذ الى الامام الشافعي لاعداد حقيبتـــه للسفر واختيار ما يحمله معه من الكتب الى الاسكندرية والاستغناء عما هو معد للبيع من الكتب في يومين أو ثلاثة ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة، لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

وسافر العقاد الى الاسكندرية حيث عمله الجـــديد تاركا صديقه المازني بالقاهرة ، ليلتقي بعبدالرحمن شكري في الاسكندرية حيث يعمل مدرسا بمدرسة رأس التين الثانوية (١٣٠) .

ولم يستطع المازني حينئذ البقاء بالقـاهرة وصاحبه بالاسكندرية ، ولذا فانه ما ان أفلست المدرسة المصرية الثانوية التي كان يعمل ناظرا لها، حتى كتب الى العقاد ليتوسط له في عمل بالصحافة في الاسكندرية ، فأجاب العقاد طلبه بالحصول له على عمل في جريدة وادي النيل ليترجم فيها ويكتب المقالات ، وهذه أول مرة يحترف المازني فيها الصحافة ، وكان ذلك عام ١٩١٨ (١٣١) .

(١٣٠،١٣١) راجع آخر ساعة الصـــادرة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ العـــدد ١٢٠١

واستمر العقاد في جريدة « الاهالى » حتى نهـــاية الحرب العظمى وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وحينئذ افترقت الخطة العامة بين جريدة الاهالى والعقاد فيمـا يكتبه من تحقيقات مصورة أو مقالات أو غيرها •

ذلك أن «الاهالى» قامت لتأييد محمد سعيد باشا برأس مال مجموع من تبرعات أنصاره وأبناء بلده السكندريين ، فلما تألف الوفـد المصري كانت خطتها حياله هي خطة محمد سعيد حيال سعد زغلول ، وهي خطة الوزارة أمام معارضها الاكبر في الجمعية التشريعية • ومن ثم كان كل ما نشره العقاد من الصور الوصفية والتعليقات على تأليف الوفد المصري خارجا على سياسة الجريدة ، ولذا فانه لم يعد للعقاد بقاء للعمل فتركها ، وانتقل الى القاهرة ليعمل في تحرير الاهرام ، لانها هي الصحيفة الوحيدة التي أعلنت وقتذاك أنها « مصرية للمصريين » وسمحت للوفـــد بنشر بياناته وأخباره على صفحاتها ، وكانت فاتحة عصر جديد في حيـــاة مصر والصحافة وحياة العقاد الصحفية بالـــذات ، وفي الوقت نفسه رجع معه المازني ليعمل بجريدة الاخبار مع أمين الرافعي (١٣٢) •

وعقب وصوله الى القـــاهرة من الاسكندريـــة اشتعلت نيران ثورة ١٩١٩ ، فكان العقاد وزميله المازني يحرران منشورات جمـاعة « اليد السوداء » السرية ، ويكتبان في الصحف مقالات نارية ملتهبة ، حتى تقرر نفيهما على يد وزير الداخليـــة « ثروت باشا » الـــذي استقال في هذه الفترة ، ولولا استقالته ، لحل بهما قضاء النفي والتشريد ، لان رصيدهما في الاتهامات كان وافرا بحمد الله ، اذ حامت حولهما الاتهامات في حوادث الاغتيالات التي وقعت حينذاك بـدعوى ايغار الصدور واثارتهما الشعور

(١٣٢) راجع اخر ساعة الصادرة في ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٧ وراجع كذلك «يوميات العقاد» بجريدة الاخبار الصادرة في ٤ من سبتمبر ١٩٦٣ العدد ٣٤٨٥ •

العـــام [١٣٣] .

على أنه ابان اشتغاله بالاهرام وبعد الحرب العالميـة الاولى قد جار على نفسه مرة اخرى في العمل ، فأصيب بمرض الصـــدر ، وسافر الى أسوان ليشفى هناك في جو جاف ، ولكن المرض لم يمنعه من أن يشترك هو وصديقه ابراهيم عبدالقادر المازني في تأليف كتاب « الديوان في الادب والنقد » ، وهو الكتاب الذي يعتبر دستورا لمدرستهم الجديدة في مجالي الادب والنقد على نحو ما سنبينه فيما بعد .

* * *

والى هنا ترانا قد استطعنا أن نقف على مقومات العقاد الشخصية في كفاحهـــا من أجل صناعة القلم ، لان شخصيته أصبحت فيمـــا بعد من الشخصيات التي يعتد بآرائها في الفكر والادب ، وأصبح كاتبا يشـــار اليه بالبنان ..

وتمضى به الايام حتى يكلل الله جهاده بالنجاح ، وذلك بتقـــديمه للمحاكمة بتهمة العيب في الذات الملكية في عام ١٩٣٠ ، على اثر ما قاله في الاجتماع الخاص الذي عقد في البرلمان للنظر فيما يدبر للحياة النيابية آنذاك . وحكم على العقـــاد بالسجن تسعة أشهر في ٣١/١٠/١٩٣٠ ، فتلقى العقاد هـــذا الحكم بجنان ثابت وجـــأش رابط ، وابتسامة ساخرة قائلا : « ولو » [١٣٤] .

وفي « غضون هذه الشهور التسعة التي قضاها في السجن استطاع العقاد ان يدرس « ابن الرومي » فأصدر عنه كتابا يسمى « ابن الرومي حياته من شعره » وأصدر كتابا آخر يدعى « عالم السدود والقيود » » .

ولم يقبل العقادمساومة الملك فؤاد له، بأن يتنازل عن آرائه ويخرج من الوفد لقاء العفو عنه ، والاشراف على القسم العربي بالديوان الملكي آنذاك .

---

(١٣٣) العقاد في ندوته ، وراجع أيضـــا : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد صفحة ٣٦ .

(١٣٤) من حديث خاص مع العقاد .

ويحدثنا الاستاذ عبد الرحمن صدقي ، وهو من المتصلين بالعقاد منذ عام ١٩١٢ أنه لازم العقاد عقب خروجه من السجن ، وتعمد هو وأصدقاء العقاد الا يفارقوه خلالها ، لانه قد انطلقت اشاعة قوية تؤكد أن ثمة مؤامرة تدبر في الظلام لاطلاق الرصاص على العقاد .

ومن ثم حضر صدقي مساومة اسماعيل صدقي للعقاد حينما أتى الى الوزارة واستقبله العقاد بمجموعة من المقالات السياسية المتتالية التي يشن فيها هجومه على الوزارة ، بالرغم من الاوامر التي كان يصدرها صدقي في كل يوم باغلاق أي جريدة أو مجلة تنال منه او من سياسته . يقول عبدالرحمن صدقي : « فكنت مع العقاد عندما أرسل اليه اسماعيل صدقي رسولا خاصا يقول له : ان رئيس الوزراء على استعداد لان يدفع له شهريا المبالغ التي فقدها باغلاقه الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها بشرط واحد .. هو أن يكتب عن رئيس الوزراء معترفا بميزاته في الاقتصاد ، وألا يستمر في حملته السياسية عليه .. ورفض العقاد قائلا : انني أولا أحرص على احترامي لنفسي قبل أن أحرص على احترام الناس لي (١٣٥) .

وفي اعتقادنا أنه حسبنا ما وقفنا عليه من مقومات العقاد الشخصية ، ومن ظروفه المعيشية ، وكيف كانت تمضي به الحياة من حيث تغلبه على الصعاب التي واجهته في حياته المريرة التي عاناها . ومن ثم فانه لا بد لنا في هذا المقام من الحديث عن حياته الادبية ، وكيف كان يمضي في عالم الادب والادباء ، لان الحديث عن حياته الادبية يمثل جانبا هاما من مقومات شخصيته أيضا .

★ ★

---

(١٣٥) راجع أخبار اليوم الصادرة في ١٩٦٤/٣/١٤ .

الفصل الثالث

مع الادباء

١ ـ معرفته بالكتاب :

وقد أتاح اشتغال العقـــاد بالصحافة فرصة اللقــــاء بالمهاجرين من سورية ولبنان والعراق ، وغيرها من الاقطار العثمانية ، حيث كان يجلس مع هؤلاء ومع بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون في « سبلندد بار » أو قهوة « الشيشة » أو « القهوة الوطنية » أو قهوة « يلدز » أو قهوة « متاتيا » ، أو قهوات الحي الحسيني وباب الخلق والفجالة[١] .

وذلك لان القاهرة كانت مركزا لكل الدعوات التقدمية ، ومن هنا فانك ترى خليطا عجيبــا من الناس يجلس عــلى تلك المقاهي ، فهنالك ترى « شبلي شميل » الباحث في فلســفة النشــوء والارتقــاء ، والدكتور مهدي خان صاحب مجلة « حكمت » الايرانية الحرة ، وقد التقى بـــه العقاد في صيف عام ١٩٠٩ حينما كتب العقـــاد في صحيفة « الدستور » مقالة ينعي فيها على شاه الفرس محاولته الغاء الحياة النيابية ، ووجـــه خطابه في مقالته الى الشاه الصغير الذي ولي العهد بعد فرار الشاه الكبير ، وقال في مفتتح خطابه : « أنت في الشرق بين أمة الشعر والشعور » وحينئذ طلب الدكتور مهدي خان مقابلة العقاد ، وقابله بوساطة صديقه الشاعر علي شوقي[٢] .

(١ ، ٢) راجع : اخر ساعة الصـــادرة في ٢٨ من أغسطس ســـنة ١٩٥٧ ، ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، وكتاب « رجال عرفتهم » صفحات ١١٦ وما بعـــدها ، و ١٥٨ وما بعدها و ١٦٩ وما بعدها ـ والعقاد في ندوتـــه .

كما التقى العقاد بالدكتور يعقوب صروف في عام ١٩٠٥ حينما ذهب الى دار « المقتطف » ليبحث عن كتاب « الكائنات » للشاعر الباحث العراقي جميل صدقي الرهاوي ، لان مجلة المقتطف هي التي تولت طبعه في القاهرة ، لانه يبحث في « فلسفة ما وراء الطبيعة » وهو من الموضوعات التي كانت تثير الريبة في الاقطار الشرقية الى ما بعد أوائل القرن العشرين[٣] .

ويقول العقاد في هذا الصدد : « ان لقاء الدكتور يعقوب صروف هو الغرض الاول من زيارة الدار » اذ كان في وسعه أن يسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان في وسع عامل المخزن أن يتولى اخراج الاذن ببيعه من رئيسه في ادارة « المقطم » أو ادارة « المقتطف » . ولا يذكر العقاد أن حديثه مع الدكتور صروف دار حول فلسفة ما وراء الطبيعة ، التي أعلن الدكتور صروف للعقاد أنه لا يهضم تلك الفلسفة بالرغم من حصوله على لقب دكتور في الفلسفة[٤] .

وفي هذه القهوات التقى بأحمد رضا رئيس « مجلس » المبعوثان ، الذي صنع انقلاب مصر الفتاة فيما بعد ، ورضا توفيق التركي ، ونجيب شاهين محرر المقتطف ، وابراهيم الورداني ، والشيخ رشيد رضا ، ومصطفى الصغير الداعية الاسلامي الهندي ، الذي جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون في الاستانة ، فحكموا عليه بالاعدام ، ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية[٥] .

وفي هذه القهوات التقى كذلك بأناس من الادباء الذين لا يشتغلون بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة صحب العقاد وزملائه على قلة ترددهم وتردده على القهوة « سبلندد بار » لغير موعد أو مصادفة

(٣ ، ٤ ، ٥) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٧ ، ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، وكتاب « رجال عرفتهم » صفحات ١١٦ وما بعدها ، و١٥٨ وما بعدها و١٦٩ وما بعدها ـ والعقاد في ندوته .

وهؤلاء الادباء هم محمد حافظ ابراهيم وامام العبد ومحمود عماد ، وعلي شوقي[٦] •

وفي قهوة « متاتيا » التقى العقاد بالكاتب محمد توفيق دياب أثناء اجازته من جامعة لندن ، حيث كان يدرس فيها الاقتصاد السياسى ، وفي التقائه بالعقاد كان حديث العقاد يتسم بالضيق والملل من شباب مصر ، اذ يتهمهم العقاد بأنهم يفقدون القدرة على الاعجاب ، ومن هنا فانهم لا يفهمون أن في الانسانية نوعا من السمو ، أو أن هناك قيمة انسانية يطمح اليها الشاب منهم ، ومن ثم خلدوا الى اللهو والعبث ، وانصرفوا عن الاعمال العظيمة • فطمأنه توفيق دياب على شباب مصر ، لانه سعيد بهم ومتفائل لهم ، ولا سيما أن فيهم عباسا العقاد وأمثاله من الشباب الذين يعجب بهم[٧] •

بالاضافة الى ذلك فقد التقى جرجي زيدان في احدى مكتبات حي « الفجالة » حينما ذهب ليسأل عن كتاب باللغة العربية في فلسفة الجمال ، لانه كان قد تصفح فصول الاديب الخطيب « أدمون بيرك » استاذ « هازلت » عن الجليل والجميل فخطر له أن مثل هذا البحث لابد أن يكون مطروقا باللغة العربية ، وحينئذ قال له جرجى زيدان ، وكان يجلس مع الكاتب أبو بكر لطفي المنفلوطي شقيق مصطفى لطفي المنفلوطي : « ما أظن كتابا في هذا الموضوع قد ألف باللغة العربية » • وبعد ذلك توطدت صلته العلمية به ، فكثيرا ما كان يناقشه في مقابلاته في فلسفة التفاؤل والتشاؤم[٨] •

وبجانب ذلك أتاحت له الصحافة والعمل بها فرصة التعرف على ابراهيم عبدالقادر المازني ، ولم تكن المعرفة بين العقاد والمازني شخصية في بادىء الامر ، ولكنها كانت تتمثل في معرفة قارىء هو المازني ، لكاتب

---

(٦) راجع : عباس العقاد ناقدا وللمؤلف صفحة ٩٦ •
(٧) من حديث خاص مع كل من العقاد ومحمد توفيق دياب •
(٨) رجال عرفتهم من ١٩٢ وما بعدها •

بصحيفة الدستور هو العقاد ، حتى انه كان يعنى أشد العناية بالمقالات التي تعالج موضوعا واحدا مثل المقالات الست التي كتبها العقاد عن الشعر الفارسي ، تحت عنوان : « فارس شعرها وشعراؤها » وكذلك مقالاته عن الشعراء العرب القدامى من أمثال « ابن الرومي ، والمعري ، وأبي تمام وغيرهم »[٩] .

ثم انتقلت المعرفة بين كل من العقاد والمازني الى طور آخر هو طور المعرفة بالشكل ، لان جريدة «الدستور» كان مقرها في « درب الجماميز » وعلى مقربة من المدرسة الخديوية التي كان المازني يتردد عليها لزيارة زملائه ، ومن هنا كان يعرج على جريدة « الدستور » ليسدد الاشتراك ، وحينئذ كان يلقى العقاد فيسلم عليه ، وبعد ذلك توطدت العلاقة بينهما وأصبح العقاد يصطحب المازني معه في الذهاب الى « سبلندد بار » ومكتبة مجلة « البيان » التي كان يصدرها الشيخ عبدالرحمن البرقوقي[١٠] .

وقد كان العقاد يلتقي في هذه المكتبة بنخبة من الاساتذة منهم محمد السباعي ومحمد حسين هيكل ، والصادق حسين ، وعباس حافظ ، وطه حسين وغيرهم ، ويمكثون في المكتبة وقتا غير قصير حتى يحين موعد اغلاقها ، وكانت جلستهم في هذه المكتبة ـ كما يقول العقاد ـ أشبه بجلسات التلاميذ ، حيث يتحدث كل اثنين أو ثلاثة في موضوع ، ولم يكن هناك دراسة لموضوع موحد بحيث يستمع اليها جميع الجالسين في المكتبة .. وفي هذه الاثناء كان العقاد يكتب في مجلة « البيان » عن نيتشة وماكس نوردو ، ويكتب المازني عن ابن الرومي[١١] .

ويتضح من هذا أن العقاد كان يلتقي بالمازني لقاءات متكررة في كل اسبوع سواء أكانت هذه اللقاءات تتم في مكتبة « البيان » أو في «سبلندد بار » أو في غيرهما ، ثم وطد الجوار صداقتهما عندما سكنا معا

---

(٩) العقاد في ندوته .

(١٠) من حديث شخصى مع العقاد .

(١١ ، ١٢) من حديث شخصى مع العقاد .

في بيت واحد في حي الامام الشافعي اولا ، ثم في حي السكاكيني(١٢) .

وفي تصورنا أن صداقة العقاد للمازني على هذا النحو وسكنهما معا في حى الامام الشافعي والسكاكيني،تذكرنا بصداقة (وردزورث) لـ(كولردج) وما كان لصداقتهما هذه من أثر في الادب الانكليزى(١٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان صداقة العقاد للمازني متوطدة منذ ذلك الحين ، بحيث كانا لا يفترقان الا عند النوم ، ولا أدل على ذلك من أن السياسة ودواعيها واختلاف منهج كل منهما فيها ، لم تكن باعثا لاحداث الفرقة بينهما ، اذ كان العقاد يمجد سعدا في صبيحة كل يوم بمقالة ، والمازني لا يؤمن بسعد ولا بالوفد معا ، ومن ثم فانه يسلب سعدا كل ما أضفاه عليه العقاد من عبقرية وذكاء ، وما أهاله عليه من صفات وشيم ، كان المازني يسلب سعدا كل هذا بمقالة كذلك ، ومع هذا فقد كان العقاد والمازني يقضيان الليل في السمر حينا والقراءة أحيانا(١٤) .

وحسب القارىء معرفة لابعاد هذه الصداقة أن يستمع الى ما قاله العقاد في هذا الصدد : « لقد قيل أن الصديق نفس ثانية في جسم آخر ، وما هي بكلمة صادقة ان لم تصدق على صداقة سبع وثلاثين سنة أو تزيد .. تعاقبت فيها الحوادث بفتنتها وأهوالها ففرقت بين الوالد وولده ، وبين الاخ وأخيه ، وبين الزميل وزميله ، ووقفت دون تلك الآصرة السماوية لا تبلغ اليها بضربة من ضرباتها ، ولا تسعى اليها بنفثة من نفثاتها ، ولا تمسها الا لتزيدها قوة على قوة ، ومناعة على مناعة ، ثم تتركها نفسا واحدة تفترق بالرأي فتلتقي بالشعور ، وتفترق بالشعور فتلتقي في صلة من صلات الروح ، تجمع البديهية على البديهية ، والخيال على الخيال ،

---

(١٢) من حديث شخصي مع العقاد ..

(١٣) راجع Wordsworth Poetry and Prose, Introduction. By D.N. Smith, P. 4.

(١٤) العقاد في ندوته ، وراجع : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد ص٧٠ وما بعدها .

والمعنى على المعنى شاخصة ماثلة مذكورة حيثما تقلبت صفحة من كتاب أو ترددت عبارة من مقال[١٥] .

وقد ظلت معرفته بالمازني وبهؤلاء المهاجرين من البلاد الافريقية والاسيوية مستمرة بالرغم من انقطاع العقاد عن الاشتغال بالصحافة زمنا ما ، نظرا لاحتجاب صحيفة الدستور .

وقد التقى العقاد أيضا بلفيف من الادباء والشعراء من شيوخ الادب وشبانه في ديوان الاوقاف حيث كان يعمل به كما عرفنا سابقا ، ومن بين هؤلاء الادباء والشعراء محمد المويلحي ، وعبدالعزيز البشري ، وعبد الحليم المصري ، وأحمد الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ، وأمين الدولة ، ومحمد فكري ، كما التقى كذلك بمحمود عماد وعلي شوقي[١٦] .

وفي خلال عمله بديوان الاوقاف تعرف بعبدالرحمن شكري بوساطة المازني الذي كان زميلا وصديقا لشكري في مدرسة المعلمين العليا ، اذ تخرجا في عام ١٩٠٩ ، وكانت الصداقة بينهما وطيدة طيلة أيام الدراسة . وحينما وقع الاختيار على شكري للسفر الى انكلترا لتفوقه في بعثة الى جامعة « شيفيلد » ومكث هناك ثلاث سنوات منذ عام ١٩٠٩ الى ١٩١٢ ، كانت رسائل المازني لا تنقطع عنه ، ولا يفتأ يحدثه فيها عن العقاد الذي تعرف عليه المازني ، حتى أرسل شكري للعقاد رسالة من انكلترا دون سابق معرفة ، وهكذا تعارفا قبل أن يلتقيا . ثم قام المازني بعد ذلك بتعريف كل منهما بالآخر بعد رجوع شكري واتصلت المعرفة بين ثلاثتهم منذ ذلك الحين ، وصاروا فيما بعد ينشرون رسائلهم النقدية التى كانت تبشر باتجاههم الادبي الجديد في صحيفة « عكاظ » وغيرها من الصحف المعنية بالادب[١٧] .

---

(١٥) بعد الاعاصير ص١٣٤ .

(١٦) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من اكتوبر سنة ١٩٥٧ ، و « رجال عرفتهم » للعقاد ص٧٩ وما بعدها .

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص١٠٥ .

على أن العقاد قدم الجزء الثاني من ديوان شكري بعـد شهور من معرفته به في عام ١٩١٣ ، وفي هذه المقدمة وصف العقاد شعر شكري بأنه « ينبسط انبساط البحر في عمق وسعة وسكون » ، ويقول فيها أيضـا : « فاذا تلقى قراء العربية اليوم هذا الجزء الثاني من ديوان شكري ، فانما يتلقون صفحات جمعت من الشعر أفانين ، قد سمح بها قلم سخي وقريحة خصبة »(١٨) .

وبالاضافة الى ذلك عد شعر شكري بمثابـة تهيىء المكان لاستقبال المذهب الجديد ، وأعلن انهم اليوم غيرهم بالامس ، لانه قد تبوأ منابـر الادب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضى ، نقلتهم التربية والمطالعـة أجيـالا بعد جيلهم(١٩) .

ومعنى هذا أن معرفة هؤلاء الشعراء كانت في ميدان الكتابة أولا ، ودامت معرفتهم سنين طوالا .

وليس أدل على ذلك من قول العقاد في هذا الصدد : « فمن عجب التوفيق أن يكون شكري في الاسكندرية ، وأن يكون المازني فيالقاهرة ، وأن أكون أنا في أسوان ، ثم نلتقي على قدر ، وعلى اتفاق فيما قرأناه ، وفيما يجب أن نقرأه مع اختلاف في حواشى الموضوعات من غير اختلاف في جوهرها »(٢٠) .

على أن هذا الحشد الهائل من الادباء الدين تعرف عليهم العقاد ، لم يكونوا مثلا عالية يحتذيها العقاد في شبابه الادبي ، لان أكثرهم لـــم يعرف للادب قيمته ولا ماهيته ، ولكنه يحترف الادب كأي مهنة يحترفها الانسان للارتزاق ، ومن هنا يصعب على الباحث أن يجـــد في أشعارهم وانتاجهم قيما انسانية عالية ، وليس لهـم في انتاجهم سوى الصنعـة التي تبدو في الصقل والمهارة الناتجين عن الدربة والمران .

(١٨ ، ١٩) عباس العقاد : مطالعـات في الكتب والحيـاة صفحـات ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ .

(٢٠) العقاد في رثائه للمازني بمجلة المجمع اللغوي الجزء السابع .

ومن ثم نراهم يشتجرون حول لا شيء ، اذا قسنا معاركهم بمقياس الناقد الحديث الذي ينتظر من المعارك أن تدور حــول قضايا أدبية أو فكرية من شأنها أن تكون مرتبطة أشد الارتباط بالمجتمع ، بحيث تعمل على تقدمه ورفعته • وتأسيسا على هذا الفهم نستطيع أن نقول أن معاركهم، بل ان شئت فقل أن مؤامراتهم كانت تنبع من القصور من قصر الخلافـة بتركيا ، ومن قصر عابدين حيث الخديو ، ومن قصــر الدوبارة حيث المعتمد البريطانى الذى كان يلقب آنذاك بقيصر قصر الدوبارة ، واليـــه يوجه حافظ ابراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا   فالشرق ربع له وضج المغرب

وعنه يتحدث حين قال :

وما دام في قصر الدوبارة ربــه   فسعد ودنلوب لعمرك واحد

والدارس لاتجاهات هذا الجيل الادبية لابد أن يفتش اذن عـــن القصر ـ كما يقول العقاد ـ أو عند قضية الخلافة ، وذلك ليفهم حقيقة لا غنى عنها في تقدير تلك الاتجاهات الادبية في الجيل الماضى ، وتقديـر أسباب التجمع والتفرق بين حملة الاقلام في كل اتجاه منها • وبغير هذا الشعار يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الاسباب الكامنة وراء تكوين تلك الاتجاهات من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة(٢١) •

فالسلطان العثماني كان يتهم الخديويين بالسعي الى تحويل الخلافة من الترك الى البلاد العربية ، وكان الخديويون في الوقت نفسه يحذرون من سلطان الخليفة ، لانه السلطان الذي كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام الوراثة ، أو يســاوم الدول الاوربية عــلى حســاب الخديوية المصرية ، كلما كانت له في ذلك مصلحة من مصالح السياسـة الدولية(٢٢) •

وقد كان طموح أحمد فؤاد الى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانتـه عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الامبراطورية الهندية(٢٣) •

(٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) عباس العقاد : رجال عرفتهم ص ١٠٨ـ١٠٩

وكانت هناك مؤامرات النزاع بين قصر عابدين مقر الخديو ، وقصر الدوبارة مقر المعتد البريطاني ، كما أشرنا الى ذلك قبلا . وكان لكل قصر حاشيته من الادباء والمفكرين . وليس أدل على علاقة القصور بمدارس الشعر ما ظهر في منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم – كما يقول العقاد – أن يسمي قصائده بالكروميات معارضا بها «الشوقيات»[٢٤].

ويرى العقاد أنه لولا الحركة الوطنية ، لكان مجال المؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر بلا استثناء ، اذ كان ظهور هذه الحركة سببا في تحويل أصحاب الاقلام الى معركتها الصريحة في الصحف وعلى منابر الخطابة[٢٥] .

وبانتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ، انتهت هذه الطائفة من الادباء الذين كانوا يضعون قدما في هذا البلاط أو ذاك ، وقدما أخرى في بلاط صاحبة الجلالة على حد تعبير العقاد[٢٦] .

ويتساءل الباحث في هذا المقام سؤالا هو ألزم سؤال ، اذا كان الجيل السابق للعقاد على هذه الحالة ، واذا كانت علاقته بقضايا الامة على النحو الذي أشرنا اليه ، واذا كانت المؤامرات القلمية حقيقة واقعة .. اذا كان هذا كله كما رأينا .. فمن من الشعراء أو الكتاب نعتبره مثلا عاليا لشاب طموح هو العقاد .

ومن هنا ندرك أن تعرف العقاد على هؤلاء الشعراء والكتاب ، كان من باب الوقوف على الحقيقة فيما يتصل بوجدان هذه الامة وفكرها وقضاياها .

وندرك أيضا لماذا وقف العقاد مع الجيل الجديد من الكتاب والشعراء الذين نشأوا في الهواء الطلق على حد تعبيره ، والذين نشأوا في صف المعسكر الجديد وهو معسكر الامة .

ونخلص من هذا كله الى أن العقاد استطاع أن يستصفي من كتاب الجيل الجديد شابين على جانب كبير من الثقافة والتفتح ويكون معهما

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) المرجع السابق ص١١١ ، ١١٢ .

مدرسته الادبية والفكرية التي تعرضت ابان نشأتها للتشهير والتنديد في الصحف الاسيوية التي تخصصت للهجاء الاجتماعي والمناورات الادبية والسياسية •

ويقول العقاد في هذا الصدد : « ان هـذه الصحف كانت تقصد بحملاتها من يبذلون المال في سبيل اتقائها ، ولا يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، الا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها »[٢٧] •

ويفسر العقاد مصدر هذه الحملات بأنه القصر بسراديبه وحواشيه ، الذي يستعين على ذلك بسلاح السلطان ، ويمالئها بسلاح الدرهم والدينار[٢٨] •

٢ ـ مدرسة الجيل الجديد :

عرفنا فيما سبق أن العقاد كون مع زميلين له[٢٩] مدرسة أدبية فكرية ، وأن المعرفة بين الثلاثة كانت في ميدان الفكر والادب وانهم صاروا ينشرون رسائلهم النقدية فيما بعد ، تلك الرسائل التي كانت تبشر باتجاههم الادبي الجديد في صحيفة « عكاظ » وغيرها •

وقد نشأ اتجاه هؤلاء الشبان ابان شيوع الشعر التقليدي وسيطرته على الحياة متأثرا باهتماماتها المختلفة ، ومرتبطا في الوقت نفسه بالطبقة العالية من المجتمع غير حافل بالسواد الاعظم منه[٣٠] •

وقد انساق شعراء التقليد في هذا التيار الذي يعبرون فيه عن غيرهم ، وينسون وجداناتهم ومشاعرهم الخاصة ، حتى غدت رسالة الشاعر تعادل رسالة الموظف في مفهوم كبار الشعراء • وليس أدل على ذلك من أن شوقي لم يكن موظفا في القصر الا لانه كان شاعرا ، وأصبح الشعراء ينفسون عليه هذه المكانة لدى الخديو ، وحاولوا أن يستلبوه هذه الوظيفة ، وحاول كثير من الشعراء الذين لم ينالوا حظا من الشهرة ، أن

(٢٧ ، ٢٨) عباس العقاد : رجال عرفتهم ص١١٤ •
(٢٩) هما ابراهيم عبدالقادر المازني ، وعبدالرحمن شكري •
(٣٠) راجع : عباس العقاد ناقدا : للمؤلف ص ١١٣

يقلدوا الشعراء الموظفين باعتبارهم المثل الاعلى(٣١) .

في هذا الجو الخانق لفردية الشاعر وحريته ونسيانه ذاته ومشاعره ووجداناته برز هؤلاء الشعراء الثلاثة من الشبان ، لانهم ضاقوا ذرعا بالحياة الادبية والفكرية في مصر ، فاتجهت أنظارهم صوب التراث العالمي من فكر وحضارة وأدب ، يعبون منها بنهم شديد ، لترتوي نفوسهم الظمأى من ذلك التراث ، وفي الوقت نفسه قاموا بدراسة التيارات الفكرية والادبية المعاصرة في العالم(٣٢) . وخرج هؤلاء الشبان من ذلك كله بثورة عاتية ، ولوعة مضنية في نفوسهم ، حينما قارنوا بين تلك التيارات في العالم وبين الحالة الادبية في مصر ، فهالهم الامر بادىء ذي بدء ، لان مصر كانت متخلفة عن الركب الحضاري والفكري والادبي العالمي ، واشتدت هذه الثورة عتوا ، وتلك اللوعة أضناء حينما وجدوا أن منابر الادب في مصر يتبوأها شعراء مقلدون(٣٣) ، بينما يحس هؤلاء الثائرون بما في نفوسهم من امكانات أدبية ضخمة ، ويرون نفوسهم ظلالا حائرة تضيع في الزحام والضجيج ، ومن ناحية أخرى فان بريق المجد الادبي ليخلب أبصارهم ، والبحث عن المثل الاعلى يضني نفوسهم الرقيقة الحساسة الثائرة(٣٤) .

ومن هذا الصراع الناشب بين طموح هذا النفر من الشعراء وأحلامهم ، وبين واقعهم المرير الذي يعيشونه في ذلك الوقت ـ وهم من الطبقة الكادحة ـ اندفعوا يحطمون بمعاولهم كل عقبة كأداء تصادفهم ، وأنكروا أصنام الادب وعملهم ، وطلبوا عملا أصلح منه وأوفى ، وأحدثوا في الحياة الادبية دويا هائلا ، في جرأة منقطعة النظير ، ويحمل هذا الدوي الهائل في طياته تيارا جديدا في مطلع هذا القرن العشرين(٣٥) .

(٣١ ، ٣٢) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص١١٣

(٣٣) راجع : العقاد يتحدث عن النقد والنقاد ، لعبدالحي دياب في مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل ١٩٦٢ .

(٣٤ ، ٣٥) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١١٤

والمتتبع لهذا التيار الجديد يجده متجليا في دراسات هؤلاء الشبان النقدية التي كانوا ينشرونها في صحيفة « عكاظ » وغيرها من الصحف الاسبوعية التي يهدفون من ورائها الى ارساء مدرستهم بنقد الاخرين ، أو بتقديم أعمال بعضهم ، كما حدث في تقديم العقاد لديوان شكري والمازني ، أو بنقد أعمال بعضهم ومقارنتها بغيرها من الاعمال واظهار البون الشاسع بين اتجاههم الادبي الجديد ، وبين الاتجاه السائد ، وذلك كما حدث في موازنة المازني بين شعر شكري وحافظ في صحيفة «عكاظ» التي ابتدأت في ٢٧ من يوليه عام ١٩١٣ بسلسلة من المقالات ذهب في المقالة الاولى منها الى أنه لا يجد أبلغ في اظهار فضل شكري والدلالة عليه ، وبيان ما للمذهب الجديد على القديم من المزية والحسن من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل شكري ، وآخر ممن ينظمون الشعر بالصنعة مثل حافظ ، فان الله لم يخلق اثنين هما أشد تناقضا في المذهب وتباينا في المنزع من هذين ، والضد كما قيل يظهر حسنه الضد(٣٦) .

ثم يخلص من هذا كله الى أن حافظا « اذا قيس الى شكري لكان كالبركة الآجنة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارىء أن يتأمل ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد ، وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ، ويسمو بشكري في سماء الفكر ، وكف يجنى التقليد على رجل ، ويغلق في وجهه أبواب التصرف والتفنن ، فان حافظا قد حذا في شعره حذو العرب ، وقلدهم في أغراضهم وفرط عنايتهم باصلاح اللفظ وان فسد المعنى »(٣٧) .

والدارس لنشأة هذه المدرسة يجد أن العقاد قد ساند المازني بتحطيم حافظ من وجهة نظره ، وذلك في مقالتين تحت عنوان « الشعراء الندابون » نشرتا في « عكاظ » كذلك . ووصفه في مقالته الاولى بأنه شاعر نداب وقف شعره على الندب والولولة والعويل ، مدعيا أن للشعراء الندابين

(٣٦ ، ٣٧) راجع : « عكاظ » الصادرة في ٢٧ يوليه سنة ١٩١٣ العدد ٣ .

شعرهم وللعصر شعره ، وعليهم أن يقروا في قبورهم ويتزملوا بأكفانهم ، حتى اذا انهدم جدار ، أو اصطدم قطار أو وقع طيار ، هنالك يثوب الداعي بهم[٣٨] .

ثم يختم حديثه في هذا الصدد بقوله : « فانبعثوا وقولوا ما شئتم ، ولكن لا تفاجئونا يرحمكم الله ويطيب ثراكم »[٣٩] .

على أن العقاد قد سماه في المقالة الثانية أبا جهل ، وانه مغلق الذهن ثم وازن بينه وبين أحمد شوقي في رثائه للطيار العثماني فتحي « بك » مفضلا شوقي عليه في ذلك الرثاء ، لان الحقيقة وحدها قد حركت خيال شوقي ، في الوقت الذي لم يتحرك خيال حافظ فيه الا بمنخاس الغلو الفاحش والمبالغة المستحيلة ، ثم يقول : « وأحر بمثل أبى جهل ألا يتيقظ خياله الا على دوى المدافع ، وقصف الرعود »[٤٠] .

والذي يتضح مما تقدم أن دعاة هذه المدرسة لم يدخروا وسعا في سبيل ارساء اتجاههم الادبي الجديد الذي اتضحت معالمه فيما بعد ، فيما سميناه بمدرسة الجيل الجديد ، وانهم كذلك قد استخدموا من الاساليب أفظعها ، وذلك ليزلزلوا مكانة الشعراء الذين جمدوا على التقليد لا يريمون مكانهم ، ولا يبغون عنه حولا ، ومن هنا لم يكن في وسع هؤلاء ، الا أن يستخدموا مع المقلدين العنف في الاسلوب مشوبا بالسخرية والتهكم ، وذلك لانهم كانوا في حالة من اليأس ، ونقطة التحول الفكري الذي أدى الى محنة العقل والسريرة ، وذلك قبيل الحرب العالمية الاولى[٤١] .

ويرى الدارس أن العنف في الاسلوب اذن سمة من السمات التي تدل على الثورة الكامنة في نفوس هؤلاء الشبان ، تلك الثورة التي ابتعثتها

(٣٨ ، ٣٩) راجع : « عكاظ » الصادرة في ٩ من مارس سنة ١٩١٤ .
(٤٠) المرجع السابق في ٢٣ من مارس سنة ١٩١٤ .
(٤١) عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص١١٥ .

دواعي القلق من جـــراء الانطلاق الفكري والادبي الـذي يشـــيع في وجداناتهم وعقولهم[٤٢] •

ويقول العقاد في وصف هذه الفترة وما اتسمت به ، ويبين أثرهـا في نفسه وأنفس صديقيه : « وأخال انها شملتنا جميعا بمحنة العقل الاليمة فنفضها شكري عنه بقصائده العابسة في ديوانه الثالث والرابع ، ونفضتها عني بقصيدتي التي نظمتها على نمط الملاحم ، وسميتها بترجمة شيطان ، وراضها المازني كما راضته فاستراح اليها غايـة ما استـطاع من راحته ، وعالجها يومئذ ـ ولم يزل يعالجها بعد ذلك ـ بنزعة الاستخفاف وقلـة الاكتراث »[٤٣] •

ومعنى هذا أن هؤلاء الشعراء ، وان اتفقت نشأتهم في أسرهم الى حد ما بوصفهم من الطبقة الوسطى وتقاربت أعمارهم الى حد ما أيضا[٤٤] واتفقت كذلك معرفتهم ومنابع الثقافة التي رفدتهم •• ان اتفقوا في هـذه الامور كل الاتفاق أو بعضه ، فان هذه الفترة ـ كما يقول العقاد ـ كان لها أثر كبير في اختلاف طبائعهم وأمزجتهم الى حد ما •

وليس أدل على ذلك من أننا بينما نجد العقاد في طبعه حدة وصلابة ، وقوة وعنفا ، وعدم مبالاة بالجمهور ، نجـد ان شكرى منطو على نفسه ، في خلقه لين ورقـة وانزواء • أما المازنى فيتفق مع العقاد في عـدم المبالاة بالجمهور ولكن من طريق آخر هو طريق الدهاء والمكر والسياسة التي جعلته أحيانا لا يعترف بشاعريته ، ويقول دائما لشانئيه حسبى من الادب ما كتبته من المقالات •

والدارس لموقف هذه المدرسة من القدماء واختلاف دعاتها فيما بينهم من حيث الطبائع والامزجة ونظرتهم للحياة ، يرى انـه يشتبه الى حد ما

---

(٤٢) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص١١٥ •

(٤٣) عباس العقاد : بعد الاعاصير ص١٤٥ •

(٤٤) ولـد عبدالرحمن شـكري في ١٢ من اكتوبر عـام ١٨٨٦ ، والعقاد في ٢٨ من يونيه سنة ١٨٨٩ ، والمازني في ١٩ من أغسطس سـنة ١٨٩٠ •

بموقف شعراء مدرسة البحيرة في الادب الانجليزي ـ س•ت• كوليردج S.T. Coleridge ووليـام ورد زورث W. Wordsworth وروبرت براونج Robert Browning وموقفهم ممن سبقهم أو عاصرهم من الشعراء ، أو النقاد ، وان اختلف كل منهم عن الاخر في بعض الاتجاهات في شعرهم، فصداقتهم كانت تقوم على التحالف والتضاد •• التحالف في أنهم يتفقون على الاصول الرئيسية في الشعر ، وأما التضاد فانه يوجد في تقسيم الشعر فيما بينهـم ، لان « ورد زورث » أفاض ضـوءا على الحياة الحقيقيـة على الاشياء العاديـة والناس ، كمـا ان « كوليردج » قد اتخـذ غير الطبيعـي والاحساس الغريب ميدانا له ، وكانت فكرته تتمثل في أن يبلور الاهتمام البشرى بالموضوعات الخياليـــة • أما « براوننج » فاتخذ لنفسـه اسلوبا مستقلا ، فاتسمت الفاظه بغرابة الوقع في الاذن ، وقوافيه بجريانها على غير المألوف ، وجعله بالاقتضاب والتقطع ، واصطبغت أشعاره بصبغـة واقعية ، غير انها كانت تعد لازمة من لوازمه الشخصية (٤٥) •

على أن اقتسام شعراء البحيرة ميدان الشعر فيما بينهم لا يعنى أنهم لم يستفيدوا بعضهم مـن بعض ، ذلك لانهم كانـوا يبحثون المبادىء النقدية والانتاج الذهنى ، ويحاول كل منهم أن يخلق من أخيه شاعرا صادقا في تعبيره ، وفي الوقت نفسه يصدر شعره عن شحذ لافكاره (٤٦) •

وعلى أية حال فاننا نقول أنــه بالرغم مما بين مدرسة الجيل الجديد ومدرسة شـعراء البحيرة مـن أوجه الشبه بالنسبة لموقفهم مـن القدماء ، وموقف بعضهم من بعض ، فاننا نرى ان ما أحدثته فترة التحول الفكرى والادبى في نفوسهم كان سببا في اختلاف طبائعهم وتباين أمزجتهم ، وكان

(٤٥ ، ٤٦) راجع : *A Short History of English Literature*. By: Emile Legouis P. 281 etc.

وكذا : *Wordsworth Poetry and Prose Introduction* By: D.N. Smith, P. 4.

وكذلك : موجز تاريـخ الادب الانكليزي الاميـل لوغويز : ترجمة الدكتورين شوقي السكري وعبدالله عبدالحافظ ص٨١ •

له أثر بعيد المدى في علاقاتهم بعضهم البعض ، ومن هنا يسوغ لنــا ان نرجع أسباب الجفوة التي حدثت بين المازني وشكرى الى طبيعة مزاج كل منهما [٤٧] .

٣ ـ خصومة المازني وشكري :

ولقد شاء القدر لهذه المدرسة أن تتصدع العلاقة بين أفرادها ، بحيث نرى الخصومة تدب بين المازني وشكرى ، ويقف العقاد بينهما حائرا لا يدرى ماذا يصنع ، ولا من أين يكون منفرج الطريق .

وقد نشبت تلك الخصومة من اختلاف طبائعهما وتباين أمزجتهما كما أشرنا الى ذلك ، اذ أن طبيعة شكرى قد سولت له أن يبدى سرقات المازنى من الادب الانجليزى ، لانه رجل متقزز الاعصاب متوفزها ، يقيمه النقد ويقعده مهما كان مصدره ، لانه يخشى أن يكون النقد مبررا لمروجى الشائعات والتهم الذين كانوا يناصبونه وذعاة المذهب الجديد العداء .

والدارس لهذه المدرسة يرى أن شكرى قد استفز المازنى اولا ، لانه لم يقتصر على النقد ، بل كثيرا ما غمزه ، ولم يستنكف أن يصيبه في رزقه ، اذ نبه الى مقالات كتبها المازنى بامضاء مستعار ضد نواظر المعارف آنذاك (حشمت باشا) حين كان المازنى يعمل مدرسا بالوزارة ، ولم ننج المازنى من هذا التشهير الذى أتى من مأمنه [٤٨] .

وقد أكد لنا الاستاذ على أدهم ـ تلميذ شكرى ـ أن شكرى في تنبيهه على سرقات المازنى لم يكن مخلصا كما يدعى حينما يزعم انه لا يتأثر من رؤية العفريت ، كما يتأثر من رؤية هذه السرقات ، لان الاستاذ أدهم قد حدثه عن قصيدة « فتى في سباق الموت » للشاعر « هود » التى سرقها المازنى ، فأغضى عن تنبيه أدهم له ، لان المازنى في ذلك الوقت كان يكتب عن شكرى في عامى ١٩١٣ ، ١٩١٤ في صحيفة «عكاظ» ويجعله محور التجديد ، والمبشر بالمذهب الادبى الجديد ، فلما وقع الخلاف بينه

---

(٤٧) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص١١٦ ، ١١٧ .

(٤٨) راجع : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد ص٧٧ وما بعدها.

وبين المازني ، ذكر له هذه السرقات ، ولم تكن من باب المفاجأة كما يدعي في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه (٤٩) .

وبعد أن يعدد شكري في هـذه المقدمة ما ظن أن المازني قد سرقه ، ينتهي الى قوله : « ولا أظن أحدا يجهل مدحي المازني ، وايثاري ايـاه ، واهدائي الجزء الثالث من ديواني اليـه ، وصداقتي له ، ولكن كل هـذا لا يمنع من اظهار ما أظهرت ومعاتبته في عملـه ، لان الشاعر مأخوذ الى الابد بكل ما صنع في ماضيه ، حتى يداوي ما فعـل ، ويرد كل شيء الى أصله ، وليس الاطلاع قاصرا على رجل دون رجل حتى يأمل المرء عدم ظهور هذه الاشياء ، ولسنا في قرية من النمل حتى تخفى (٥٠) .

والذي يتضـح مما سبق أن حديث شـكري عن مدحـه للمازني واهدائه للجزء الثالث من ديوانه اليه ما هو الا دليل واضح على سوء نيته تجاه المازني ، مهما يسرف تلميذ شكري(٥١) في تبرير نقـــد استاذه للمازني ، بأنـــه لم يكن الا ردا عـلى انتقاص المازني من شـعر استاذه شكري ، ونسبة بعضه الى شعراء الغرب .

نقول ذلك ولا نصدق تبرير تلميذ شكري لسبب واحد يشتمل على جميـع الاسباب التي تؤيـد وجهة نظرنـا ، ويتمثل ذلك السـبب في أن المازني كان يعتبر شعر شكري مبشرا بالمذهب الادبي الجديد ، وقد نشر سلسلة مـن المقالات في جريدة « عكاظ » عقـد فيها موازنة بين شاعرية شكري وحافظ ، ذهب في هذه الموازنة الى أن حافظا اذا قيس الى شكري لكان كالبركة الآجنة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وذلك في عامي ١٩١٣، ١٩١٤ ، ومـن ثم لم يكن من المعقول أن يتغـير رأي المازني في شاعرية شكري الى هذا الحد ، ولا سيما أن ما نقل عن المازني من انتقاص لشعر

---

(٤٩) من حديث خاص مع الاستاذ علي أدهم في ٤ من يوليه سنة ١٩٦٣ في بيته .

(٥٠ ، ٥١) عبدالرحمن شكري في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ص٣٧٣ وما بعدها ط ١٩٦٠ .

شكرى لم ينشر منه شيء ، بل ان المازنى نفى أنه رمى شعر شكرى بالسرقة ، ووصف عمله هذا! بأنه عنت ظاهر يرينا مبلغ فهمه وعدله [٥٢].

وماذا ينتظر القارىء من المازني أزاء النقد الجارح والاستفزاز القائم على سوء نية زميله وصديقه شكرى ؟ أيقف مكتوف اليدين ؟ أم ماذا يصنع ؟ .

وهنا نجيب على هذا التساؤل مبينين أن المازني رد على شكري بمقالة ينقد فيها شكر شكري نشرت في جريدة « النظام » ، وأجابه شكري بمقالة نشرت في الجريدة نفسها [٥٤] .

على أن المازني أبدى وجهة نظره في دعوى السرقة مدعيا أنه كان يجب أن يغض عن هذه التهم اكتفاء باظهار الجزء الثانى من ديوانه ، فانه وحده خير رد على ما رمى به ، ولكن الضجة التى قامت حول هذا الموضوع والشماتة الحقيرة التي لم يخفها قتلى المذهب العتيق ، لا تجعلان السكوت من الحزامة في شيء ، ولقد كان من الانصاف ألا يلام غيره ، اذا ما صح النسب اليه ، ولكن الناس تجاوزوه الى غيره ، واتهموا سواه قياسا عليه [٥٥] .

وهذه الضجة المرتبة المبيتة لم تكن مقصورة على الجزء الاول من ديوان المازنى الذي طبع فقد ، ولكنها تجاوزته الى شعر لم ينشره بعد ، وظهر في الديوان الثانى الذى صدر بعد هذه الضجة الخرقاء ، ومن هنا يعجب المازنى كيف يستحل شانئوه لانفسهم أن يجزموا أنه اذا طبع الجزء الثاني لا محالة منتحل هذه القصائد ؟ وهى « الراعى المعبود » و « الوردة

(٥٢) هو الاستاذ نيقولا يوسف في مقدمة ديوان شكري ص٥ ط ١٩٦٠ .

(٥٣) ديوان المازني مقدمة الجزء الثاني ص١١٩ ، ١٢٠ ط المجلس الاعلى للفنون والاداب .

(٥٤) راجع : « العقاد يتحدث عن النقد والنقاد » لعبدالحي دياب في مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٦٢ .

(٥٥) مقدمة الجزء الثاني من ديوان المازني ص١٢٠ .

الرسول » و « الغزال الاعمى » و « اكليل الشوك » وخمسة أبيات من قصيدة « الشاعر المحتضر » وكلها منشورة في الجزء الثاني من ديوانه منسوبة الى أصحابها . ثم يختم المازني مقدمته بقوله : « ولئن كان ما أخذ علينا دليلا على شيء ، فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا اخواننا جميعا . هذا ولا يسعنا الا أن نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا الى مآخذ شعرنا والسلام (٥٦) .

على أن شكر المازني لشكرى لم يكن باعثا لان يرجع عن غيه ويقلع عن استفزازه لصاحبه ، لانه كتب بعد ذلك مقالة نشرها في مجلة « المقتطف » (٥٧) حول هذا الموضوع ، ذهب فيها الى أن الاطلاع على الآداب الغربية كان معدودا من الجرائم والتهم في أعين الادباء ، لانه مظنة السرقة ، وذلك لان بعض الشبان لا يدين بدين الملكية في الادب والعقول مثل التربة تحتاج الى أن تتعهد بما يظهر خصبها . ثم أخذ يعدد ما سبق أن تحدث عنه في أماكن متفرقة ، من سرقات المازني ، ولم يكتف شكرى باستفزازه للمازنى ، ولكنه أضاف اليه العقاد ، وأخذ ينقد شعرهما معا في سلسلة من المقالات نشرت في «عكاظ» في عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ وكان يوقعها بامضاء « ناقد » . وقد أكد الاستاذ علي أدهم أن هذا الناقد هو عبدالرحمن شكرى ، بل انه يزيد المسألة تأكيدا فوق تأكيد حينما يذهب الى أن شكرى كان ينقد الشيخ فهيم قنديل نقودا لاجل أن ينشر له هذه المقالات ، وأنه كثيرا ما رآه في هذه الفترة مصطحبا الشيخ فهيم ، وذلك لان الشيخ فهيم قد وقع بينه وبين العقاد والمازني سوء تفاهم أدى الى مقاطعتهما الكتابة في صحيفته بعد أن كانت قائمة على أبحاثهما .

ومن ثم دخلت الخصومة طورا جديداً وهو طور الرد . على استفزاز شكرى المتكرر للمازنى والعقاد ، وكان الرد من جانب المازنى فقط ،

---

(٥٦) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٥٧) راجع : مجلة (المقتطف) عدد يناير سنة ١٩١٧ .

بينما وقف العقاد أزاء هذه المعركة حيران صامتا [٥٨] .

لم يشأ المازني أن يسكت على استفزاز شكرى المتكرر وتواطؤه مع صاحب « عكاظ » الذى كان يدلى بدلوه في هذه المعركة بالتعقيب الذي يم على بذاءة لسانه المعهودة فيه ، والتي لا يستغربها القراء اذا ما أتيحت لهم الفرصة لقراءة تعقيباته أو مقالاته[٥٩] . لم يشأ المازني حيئذ الا أن ينتهز فرصة سفر العقاد الى أسوان للاستشفاء من مرض الصدر الذي داهمه في ذلك الحين ، فكتب المازني ما كتب بعيدا عن العقاد الذي ترك له كتاب « الديوان في الادب والنقد » في المطبعة تحت رقابة المازني ، وكان العقاد ممسكا بزمام المازني طيلة ست سنوات منذ هاجمه شكرى ، فكان العقاد لا يسمح للمازني بمهاجمة شكرى لتشاؤمه وانطوائه ونفوره من الناس [٦٠] .

ومعنى هذا أن سفر العقاد قد أتاح الفرصة للمازني لكى يشفى ما في نفسه بنقد شكرى في كتاب « الديوان في الادب والنقد » وكانت لهجته في نقده لشكرى عنيفة يتخللها اتهام لشكرى بالجنون والخرس والادعاء والبكم والحقد ، وانه منكود ومائق الى آخره [٦١] .

وبعد ذلك يطير صواب شكرى ، ويتهم صديقيه اتهامات تتمثل في المنزلة الوضيعة والعرض المستباح ، وأنهما خنازير الانسانية وغير ذلك من الاتهامات التى نربأ بأنفسنا وبالقراء من تدوينها ، وان كانت [٦٢] قد نشرت في صحيفة « عكاظ » فلأنها صحيفة كانت لا تمثل قيما ، وبالاضافة الى ذلك فان العصر الذي نعيشه الآن لا يسمح بنشر تلك الترهات

---

(٥٨) راجع : مجلة « المقتطف » عدد يناير ١٩١٧ .

(٥٩) علي أدهم : في مجلة « المجلة » فبراير ١٩٥٩ ، وحديث خاص معه في ٤ منيوليه سنة ١٩٦٤ .

(٦٠) من حديث خاص مع العقاد .

(٦١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص١٢٣ .

(٦٢) نشرت في عام ١٩٢٠ في الاعداد ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ وغيرها .

والسخافات التى كانت تنشر في الماضى .

والدارس لهذه القضية يرى أن بعض الكتاب رأوا أن الفرصة سانحة لتوسيع شقة الخلاف ، والقضاء على هذه المدرسة في أشخاص أصحابها ، فوقفوا ظلما في جانب شكري ، واتهموا المازني بالتحامل عليه والظلم له(٦٣) . كما اتهم العقاد(٦٤) نفر آخر بأنه كان سبب الخلاف والذي بذر بذور الفتنة بين المازني وشكري ، ثم وقف بعد ذلك موقف الحياد الذميم .

وفي تصورنا أن هؤلاء الكتاب لو وقفوا على حقيقة الامر ، كما صورناها ، لعرفوا أن المازني كان معذورا في نقده لشكري ، لان شكري هو الذي أساء الى المازني أولا ، واستمرت اساءاته تتكرر وتتكرر حتى استثارت المازني ، وهو رجل متطرف لا يلزم الوسط ، ان رضى أو غضب ، على حد تعبير العقاد(٦٥) .

ولعرفوا كذلك أن العقاد كان سمحا مع شكري ، بالرغم من توقح شكري فيما كتبه عنه ، ووصفه له بالنشأة الوضيعة الى آخر ما تفتقت عنه نفس شكري من أوصاف لا يسكت عنها انسان عادي فضلا عن العقاد الحساس(٦٦) .

وفي رأينا أن العقاد لم يسكت عن الرد على شكري خوفا ، وانما دفعه الى ذلك خوفه من تبديد شمل الجماعة التي قامت لارساء قيم في الادب والفن يحتاج اليها الوطن أيما احتياج(٦٧) .

ومن ناحية أخرى كان سكوته خوفا من فرحة صرعى المذهب القديم ، ومن ثم لم يطب نفسا لتلك الجفوة التي حدثت بين صاحبيه فجمعهما ورأب الصدع وعاهدهما على أن يكفأ ، فرضيا حكمه ، وكتب

---

(٦٣) من هؤلاء مصطفى السحرتي في كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص١٥٧ .

(٦٤) من هؤلاء محمود الخولي : في مجلة « أبولو » يونيه ١٩٣٤ .

(٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ، للمؤلف ص١٢٣ ، ١٢٤ .

العقاد يومئذ مقالة في « الافكار » وصف ما جرى بينهما بأنه مصارعة أصدقاء ، لا مقاتلة أعداء ، وانقشعت السحابة وعادت سماؤهما صفوا[٦٨].

وقد وصف العقاد هذه الجفوة بين صديقيه وموقفه بينهما في رثائه لشكري بقوله[٦٩] :

أبذل الخلد وأفدى بالمدى	ساعة أشقى بها قلبين صدا
ساعة يذهب فيها غضب	بين صنوين طغى ثم استبدا
نفرا وا أسفي بينهما نفرة	ما عرفت في القلب حقدا
لم يكونا بالعدوين ولا حملا	ضغن عدوين استعدا
أيسر العتب شديد بين من	ألفوا الصحبة كالاملاك ودا
غضبا فافترقا فاسترسلت	فرقة الموطن هجرانا وبعدا
أنا أدري ما انطوى بينهما	من رضى أصفى من الطل وأندى
فيم كان البعد فيم اختلفا	فيم كان الهجر امعانا وشدا
أفلا كان لقاء بيننا	قبل أن يفترقا لحدا ولحدا

* * *

وبجانب ذلك أحس المازني باحساس الفنان أنه كان عنيفا في نقده لكل من حافظ وشكري ، فندم على أنه استخدم العنف في نقده ، ووصفه بأنه كان فورة شباب ، فكتب بعد أن تقدمت به السن ، وصالح الحياة على ما هي عليه ، مقالا في جريدة السياسة لارضاء شكري وتطييب خاطره ولا سيما أنه زميله الذي قضى معه عهد الشباب ، والثائر معه على القيم الادبية البالية ، وكان هذا المقال تحت عنوان : « التجديد في الادب العصري » ، حيث جاء فيه « وقل من يذكر الان شكري حين يذكر الادب ويعد الادباء ، ولكنه على هذا رجل لا تخالجني ذرة من الشك في أن الزمن لابد منصفه ، وان كان عصره قد أخمله ، ولقد غبر زمن كان فيه

(٦٨) راجع : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد ص٧٧ .

(٦٩) راجع : جريدة الاخبار الصادرة في ١٨ من ديسمبر سنة ١٩٥٨ العدد ٢٠١٠ .

شكري محور النزاع بين القديم والجديد ، ذلك أنه كان في طليعة المجددين ، اذا لم يكن هو الطليعة والسابق الى هذا الفضل »[٧٠] .

والمتتبع للمحاولات التي بذلها المازني ليرضى بها شكري يجد أن هذه المقالة لم تكن هي المقالة الوحيدة التي كتبها المازني يترضى بها شكري ، بل انه كتب في نفس الجريدة ، وفي الاسبوع التالى للمقالة الاولى مقالة فحواها أن شكري قد احتمل وحده في أول الامر وعكة المعركة بين القديم والجديد ، وأنه رجل حساس رقيق الشعور ، سريع التأثر ، وميال بطبعه الى اليأس ، فشق عليه أن يظل يدأب وليس له من يعنى به ، وأن يقضى خير عمره يرفع صوته بأعمق ما تضطرب به النفس الملهمة الفياضة الحساسة ، وليس له من يستمع اليه ، أو يعيره لفتة[٧١] .

ومهما يكن من أمر ذلك التقدير الذي فاضت به كلمات المازني ، فان شكري كان لا يزال غاضبا ، ومن هنا لم يطب المازني نفسا لذلك ، ولا سيما أنه رأى بعض الكتاب لا زال يعمل على توسيع شقة الخلاف كرمزي مفتاح وغيره من الذين كانوا يناصرون شكري ، لا خدمة لقضية أدبية ، بل بغية توسيع شقة الخلاف ، وتفريق الشمل ، وتشتيت جهود العمالقة الثلاثة[٧٢] .

حينما رأى المازني ذلك فما كان منه الا أن كتب مقالة ثالثة في أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ يعتذر فيها عما بدر منه ، ويعلن فضل شكري ، وتوجيهه له ، وتأثيره فيه ، وأنه لولا عون شكري المستمر للمازني لتخبط أعواما أخرى ، وكان من المحتمل أن يضل طريق الهدى[٧٣] .

---

(٧٠) راجع : « السياسة » الصادرة في ٥ من أبريل سنة ١٩٣٠ .
(٧١) المرجع السابق في ١٢ من أبريل سنة ١٩٣٠ .
(٧٢ ، ٧٣) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

٤ ـ أستاذية شكري :

على أن الدارس يرى أن لمقالات المازني التي يترضى بها شكري أثرا وخيم العاقبة بالنسبة لمدرسة الجيل الجديد ، اذ ذهب كثير من النقاد في ذلك الوقت الى أن شكري هو الاستاذ لهذه المدرسة ، واستندوا في ذلك الى مقالات المازني ، مما جعل العقاد يفزع الى جريدة الجهاد وينشر مقالة في ٤ من سبتمبر سنة **١٩٣٤** عقب نشر مقالة المازني الاخيرة بثلاثة أيام ، وأعلن في هذه المقالة أنه لم يتأثر بأحد ، وليس لانسان عليه فضل وليس تلميذا لاي مخلوق(٧٤) .

وبطبيعة الحال اعتبر شكري أن العقاد يعرض به ، فكتب مقالة على الاثر في صحيفة « البلاغ » بتاريخ ٦ من سبتمبر **١٩٣٤** ، وعلق فيها على مقالتي العقاد والمازني مدعيا أنه لم يقل لاحد أنه أنشأ مذهبا جديدا في الادب ، أو أنه استاذ لاحد ، ويؤكد في الوقت نفسه أنه ليس بينه وبين العقاد والمازني تنافس على شهرة أو حرفة أو رزق ، ولا يحمل لاحدهما ضغينة ، كما أنه لم يحرض أحدا على نقد العقاد ، أو على اتهامه بالاخذ منه ، بل كان دائما ينفي ذلك كما يشهد بذلك خصوم العقاد أنفسهم(٧٥) .

ومن ناحية أخرى عاد شكري الى هذا الموضوع بالكتابة فكتب في جريدة « المقطم » مقالة بتاريخ ١٢ من سبتمبر **١٩٣٤** تحت عنوان « الشهرة والخلود » كرر فيها ما قاله في مقالته الاولى .

ومهما يكن من أمر فان العقاد قد أكد لنا أن المازني قد زار مدينة الفيوم وشكري ناظرا لمدرستها ، فلم يحسن لديه أن يقضي بالمدينة ساعات دون أن يقصد اليه ليلقاه ، فلم يجده بالمدرسة ، وقيل لشكري أن المازني عاد الى القاهرة ، وقد وقر في نفسه أنك قد تعمدت الاختفاء منه ، وذلك لبقية في نفسك من العتب عليه بعد ما كان بينكما من النقد

---

(٧٤) راجع : مقدمة ديوان شكري لنيقولا يوسف ص٩ ط ١٩٦٠ .

(٧٥) نيقولا يوسف في مقدمة ديوان شكري ص٩ .

والملاحاة ، فنظم شكري قصيدته الدالية التي خاطب بها المازني فقال

رحيق الحيـــاة الود لو دام صافيـــا
وكالراح أحـــلاه المعتق ذو العهـــد
وأحسنه ما كـــان من عصـــرة الصبـــا
ولم يحل بعـــد الشيب مستحدث الود
رأيت الصبا ودا ، وود الصبـــا صبـــا
كيانهمـــا المزوج كالجوهر الفـــرد

ثم علق العقاد على هذه القصيدة بقوله : انها من أبلغ ما نظم شكري ومن أبلغ الشعر العربي في جميع عهوده[٧٦] .

على أن نيقولا يوسف يؤكد في مقدمـة ديوان شكري أن شكري قد زار القاهرة في عام ١٩٤٤ ، وانتهز الفرصـة فزار صديقـه القديـم المازني في دار جريدة « البلاغ » كما زار العقاد ، ولم يعـد يذكر هـذا الموضوع أو يتحدث عنه .

وقد عادت للمازني طبيعته السمحة وهو يتحدث عن ذكرياتـــه في جريدة « أخبار اليوم » بتاريخ ١٩٤٧/١٠/٢٥ (أي قبل وفاته بعامين) معلنا أن شكري بالرغم من أنه كان زميله فانه كان استاذه ، وكان موجهه الذي تولاه برعايته .

وعلى أية حال فان هذه الخصومـة بين شكري والمازني قـد بالـغ الناس في نتائجها ، وذهبوا فيها مذاهب شتى[٧٧] ، فمن قائل : انها كانت سببا في انزواء شكري وتحطيم قلمه[٧٨] ، ومنهم من أخذ جانب شكري

---

(٧٦) من حديث خاص مع الاستاذ العقاد ، وراجع كذلك «الاخبار» الصادرة في ٢٢ من ديسمبر ١٩٥٨ .

(٧٧) محمود الخولي في مجلة « أبولو » عـددي أبريل ويونيه من سنة ١٩٣٤ .

(٧٨) رمزي مفتـــاح في سلسلة مقالات جمعها في كتـــاب سمـــاه « رسائل النقد » وعمر الدسوقي في « دراسات أدبية » ص٢٣٥ ومـــا بعدهـــا .

وتحيز له وحاد عن الصواب[٧٩] ، ومنهم من اعتبر المازني متحاملا على شكري ، وظالما له غاية الظلم .

ومهما يكن من أمر فان الدارس لا يسلم بهذه الاراء ، لانها لم تقم على أساس علمي ، ومن ثم فانها تحتاج - من وجهة نظرنا - الى نقاش طويل ، من شأنه أن يضع الحقيقة في نصابها ، ويبرزها في وضوح وجلاء .

فمن ناحية الاستاذية لم يستند دعاتها في اثباتها الا الى مقالات المازني في هذا الشأن ، دون أن يعرفوا طبيعة المازني السمحة ، التي أبت أن يظل شكري غاضبا ، ولذا فان المازني كتب ما كتب ليزيل من نفس شكري ما علق بها من غضب وحنق عليه من جراء ما كتب عنه في كتاب « الديوان في الادب والنقد » من نقد لم يتحمله بسهولة شكري المتطير الحساس - وذلك بالرغم من أن شكري هو المعتدي لا المازني كما بينا سابقا - ومن هنا حاول المازني ارضاء شكري ، وصنع ما صنع[٨٠] .

واذن فالمازني رجل جم التواضع ، ينكر نفسه في سبيل صاحبه ، نحس ذلك في جلاء ووضوح من المقدمة التي كتبها لديوان العقاد ، والتي جاء فيها :

« وبعد ، فهل يصلح هذا الكلام أن يكون مقدمة لهذا الديوان ؟ لا أدري .. وليس ذنبي ألا يكون كذلك ، فقد أردت شيئا وأراد العقاد خلافه ، وكان العزم أن أقول غير ما قلت ، وأن آخذ في نهج غير هذا النهج ، فأبى علي ما هممت به ، وردني عما شرعت فيه ، وركب رأسه وأصر على أن أعدل ، فاذا كان فيما كتبت قصورا ، أو تقصيرا فالذنب له وحده دوني ، وما كنت أبغي الا أن أقول كلمة حق أبرىء بها ذمتي ، وأنصفه حتى من نفسي فأباها علي ، واستنكرها مني كبرا أو تواضعا

---

(٧٩) مصطفى السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٥٧ وما بعدها .

(٨٠) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

أو حياء أو مجاملة لا أدري • وحسنا فعل أو شرا فعل •• فما بالعقاد من حاجة الى انصاف مني أو من سواي »[٨١] •

والذي علمته عن المقدمة التي أباها العقاد ، أنها كانت تتضمن الاشادة بشاعرية العقاد ، واتهام لشاعرية المازني وشعره ، وأطرى العقاد اطراء جعل العقاد يقدم على رفض تلك المقدمة حياء منه وتواضعا ، ويشير عليه بكتابة غيرها ، وهي التي تتصدر الديوان ، ولكن المازني مع ذلك لم ينس أن يشير فيها أيضا الى المقدمة الاولى ، ويثبت عدم ارتياحه لذلك الرفض[٨٢] •

ويحدثنا صاحب مكتبة « الانجلو » المصرية عن المازني بأنه كان يمر عليه كل اسبوع على مكتبته ليسأله عن الكتب التي اشتراها العقاد طيلة الاسبوع فيشتريها المازني بالتالى[٨٣] ، وذلك ان دل على شيء فانما يدل على ثقة المازني في العقاد من ناحية ، وعلى حسن اختيار العقاد للكتب التي يصح أن يقرأها من ناحية أخرى •

ويتضح مما سبق أن المازني في حديثه عن شكري والعقاد يتناسى نفسه ، حيث يجعل من أحدهما استاذا عليه ، ويجعل شاعرية الاخر أنها ستودي بقيمة شاعريته وشعره ، وذلك في الوقت الذي لا يقل ـ من وجهة نظرنا ـ المازني عنهما جهدا أو جهادا في سبيل ارساء هذه المدرسة وان كان طابعه السخرية ، وعدم الاكتراث بالخلود والشهرة ، وشأنه في ذلك شأن الفنان الواثق من نفسه وفنه • ولعل المازني يقصد من الاستاذية السبق الزمني لشكري عليه في ميدان الانتاج الادبي ، لانه طبع الجزء الاول من ديوانه في عام ١٩٠٩ ، واعتبره المازني هو و « يوميات العقاد » بداية اقتحام المذهب الجديد في الادب ، وفاتحة

---

(٨١) راجع مقدمة ديوان العقاد للمازني ص٦ •

(٨٢) من حديث خاص مع العقاد •

(٨٣) من حديث خاص مع الاستاذ صبحي جريس صاحب ومدير القسم الاوربي بمكتبة « الانجلو » •

الصراع بينه وبين المذهب القديم[٨٤] •

أما الخصومة بين المازني وشكري فاننا نعتقد أنها لم تكن سببا في انزواء شكري وتحطيم قلمه ، لانه اعتدى أولا ، فكان لابد أن يكال له بالكيل الذي كان به للمازني تطبيقا للنظرية القائلة « كما تدين تدان » • ولانه من ناحية أخرى ليس من السهل ـ كما يقول الاستاذ علي أدهم ـ على المازني أن يسكت على تشهير شكري به ، لان ما كتبه شكري في نقد كل من المازني والعقاد ، لم يكن من المستوى اللائق بأدبه العالي وثقافته الممتازة ، وواضح أن المازني في كتابته أراد أن يثأر لنفسه ، بعد أن احتمل الكثير من استرسال شكري في نقده على صفحات « عكاظ » ولذلك لم يكن من المنتظر أن يكون نقد المازني لشكري نقدا موضوعيا قوامه البحث الهادىء ، والتحليل الدقيق وتحري الانصاف ، ونشدان الحقيقة[٨٥] •

وعلى الرغم من ذلك كله فانهما قد تبادلا التقدير لبعضهما البعض منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٤٧ (أي قبل وفاة المازني بعامين) عن طريق المقالات التي أشرنا اليها سلفا ، وزار المازني شكري في الفيوم ، وزاره شكري في القاهرة في عام ١٩٤٤ •

ومن ثم يسوغ لنا أن نقول أن القول بأن للخصومة أثرا سيئا ، كان من نتيجته انزواء شكري وتحطيم قلمه ، قول يعوزه الدليل ، ولا يستند الا على أهواء أصحابه قبل أن يستند على عقولهم • وليس أدل على ذلك من أن الاستاذ نيقولا يوسف[٨٦] تلميذ شكري قد رفضه اصالة ، لانه لا يرتكز على أدلة علمية صحيحة •

ويرى الدارس أنه لم يبق من مبالغات الدارسين في هذه القضية سوى ظلم المازني لشكري ، ولعلنا بعد أن وقفنا على حقيقة هذه القضية

---

(٨٤) راجع : أخبار اليوم الصادرة في ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٧
(٨٥) راجع : «المجلة» الصادرة في عدد فبراير ١٩٥٩ •
(٨٦) راجع : مقدمة ديوان شكري للاستاذ نيقولا يوسف ص٩ •

وتطورها ، وما انتهت اليه ، نستطيع أن نرجح عدم ظلم المازني لشكري، لان شكري لـم يكن الا مسـتثيرا للمازني في بادىء الامر وطوال فترة الخصومة التي بلغت قرابة سبعة عشر عاما ، حتى تبادلا التقدير لبعضهما البعض في مقالاتهما التي سبق أن أشرنا اليها ٠

وخلاصة الخلاصات في هذا الصدد أن المعركة بينهما كان البادىء فيها شكري باثارة غبارها وايقاد نيرانها ، وقد حورب فيها بذلك السلاح الذي شهره ، وكيل له بالكيل الذي كال به ٠ ومن هنا لم يكن من حقه كانسان سَوِي أن يشعر فيها بظلم وقع عليـه في الوقت الذي كـان هو البادىء بالمنازلة والمقارعة ، ولذا فانها لم تكن تكن سببا في انطوائية شكري وعزلته ، ولكن يرجع ذلك الى دخيلة نفس شكري وارادته وعزمـه وتشاؤمه بمزاجه لا بتفكيره ٠

* * *

الفصل الرابع

معالم المدرسة الثوريه

١ ـ موقف العقاد من مقومات المدرسة :

ويقودنا الانصاف قبل أن نتحدث عن معالم مدرسة الجيل الجديد أن نتحدث عن موقف عباس العقاد في هذه المدرسة ، اذ أنه يعد بحق ـ من وجهة نظرنا ـ أمام هذه المدرسة ، وذلك لانه بالرغم من أن صاحبيه قد شاركاه في المعارك التي نشبت بينهم وبين الشعراء المقلدين ، الذين كانوا يتبوأون منابر الادب ، من أجل تحقيق ذات قيم كل منهما ، وبالرغم من أنهما شاركاه في ارساء قيم هذه المدرسة على أسس علمية كما تبدو في دراسات المازني النقدية في الربع الاول من هذا القرن ، أو عملا على ارسائها بوساطة النماذج الشعرية التي تحمل في أطوائها هذه القيم الجديدة ، كما تتضح في شعر شكري منذ عام ١٩٠٩ حينما صدر الجزء الاول من ديوانه « ضوء الفجر » وتوالت بعد ذلك الاجزاء الاخرى من ديوانه[١] .

بالرغم من ذلك كله فان الدارس يقول : ان العقاد يعتبر امام هذه المدرسة لانهما قد انفض سامرهما منذ عام ١٩١٦ ، وانطوى شكري عن الانتاج النقدي ـ في الاغلب الاعم ـ الذي يحمل طابع المدرسة ، فلم يشارك في أول عمل علمي منظم وهو « الديوان في النقد والادب » ، ولم يصدر له من الدراسات النقدية الا النزر اليسير الذي كان ينشر عاطلا من التوقيع اللهم الا بالرموز التي تتضمن (ع.ش) . ولجأ المازني الى السخرية والتهكم ازاء المعارضات التي كانت توجه من دعاة المذهب

---

(١) راجع عباس العقاد ناقدا ص١٣١ .

القديم ، ولم يعرها التفاتا ، بل كان يسلم لشانئيه بمآخذهم على نقده وشعره ، ويدعي أن له ميدانا لا يقتحمه عليه أحد بمآخذ أو غيرها ، وهو ميدان الصحافة والمقالة والقصة ، وما صدر له بعد ذلك من دراسات نقدية ، انما كانت تقف عند منطلق المدرسة النقدي والفكري ، ليس فيه تطوير لفكرة ، أو نظرية ، أو ابتداع لمبدأ نقدي يحسب له في حساب الدراسة والتقويم(٢) ٠

وتأسيسا على هذا الفهم فان الدارس لا يجاوز الصواب حينما يزعم أن العقاد هو امام هذه المدرسة عندما نريد التعرف على امامها الذي يحمل لواءها ناقدا وشاعرا ، اذ واصل جهاده في ميدان النقد ، فعمق مفاهيم هذه المدرسة وقيمها(٣) ٠ ومضى يناوىء فلول دعاة القديم في النقد والادب من أجلها ، كما يتحدث عن نشأتها وعلاقتها بالاتجاهات التي كانت سائدة قبل نشأتها أو صاحبتها ، وأهدافها ٠

وفي هذا الصدد نرى أن العقاد ينفي أي تأثير حدث لدعاة مدرسة الجيل الجديد ـ من حيث اللغة والروح معا ـ من قبل شوقي وأضرابه من شعراء الجيل السابق عليهم ، بل ربما كان الاصح أن شوقيا تأثر بهم في أخريات أيامه الى أغراض من النظم تخالف أغراضه الاولى التي كان يعيبها عليه دعاة مدرسة الجيل الجديد ، فاتجه الى الروايات وأكثر من التاريخيات والاجتماعيات ، وعدل أو كاد عن شعر المناسبات الضيقة الذي كان ينحصر فيه وقلما يتعداه(٤) ٠

ويوضح العقاد أكثر حينما يبين ما أجمله في كلامه السابق ، ويوضح مصادره التي اطلع عليها من حيث التكوين اللغوي والروح ٠

ذلك أن العقاد وصاحبيه لم يتأثروا بشوقي من جانب اللغة أقل

---

(٢) راجع : عباس العقاد ناقدا ص١٣١ ٠

(٣) راجع : « هل عندنا مذاهب أدبية ؟ » للدكتور محمد غنيمي هلال في مجلة « الاداب » يناير سنة ١٩٦١ ٠

(٤) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص١٩١ ، ١٩٢ ٠

تأثر ، لم يتأثرو بشعر شوقي وأضرابه من الشعراء التقليديين ، لانهم كانوا يقرأون دواوين الاقدمين ويدرسونها ويعجبون بما يوافقهم من أساليبها ، ولذا فقد كان لكل شاعر منهم شاعر قديم أو أكثر من شاعر واحد يدمن قراءتهم ويفضلهم على غيرهم ، ولولا التوافق بين دعاة هذه المدرسة في المشرب لاتسعت بينهم الشقة أيما اتساع من جراء اختلافهم في تفاضل الاساليب العربية بين شعراء كالمتنبي والمعري وابن الرومي والشريف الرضى وابن حمديس الصقلي وابن زيدون ، ولكنهم كانوا لا يختلفون الا في الاداء والعبارة ، لانهم متفقون في ادراك معنى الشعر ومعايير نقده ، ولانهم كانوا يقرأون كل شاعر عربي وان فضل بعضهم واحدا يتعصب له على نظرائه(٥) .

وأما الروح فان العقاد يرى أن دعاة هذه المدرسة كانوا وليدي مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الادب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانكليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الادب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على ايغالها في قراءة الادباء والشعراء الانكليز ، لم تنس الالمان والطليان والروس والاسبان واليونان واللاتين الاقدمين(٦) .

وفيما يختص بمصدر الاستفادة لهذه المدرسة ـ يحدده العقاد لنا حينما يذهب الى « أن هذه المدرسة قد استفادت من النقد الانكليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الاخرى » ولا أخطىء اذا قلت أن « هازليت » هو امام هذه المدرسة في النقد ، لانه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون وأغراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد ، وقد كان الادباء المصريون الذين ظهروا أوائل القرن العشرين ، يعجبون «بهازليت» ويشيدون بذكره ويقرأونه ويعيدون قراءته يوم كان « هازليت » مهملا في وطنه مكروها من عامة قومه ، لانه كان يدعو الى غير ما يدعوه في

(٥) شعراء مصر وبيئاتهم ص١٩١ ، ١٩٢ .
(٦) نفس المرجع ص١٩٢ .

الادب والنقد والسياسة والوطنية ، فكان الادباء المصريون مبتدعين في الاعجاب به لا مقلدين ولا مسوقين ، وأعانهم على الاستقلال بالرأي عندما يقاربون الاداب الاجنبية أنهم قرأوا أدبهم قبل ذلك وفي أثناء ذلك فلم يدخلوا عالم الاداب الاجنبية مغمضين أو خلوا من الرأي والتمييز[٧] .

والمتتبع لهذه المدرسة يرى أن العقاد يدفع فكرة ربما تكون قد راودت بعض الدارسين ، وهي تقليد تلك المدرسة المصرية للادب الانكليزي ، فيذهب الى أن هذه المدرسة ليست مقلدة للادب الانكليزي ، ولكنها مستفيدة منه ، مهتدية على ضيائه ، ولها بعد ذلك رأيها في كل أديب من الانكليز ، كما تقدره هي ، لا كما يقدره الدارسون من الانكليز[٨] .

ويرى العقاد أن هذا هو المطلوب من الفائدة الادبية التي تستحق اسم الفائدة لانه لا جدوى هناك فيما يلغى الارادة ، ويشل التمييز ، ويبطل حق الاديب في الخطأ والصواب ، « وانما الفائدة الحق ، هي التي تهديك الى نفسك ، ثم تتركك لنفسه تهتدي بها وحدها كما تريد، ولأن تخطيء على هذا النمط خير لك من أن تصيب على نمط سواه »[٩] .

ويواصل العقاد حديثه عن العلاقة بين مدرسة الجيل الجديد ، والثقافة الانكليزية ، ومدى استفادتها من المدارس الغالبة على الفكر الانكليزي التي قرأوها ، وسرت من روح هذه المدارس الشيء الكثير الى العقاد وصديقيه .

ومن ثم يؤكد العقاد أن المدرسة التي كانت غالبة على الفكر الانكليزي بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، هي المدرسة التي كانت معروفة عندهم بمدرسة النبوءة والمجاز ، أو هي المدرسة التي تتألق بين نجومها أسماء كارليل ، وجون وستيوارت ميل ، وشيللي ، وبيرون ، وورد زورث ، ثم خلفتها مدرسة قريبة منها تجمع بين الواقعية

---

(٧) المرجع السابق ص١٩٢ ، ١٩٣ .

(٨ ، ٩) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص١٩٣ .

والمجازية ، وهي مدرسة براوننج ، وتنيسون ، وأمرسون ، ولونجفلوا ، وبو ، وويتمان ، وهاردي ، وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة[١٠] .

وعلى أية حال فان الدارس يرى أن العقاد يسلم بأن شيئا كثيرا قد سرى من روح هؤلاء الاعلام في الادب الانكليزي ، ولكنه كان سريان التشابه في المزاج واتجاه العصر كله ، ولم يكن تشابه التقليد والفناء ، أو هو سريان جاء من تشابه فهم رسالة الشعر والادب ، لا من تشابه فيما عدا ذلك من تفصيل[١١] .

والذي يبدو مما سبق أن العقاد ينفي أي تأثير للجيل الذي سبقه على مدرسته سواء كان هذا التأثير لغويا ، لانه وزملاءه كانوا يقرأون دواوين الاقدمين ، أم كان هذا التأثير من ناحية الروح والهوى ، « لان الجيل الناشيء بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الادب العربي الحديث » .

على أن العقاد يلح على هذه الفكرة حين يقول : « نحن اليوم غيرنا قبل عشرين سنة ، فقد تبوأ منابر الادب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضي ، نقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم ، فهم يشعرون شعور الشرقي ، ويتمثلون العالم كله كما يتمثله الغربي ، وهذا مزاج أول ما ظهر من ثمراته ، أن نزعت الاقلام الى الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر من القيود الصناعية ، هذا من جهة الاغراض والانساق .

« وأما من جهة الروح والهوى فلا يعسر على الندس[١٢] البصير أن يلمح مسحة القطوب للحياة في أسرة الشاعر العصري الحديث ، ويتفرس هذا القطوب حتى في الابتسامة المستكرهة التي تتردد أحيانا بين شفتيه »[١٣] .

---

(١٠) عباس العقاد :شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٣ .
(١١) نفس المرجع ص١٩٣ ، ١٩٤ .
(١٢) الندس : الفطن .
(١٣) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص٢٧٨ .

ويتساءل الدارس عن مضمون كلام العقاد ، ولكنـــه لا يلبث أن يجيب بما يفيد أن العقاد لا يرى أي تأثير للجيل الذي سبق ظهور مدرسته عليه وعلى زملائه ، لان مدرستهم قد تكونت بعيدا عن ذلك الجيل •

وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا الصدد وهو ألم يكن في الجيل الماضي على ظهور مدرسة الجيل الجديد ، من فطن الى التجديد في الادب أو النقد بالبداهة أو الدراسة ؟؟

وللاجابة على هذا التساؤل لا بد ان تستحضر في اذهاننا انه قد كانت هناك محاولات نقدية في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين تعد ارهاصا للتجديد في النقد ، ولا سيما محاولات خليل مطران النقديـة التي دعمتها تجاربه الشعرية الجديدة في مضمونها وصياغتها بحيث خرج كثير من هذه القصائد مشتملا على الوحدة العضوية التي هي أمل النقاد المحدثين ••

وعلى الرغم من هذا فان العقاد ينفي أن تكون مدرسته قـد تأثرت بمطران ، ولو عن طريق تنبيه الوعي الفني الى حقيقة الشعر ، لان مطران ـ من وجهة نظر العقاد ـ من المجددين لا ريب في ذلك ، ولكنه لا فضل له في تجديده ، لانه لم يكن يستطيع غيره •

والتجديد الذي للانسان فضل فيه ـ كما يرى العقاد ـ هو الـذي يقابل في الدعوة اليه العناء كل العناء ، لانه ينازع فيه موروثاته وعقباته ، ويتخذ له فيه طريقا غير الطريق المرسوم له من قبل وجوده[(١٤)] •

وتأسيسا على هذا الفهم يرى العقاد ان مطران كان في حاجة الى جهد لاجتناب التجديد ، ولم يكن محتاجا الى جهد لاتباع مناهج الادب الحديثة•

وفي مقام التعليل لذلك يقول العقاد : « ان مطرانا درج على الدراسة الاوربية ، ولم يفرض عليه الماضي الموروث ان يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الاداب العربية ، او بقايا الاداب الاسلامية ، فعناؤه حين يمضي في طريق التجديد عشر خطوات ، دون العناء الذي يلقاه في الخطوة الواحدة رجل

(١٤ ، ١٥) عباس العقاد : شعراء مصر ص١٩٩ •

مثل حافظ ابراهيم ، وقوة الطبع في تجاوز هذه الخطوة الواحدة أظهر من قوة الطبع في تلك الخطوات العشر ، لان الفرق بينهما كالفـــرق بين من يسبح في وجه التيار ، ومن يسبح مع التيار(١٥) •

ويخلص العقاد من مناقشة قضية التجديد لدى مطران على هـــذا النحو ، الى دعوى تأثيره في مدرسة الجيل الجديد ، تلك التي يرفضهـــا العقاد ، كما رفض سابقتها التي تتضمن تأثير شوقي على مدرسته ••

على ان العقاد في رفضه تلك الدعوى يرتكز على ان مطران من جيل أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، ومن هنا فهو اكبر من دعاة مدرســـة الجيل الجديد الذين نشأوا في اواخر القرن التاسع عشر واوئـــل القرن العشرين ، وهو علم وحده في جيله • ولكنه بالرغم من ذلـــك لم يؤثر بعبارته او بروحه فيمن اتى بعده من المصريين ، لان هؤلاء كانوا يطلعون على الادب العربي القديم من مصدره ، ويطلعون على الادب الاوربي من مصادره الكثيرة ، ولا سيما الانكليزية ، فهم اولى ان يستفيدوا اللغة مـــن الجاهليين والمخضرمين والعباسيين ، وهم اولى ان يستفيدوا نوازع التجديد من آداب الاوربيين • ومن ثم ليس لمطران ـ من وجهة نظر العقاد ـ مكان الوساطة في الامرين ، ولا سيما عند من يقرأون الانكليزية ، ولا يرجعون في النقد الى موازين الادب الفرنسي ، أو الى الاقتداء بموبسيه ولامرتين وغيرهما من امراء البلاغة ابان نشأة مطران(١٦) •

ولم يقتصر العقاد على رفض دعوى تأثير مطران على مدرسة الجيل الجديد ، بل ذهب الى ابعد من هـــذا حين ادعى أن مدرســـته قـــد أثرت في مطران ، كما اثرت في شوقي قبله ، وذلك حين يقول :

« ولا بد أن يلاحظ أن شعراء مصر المجددين بعد جيل شـــوقي وحافظ ومطران ، كانوا جميعا من دارسى الانكليزية ، أو دارسى الآداب الاوربية من طريق اللغة الانكليزية ولعل الاثر الذي احدثوه في الثقافـــة العصرية هو الذي جنح بالاستاذ مطران الى ترجمة شكسبير والعناية بـــه

(١٥ ، ١٦) عباس العقاد : شعراء مصر ص ١٩٩ ، ٢٠٠

أكثر من عنايته بكبار الشعراء الفرنسيين ، فهو كصاحبه شوقي قد تأثر بثقافة الجيل الناشيء بعدهما في مصر ، ولم يؤثرا فيه[17] .

ثم يحدد العقاد أهداف تلك المدرسة بعد أن أسهب في الحديث عن عدم تأثرها بالجيل السابق ، ويبين اصالتها ، وانها مقلدة للادب الانكليزي وانماالمسألة في الالتقاء بينها وبين الادب الانجليزي مسألة اتفاق في المزاج وفهم لرسالة الشعر والادب .

ومن ثم نراه يحدثنا عن مذهبهم في النقد ، وذلك حينما يقول : « وأوجز ما نصف به عملنا ـ ان افلحنا فيه ـ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب انساني مصري عربي : انساني ، لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصامن تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة، ومصري لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى ، لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغه العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره الا عربيا بحتا ، يدير بصره الى عصر الجاهلية[18] .

على انه بعد تحديد مذهبهم نراه يرضح اهداف المدرسة التىاستطاعت أن تقلب موازين النقد في مصر ، وان تكون ـ على حد تعبيره ـ اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وذلك لان هذه المدرسة استطاعت ان تقاوم فكرتين كلتاهما خاطئة ناقصة ، بالرغم من ان احداهما قد جاءت في الماضى ، وجاءت الاخرى من احدث الاطوار في الاجتماع[19] .

فالفكرة الاولى تتضمن حقيقة « الادب القومي » حيث كان جيل

---

(١٧) عباس العقاد : شعراء مصر ص٢٠٠ .

(١٨) عباس العقاد : الديوان في الادب والنقد ص٢٥ ، ٢٦ ط ثانية القاهرة .

(١٩) عباس العقاد : شعراء مصر ص١٩٤ .

شوقي وحافظ ينظر اليه على انه الادب الذي تذكر فيه الظواهر ومعالم القومية بالاسماء والتواريخ والحوادث ، فليس من الادب القومي عند هذا الجيل ، ان يصف الشاعر عواطفه الانسانية ، او يصف المحيط الاطلسى ، او نهر دجلة ، او مناظر لندن وباريس ، لان هذه الاشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم واخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية(٢٠) .

ومن هنا نراه يصحح هذا الفهم حينما يذهب الى هذه الفكرة خاطئة ناقصة ، لانه ينفيها أمثلة العظماء من الشعراء في كل زمن وكل أمة فشكسبير مثلا مفخرة قومية عند الانكليز ، ولكنه ألف من الروايات عن الرومان واليونان والطليان في القرون الاولى والقرون الوسطى أكثر من تأليفه في تاريخ قومه ، وهاردى كتب عن ابناء اقليمه في رواياته ، ولكنك اذا قرأت شعره وجدت فيه ما يهم المصرى والهندى واليونانى ، كما يهم الانكليزي وقس على ذلك شعراءنا الاقدمين وجلة الشعراء المحدثين(٢١).

والذي يتضح مما سبق انه ليس المطلوب من « القومية » ـ في تصور العقاد ـ ، ان يسجل الشاعر اسماء البلاد ومعالمها وعنواناتها ، وانماالمطلوب أن يكون الشاعر انسانا يشعر بقومه وبالناس وبالدنيا وبالارض وبالسماء، وتأتى « الطبيعة القومية » من وصفه السماء ، كما تأتي من وصفه طنطا والاقصر واسوان ، لانه لن يخرج من قوميته ولا من طبيعتها اذا وصف الشعرى اليمانية على وجهة نظره المصرية ولم يصف الشارع الذي يسكن فيه(٢٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان القومية المصرية ـ في نظر العقاد ـ تظهر في خوالج النفوس اكثر مما تظهر في اسماء المعالم وعناوين المدن والاشخاص، لان الانكليزي يستطيع أن ينظم مائة قصيدة يذكر فيها النيل والهرم وأبا الهول والفلاح والقطن والذرة ، ولكنه لا يستطيع أن يكون قوميا بشعوره ومزاجه ، كما يكون الشاعر المصرى الذي يعبر عن نفسه

(٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) المصدر السابق ص١٩٤ ، ٩١٥ .

ولا يذكر القاهرة وبنها والبدرشين ، وفلانا ابن فلان ، ذلك لان هذه الاسماء تحاكي وتقلد ، ولكن الطبيعة المصرية التي تعبر بها عن ذات نفسك لا تحاكي ولا تقلد ولو كانت موضوعاتها انسانية لا تنحصر في عناوين هذه البلاد[٢٣].

ويمضى العقاد في تقرير المبادىء النقدية التي اضطلعت بها مدرسته حينما يقرر هذا الفهم « للادب القومي » بغض النظر عن انه ينطبق على شعره او انه لا ينطبق عليه لانه يقرر الفكرة لذاتها ويدع أمر التطبيق لمن يعنيه ، فلو انه كان يقرر المبدأ الادبي ليستفيد منه ، لقرر ان الشعراء القوميين هم ألذين يذكرون الاثار والمشاهد ، وينحصرون في المواقع والمناسبات القريبة ، وذلك لانه نظم في مناظر النيل ، وفي وصف معابد ادفو ، وانس الوجود ، وتمثال رمسيس وغيرها من الاثار ، ونظم كذلك النشيد القومى والقصائد الوطنية الاخرى في خطاب الشبان ، كما نظم القصائد الكثيرة في بعض المناسبات العامة ، ولم يقرر هذا ، لانه يريد الفكرة لذاتها ولا ينظر فيها الى شخص أو شخوص آخرين[٢٤] .

على ان العقاد يعمق فكرة القومية في الادب حينما ذهب الى ان البيئة القومية لا تلزم الشاعر المصرى الزاما ان يثبت المصرية بالعناوين والاسماء ، او بموضوعات تحمل هذه العناوين والاسماء ، وهي كذلك لا تحرم عليه هذه الموضوعات ، ولا تناقضها في الشعر ، ولا في أبواب الكتابة النثرية ، وانما الواجب على الشاعر القومي ، أن يكون قوميا بنفسه وشعوره وادراكه ما دام صادقا في تعبيره عن ذلك جميعه ، وليصف بعد ذلك نجوم السماء ، او ازهار الارض ، او قنطرة قصر النيل ، او حديقة « هايدبارك » او ينابيع جبل لبنان ، فما في ذلك ضير على الشعر ، ولا عليه ولا على القومية ، لانها انسانية قبل كل شىء مصبوغة بصبغة وطن من الاوطان[٢٥] .

وفي اعتقادنا ان هذا الفهم من العقاد للقومية ، لا يتفق وفهم الاشتراكيين

(٢٣) عباس العقاد : شعراء مصر ص٢٠١ .

(٢٤ ، ٢٥) المصدر السابق صفحات ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(الماديين) للادب ، لانهم كما يقول العقاد ـ « يزعمون ان الادب كله ان هو الا آلة من آلات الاقتصاد ، وسلاح من اسلحة الطبقات في نضالهـــا القديم ، ويريدون من ثم الا يخرج الشاعر من افق الطبقة او افق البيئة ، الى افق الانسانية الواسع الدائم ، ولكن الاشتراكيين (الماديين) ما كانوا قط اهلا لفهم الفنون ولا اهلا لفهم الانسانية •• انما يفهمون ان الاقتصاد هو مسخر الحياة ، ولا يفهمون ان الحياة هي مســـخرة الاقتصـــاد والاقتصاديين ، ولو عمل الناس وقالوا من بداية الزمن كما يريـــد الاشتراكيون الغلاة ، لما كانت علوم ولا كانت فنون ولا كان اقتصاد[٢٦] »

أما الفكرة الثانية التي قاومتها مدرسة الجيل الجديد فتنبع مما انتهى اليه في الفكرة الاولى من خلاف بينه وبين الاشتراكيين الغلاة في فهمهـــم العقيم ، الذي يحرم على الاديب ان يكتب حرفا لا ينتهي الى « لقمة خبز » او الى تسجيل حرب الطبقات ونظم الاجتماع[٢٧] •

وفي مقام التدليل على عقم هذه الفكرة يذهب العقاد الى ان«روسيا» التي كان قد استولى عليها الشيوعيون زهاء عشرين عاما ، ونبت فيها عـلى ايديهم جيل كامل يعد بالملايين ، ويتراوح عمره بين العشرين والاربعين، لم ينبغ في هذا الجيل شاعر او فيلسوف او مصـــور او اديب من طراز رفيع • وهكذا تخمد القرائح بين اناس يحسبون كل ملاحظة وكل شعور عبثا من عبث البطالة والفراغ ما لم يكن منتهيا الى الخبز او الى الاقتصاد في عمومـــه[٢٨] •

ثم يعقب العقاد على هاتين الفكرتين بقوله : « فمدرسة الشعر المصري بعد شوقي تعني بالانسان ولا تفهم « القومية » في الشعر ، الا على انهـــا انسانية مصبوغة بصبغة وطن من الاوطان ، وهي تلقي بالها كله الى شعور الانسان في جميع الطبقات ، ولا تحصر شعورها في طالبي الخبز وعبيـد الاقتصاد ، وهي على هذا مدرسة الطبيعة الانسانية ، ولا يتأتى ان تكون

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٥ ، ٢٠٢ •

بمعزل عن القومية بحال ، لان « القومية » سجية كل انسان مطبوع ، ولو عني بالقطب الشمالى او قطب السماء[29] » .

٢ ـ الاصالة في الدعوة :

ويواصل العقاد حديثه عن تلك المدرسة وما أحدثته في الادب من روح الاستقلال وما دعت اليه من الصدق في التعبير فيذهب الى أن الادب العصرى الحديث حسبه من روح الاستقلال في شعرائه ، انهم رفعوه من مراغة الامتهان التى عفرت جبينه زمنا ، فلن تجد اليوم شاعرا حديثا يهنىء بالمولود ، وما نفض يديه من تراب الميت ، ولن تراه يطرى من هو أول ذاميه في خلوته ، ويقذع في هجو من يكبره في سريرته ، ولا واقفا على المرافىء يودع الذاهب ويستقبل الآيب ولا متعرضا للعطاء يبيع من شعره ، كما يبيع التاجر من بضاعته ، وليس بالقليل من هذه الروح الشماء في الادب ، أن تجهز على آداب المواربة والتزلف بيننا أو تردها بها وراء الاستار ، بعد أن كانت تنشر في الاشعار ، وينادى بها في ضحوة النهار [30] .

على أن العقاد يوضح أكثر حينما يؤكد انهم أنكروا أصنام الادب ، لانهم أنكروا عملهم وطلبوا عملا أصلح منه وأوفى ، وأصلحوا أنفسهم ، وحولوهم الى وجهة غير وجهتهم وجعلوهم يطرقون أبواب الفنون الحية ، بعد أن كان كلامهم أو أكثره وقفا على المديح والرثاء وشكوى الزمان والاخوان [31] .

ويقرر العقاد أن نقدهم لم يقتصر على الادب الحديث ، وانما فتحوا أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرىء القيس ، أو أبى

(٢٩) المصدر السابق ص١٩٦ .

(٣٠) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص٢٧٨ وما بعدها .

(٣١ ، ٣٢) راجع : جريدة الاساس بتاريخ ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥١

الطيب المتنبـي كفرا ، أو جنـاية تعاب ، كما تعـاب الجناية على الشرائع أو القوانـين [٣٢] •

ويتضح مما سبق أن هذه المدرسة قد استطاعت أن تحول تيار الادب من مراغـة الامتهان التى عفرت جبينـه الى أدب انساني يبحث في النفس الانسانية ، ويعبر عن أفراحها وأحزانها ، وهدوئها وصخبها ، وغير ذلك من حالاتها المختلفة •

ومن ثم نقول مع الدكتورين محمد مندور ومحمد غنيمى هلال بأن تجديد هـذه المدرسة لم يخرج بالشعر العربي عـن دائرته الغنائية ، لان الشعر الغنائي آصل أجناب الادب العربي وأعرقها [٣٣] •

ويرى الدارس أن التجديد في الشعر الغنائي أصعب منالا من خلق أجناس أدبية أخرى كالقصة والمسرحية ، لانه قد استأثر بالنصيب الاوفى من النقد الادبى القديم ، وقد جمد على تقاليد فنية شائهة ، تمثلها المماحكات اللفظية ، والتعقيدات المنطقية عند السكاكى وأمثاله من علمـاء البـلاغة المتأخريـن •

ومن هنا نعلم ان التجديد في الشعر الغنائي ليس بالشىء الهين الذي لجأ اليه دعـاة مدرسة الجيل الجديد ، لان التجديد يحمل في طياته مـن ناحيـة اخرى تطورا خطيرا في جميـع جوانب الحياة الانسانية ، وهـذا ما صنعه دعاة مدرسة الجيل الجديد ، اذ أنهم دلفوا من خلال الحديث عن الشعر الى هدم القيم البالية العتيقة في الفكر والاجتماع •

نعم ، كان التجديد في الشعر الغنائي هو المنتظر وهـو أصعب ـ كما قلنا ـ بكثير من انشاء الادب الموضوعى ، وخاصة أنـه ليس للمصريين به عهد في الادب العربى ، فأى نماذج منـه يضعها هؤلاء الشعراء النقاد ، أو أي مبادىء يضعونها كان المصريون يتقبلونها ، ولا يوجد من يفطن منهم

---

(٣٣) راجع في ذلك : ابراهيم المازني للدكتور محمد مندور ص٣٨ ومجلة « الاداب » البيروتية الصادرة في يناير ١٩٦١ في « هل لدينا مذاهب أدبية » للدكتور محمد غنيمي هلال •

الى نواحي الضعف في هذه النماذج ، ولن يصطدم بها القراء لعدم معرفتهم لها .

والذى يتضح مما سبق أن عدم انشائهم للادب الموضوعي لا يقدح فيما قاموا به من تجديد ، ولا يضيرهم ألا تشتمل مدرستهم على ادخال الادب الموضوعى ، وحسب الادب العربي منهم ، أن تزلزل مدرستهم القيم الفنية الموروثة حول الشعر العربى ، كما يبدو لنا ان التجديد في الشعر الغنائي ونقده هو أساس النهضة الادبية التي يشتمل عليها عصرنا الحديث.

ومهما يكن من أمر ، فعلى الرغم مما قيل حول مدرسة الجيل الجديد والادب الموضوعي ، فان هذه المدرسة استطاعت أن تنتشل الادب العربي بصفة عامة ، والشعر الغنائي بصفة خاصة ، من الوهدة التى كان يتردى فيها ، وأن يبصر نقادها الادباء بكثير من مواطن الزلل التى لا تدركها موهبة الادباء وحدها ، ولا سيما أن النقاد في كثير من الاحيان بطبيعة موهبتهم وعملهم أكثر ثقافة من الادباء .

وبالاضافة الى ذلك فان ازدهار النقد يعنى ازدهار الادب ، وان كلا من النشاطين مكمل للاخر ، وأن كثيرا من النقاد في الامم التى سبقتنا الى الحضارة كان لهم من الاثر في عصرهم ما يفوق آثار كثير من الادباء (٣٤)

٣ - بين مدرسة الجيل الجديد والمهجريين :

وحينما يقف الدارس لمدرسة الجيل الجديد على ما سبق فانه ليعجب حينما يرى أن ميخائيل نعيمة يكتب في « غرباله » مقالا حماسيا حارا عن كتاب « الديوان في الادب والنقد » يحيى به هذا الجهد الذى قام به نقاد مدرسة الجيل الجديد ، واستهله بقوله :

« ألا بارك الله في مصر فما كل ما تنشره ثرثرة ، ولا كل ما تنظمه بهرجة ، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام ، وتؤلف رصف القوافى ، فكم زمرت لبهلوان ، وطبلت لمشعوذ و « طيبت » لسكران ،

---

(٣٤) ناقش العلاقة بين الناقد والاديب الدكتور محمد غنيمي هلال في مجلة « المجلة » الصادرة في يوليه ١٩٥٩ العدد ٣١ .

غير أني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه أمس بالرجاء (٣٥) .

ويواصل نعيمة حديثه عن هـذه المدرسة مدعيا أنه قد بدأ يسمع أن في مصر جماعة تأبى اليـوم أن تتناول غذاءها الادبى من قصـع أجدادها ، وبملاعق أجدادها ، بل تفضـل أن تطبـخ طعامها بيدهـا ، وأن تمضغـه بأسنانها لا بأسنان سواها ، وبعبارة أخرى يرى نعيمة أن هذه الجماعة قد اكتشفت لذة الاستقلال في التفكير والشـعور ، فهى تفكر لذاتهـا وتشعر لذاتها ، ومن ثم فانه يعد تلـك الساعة التى اهتدى فيها الى هـذه الجماعة أطيب ساعة في حياته ، لانه لمس الحيـاة الجديدة فيها ، فأيقن ان أحلامه التى كان يحلم بها منذ سنين أصبحت اليوم حقيقة محسوسة (٣٦) .

على أن نعيمة يبين مصدر هذا اليقين الذى وقر في نفسه ، وهو كتاب « الديوان في الادب والنقد » الذي اشترك في تأليفه اثنان من ادباء مصر هما عباس العقـاد وابراهيم المازني ، وهذه التحية لمدرسة الجيـل الجديد من ميخائيل نعيمـة توضح لنـا العلاقة بين مدرسـة الجيل الجديـد ومدرسة المهجر .. تلك العلاقة التى بدأت في عام ١٩٢٣ عندما أراد نعيمة أن يطبع كتابه في مصـر وطلب من الناشر أن يقـدم الكتاب للعقاد ليكتب مقدمته ، وكان الكتاب يشتمل على التحية السابقة (٣٧) .

ويتضح مما سبق أن شعراء المهجر ونقاده ، كانوا يقرأون ما يكتبه دعـاة مدرسة الجيـل الجديد ، ويعجبـون بهجومهم على مدرسـة الادب التقليدي ، والدعـوة الى أدب جديـد ، ولعل هـذا ما دعا اليـه الغربال بعد ذلـك (٣٨) .

والمطلع على كتاب نعيمة « الغربال » يرى أن العقاد قد كتب مقدمته ، ورد على تحية نعيمة السابقة ، واستهلها بشكر نعيمة والناشر اللذين أتاحا

---

(٣٥) ميخائيل نعيمة : الغربال ص١٨٣ .

(٣٦) ميخائيل نعيمة : الغربال ص١٨٣ وما بعدها .

(٣٧ ، ١٨) راجع : العقاد يتحدث عن النقـد والنقاد ، لعبـدالحي دياب بمجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٦٢ .

له فرصة الاطلاع الذي تزود به في رحلته الى أسوان ، ولأن قراءة الغربال من الوجهة الاخرى دليل من دلائل القرابة الفكرية ، ووثيقة نسب جديد من أنساب الادب ، وفيها يقول : « لو لم يكتب قلم النعيمي هذه الاراء التي تتمثل للقارىء في هذه الصفحات ، لوجب أن أكتبها أنا ، فأما وقد كتبها وحمل عبئها ، فقد وجب على الاقل أن أكتب مقدمتها [٣٩] .

ويعلل العقاد القرابة الفكرية بينه وبين نعيمة بأنه لو كان هناك نفس في المريخ خطر في ضميرها مثل الذي يخطر في ضميره ، لكانت ألصق به ، وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة في الرأى والاحساس ، ولو أن قائلا جمعه بالعقاد الفكر والهوى لما كان غريبا عنه ، وان فرقتهما لغة ، وباعد بينهما زمان وموطن ، فكيف بميخائيل نعيمة وهو يكتب باللغة التي يكتب بها العقاد ، وينتمي الى جانب الارض التي ينتمي اليها [٤٠] ؟؟

على أن العقاد يؤكد تلك القرابة الفكرية حينما يذهب الى أنه وقع من قراءة « الغربال » على قرابة صحيحة ، وجوار ملاصق في الحي الذى يسكنه العقاد من هذه الدنيا الجديدة ، وذلك لانه رأى قلما جاهدا في طلب الشعر الصحيح شعر الحياة ، لا شعر الزحافات والعلل ، رأى هذا القلم ينعى على الشعر الرث الذي تركنا بلا شعر ، ولم يبق في حياتنا ما ليس منظوما سوى عواطفنا وأفكارنا [٤١] .

ويرى الدارس أنه ليس معنى قرابة المدرستين ان احداهما وليدة للاخرى ، وان تبادلتا التحية والتأييد ، وانما قد نبعتا تلقائيا ، وسارتا متوازيتين ساعيتين الى هدف موحد ، هو الهجوم السافر على مدرسة الادب التقليدي ، والدعوة الى أدب جديد .

ويستدل الدارس على ذلك بأن الباعث على هذا الهدف هو ظروف متشابهة هي اتصال دعاة كل منهما بالآداب والثقافات الاوربية ، ثم احساس

(٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) راجع : عباس العقاد في مقدمة « الغربال » لميخائيل نعيمة صفحة ٧ وما بعدها ط المطبعة العصرية سنة ١٩٢٣ .

دعاة كل منهما بأن اتجاهات الادب العربي التقليدي لم تعـد تكفى حاجات العصر المتطورة ، لان كل انسان من الدعاة في حاجة الى أن يطبـخ بنفسه وأن يأكل بملاعق مـن صنع يـده لا من صنـع أجداده عـلى حد تعبـير نعيمـة (٤٢) .

ومن هنا بدأ كل منهما يحيي الآخر تحية حارة ، ويشد على يده على بعد المزار ، مع تبادل الرسائل بينهما ، ولم يحدث لهذين الاديبين الناقدين التقاء شخصى الا في مؤتمر الادباء العربي الذى انعقد في القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، فالتقى العقاد بميخائيل نعيمة ومعه الياس فرحات والدكتور محمد مندور (٤٣) .

ويعلـل الدكتور مندور التقاء المدرستين في الدعوة الـى التجديد في الشرق العربى وفي المهاجر في شعر الوجدان الذاتى ، بأنه يرجع الى أن المدرستين قد قامتـا في زمن أخـذ الوعى القومـى ينتشر فيـه فيعكس على الافراد احساسا قويا بذواتهم ورغبـة عارمة في تأكيد تلـك الذوات ، ولا سيما أنهم قد اطلعوا على الآداب الغربية والشعر الغربي بالذات ، وأحسوا ببض قائليـه (٤٤) .

ويـرى الدارس أن الشـعر الغنائي هو الميدان الخصب للتجديد لما يحوي من القيم الفنية الموروثة ، وزلزلة هذه القيم من أذواق الجمهور واحلال قيم أخرى في هذا الفـن أمر جد عسير ، يحتاج الى صبر وعزم وجلد على ما يواجـه به الدعاة من عداوة وشحناء واحتراب حول القديـم والجديـد (٤٥) .

---

(٤٢) حديث شخصى مع العقاد ، وناقش هذه العلاقة بين المدرستين الدكتور مندور في مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٥٩ .

(٤٣) راجع : حديثنا مع العقاد في « المجلة » الصادرة بتاريخ ابريل سنة ١٩٦٢ ، ومجلة « المجلة » للدكتور محمد مندور الصادرة في أبريل سنة ١٩٥٩ .

(٤٤ ، ٤٥) راجع : « المجلة » الصادرة في أبريل ١٩٥٩ .

ويقودنا الانصاف لمدرسة الجيل الجديد أن نقرر أنها قد ابتدأت عملها منذ عام ١٩٠٧ في صحيفة « الدستور » بيوميات العقاد التى أشار اليها المازني والتى وقفنا على بعض المبادىء التى تحدثنا عنها في فصل « كفاح قلم » ، هذه اليوميات كانت بداية اقتحام المذهب الجديد على حد تعبير المازني ، كما ابتدأت المدرسة عملها كذلك بصدور الجزء الاول من ديوان شكرى « ضوء الفجر » الذي صدر في عام ١٩٠٩ ، وقد كتب العقاد في ذلك الوقت عن الشعراء القدامى والمحدثين في صحيفة « الدستور » واشتجر مع الادباء الذين كانوا يتربعون على عرش الادب حينذاك ، واشترك معه اخوانه في ذلك الشجار واقتسموا الادباء فيما بينهم ، فتناول كل منهم أديب ، فكان شوقي من نصيب العقاد ، وطه حسين من نصيب شكرى [٤٦] ، وحافظ تولاه المازني ، وان كان هذا التقسيم اعتباريا بحيث لا يمنع أن يعرج أحدهم بالنقد على فريسة صاحبه .

وفي مقام التدليل على ذلك نقول : انه بالرغم من نقد المازني لحافظ الذي نشره تباعا في صحيفة « عكاظ » ، فان العقاد قد تناول حافظا تحت عنوان « الشعراء الندابون » في « عكاظ » كذلك في عام ١٩١٤ ، وتناول كل من المازني والعقاد طه حسين بالنقد أيضا .

ومعنى هذا أن الاتجاه الذي قام به دعاة مدرسة الجيل الجديد قد أرسوا قواعده في ذلك الوقت ، وكان له أنصار ، وقام دعاة هذا الاتجاه بنقد بعضهم لبعض ، وتقديم أعمال بعضهم بغية انتشاره وتدعيمه .

وفي اعتقادنا أن كتاب « الديوان في الادب والنقد » الذي ألفه العقاد والمازني ليس هو أول عمل نقدي قامت به تلك المدرسة ، ومن هنا فان قول الدكتور مندور بأن قيام المدرستين كان في زمن واحد من باب

---

(٤٦) من الطريف في هذا الموضوع أن طه حسين رد على شكري بالشعر قائلا :

قل لشكري قد غلا وتمادى بعض هذا يشفي الفؤادا
أنت في الشعر والنثر أديب لا يعجز النقادا

التجاوز ، لأنه اعتمد فيه على نشر كتابى « الديوان » و « الغربال » . مع أن الواقع بجانب هذا القول ، لان العقاد وزملاءه قد صدرت لهم قبل « الديوان » دراسات عديدة في النقد الادبى ، والدواوين التى كانوا يقدمونها لبعضهم البعض ، ويوضحون فيها اتجاههم الجديد ، كما أن كتبهم التي صدرت بعد عام ١٩٢١ ـ وهو عام نشر الديوان ـ كان معظمها قد نشر على هيئة أبحاث في الصحف قبل ذلك .

* * *

الفصل الخامس

في عالم السياسة

١ ـ منهجه السياسي :

يرى العقاد أن السياسة على صلة بالادب كما يعرفه ويميل اليه ، اذ أنهـا تستهويه بمبادئهـا الانسانية المطلقة ، لا بمبادىء العصبيـة الضيقة ، وتتصباه بالنظرة الجمالية الفنيـة لا بالنظرة التى تحصر الحياة في الانظمة والقوانـين [١] •

ومن ناحية أخرى يذهب الى « أن تشبع قلب الانسان لاحد الموقفين في حادثة من حوادث التاريخ أو قصة من قصص الخيال حين يرى أحدهما في جانب الضعف والمروءة ، ويرى الاخر في جانب القوة والخسة • يرى أن هـذا التشبع من قبيل السياسة الادبية ، أو من قبيـل الادب السياسى ، لان العدة التي ينزل بها الاديب الى ميدانه لا تختلف عـن عدة السياسى حين ينظر بتلك العـين الى ذينك الموقفين ، وكذلك كنت وأكـون في سياستى التى أشتغل بهـا ، وكأن الادب عندى شجرة طعمت بغصن مـن السياسة ، فتغير طعم الثمرة بعض الشىء ، ولم تتغير التربة ولا الجذور [٢]

وتأسيسا على هذا الفهم رأيناه ينص على كثير من المشتغلين بالسياسة في مصر ، الذين يتدلهون بطلعتها ، ويهيمون بشمائلها ينعى عليهم فهمهم لها على انها اصوات واحزاب ، وقوانين وشرائع ، ومعارضة وتأييد ، وان الامور التي تطرح في معترك الاحزاب هي الامور التي تدور عليهاحقائق الحياة وأسرار الوجود واحكام القضاء •

(١ ، ٢ ، ٣) عباس العقاد : مراجعات في الاداب والفنـون ص٢٤ وما بعدها •

على أن العقاد يصف هذا النوع من السياسيين الـذين ينكبون على الاشتغال بالسياسة هذا الانكباب ، بأنهم كمن يطعن في الهواء ، أو يقبض على الماء ، أو يجري في دائرة مسدودة بلا انتهاء (٣) .

ويرى الباحث أن الباعث على فهم العقاد للسياسة وعلاقتهـا بالادب على هذا النحو ، هو تفرغ نفسه للادب ، اذ انها قصرت عليه سرائرها ، ومحضته زبدة ودائعها ، واتخذت منه محرابا تتوجه اليه ومعقلا تلوذ به ، ولذا فانه حينما رأى الوطن يمر بالازمات السياسية جند نفسه للدفاع عن قضيته التي يناضل من أجلها ، ومن هنـا جاءت كتـابته السياسية متسمة بالطابع الادبى ، ومعتمدة على ملكته الناقدة منذ فهم السياسة واشتغل بها ، وذلك ما دفعنا الى الحديث عنه في ميدان السياسة (٤) .

والدارس للعقاد السياسى يرى أن العصر الذي نشأ فيه كان عصرا مضطربا مزيجا بين عنصرين ، ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأي واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما وافقها وتوافقـه من التفكير الحديث .

ويصف هذا العصر بأنه كان « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام ، فلم تمتحن فيه العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة تكوين الرأي جماعات وجماعات ، فلا ينطوي الشباب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته ، ينطوي فيها، يقبل خطأها كما يقبل صوابهـا ، وهو مع الجمـاعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل في كلتا الحالتين (٥) .

ذلك أن الجامعة الاسلامية ـ كمـا يقول العقـاد في وصفه لهذه الفترة ـ كانت على مذاهب ، والجهاد الوطني على مـذاهب ، والتجديد وكلها مشكلات ..

الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمامنا واحدا في قضية من قضايانا الكبرى،

---

(٤) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص١٤٨ ، ١٤٩ .

(٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ العدد ١١٩١

فالجامعة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ، ومدرسة الدعاة الرسميين ، مدرسة جمال الدين تعني بالجامعة الاسلامية أن تكون جامعة شعوب متيقظة مسئولة عن شؤونها ، مرعية الحقوق مع ملوكها وامرائها ، فضلا عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها • ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء ، وتريد من الجامعة الاسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان (٦) •

ومدرسة الجهاد الوطني على هذا الحال ، مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستشف هذا الرأي ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة في أمر التعويل على السيادة العثمانية ، لان حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة ـ كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين ـ ذريعة الى ضياع البلد في معركة النزاع على التركة ، أو في مساومات التقسيم والتفريق (٧) •

وفي خضم هذا التيه بين مهابطه ومراقيه انتابت الطفل الناشىء حيرة وشك وعثرات وازمات ، ولكنه استطاع ان يصل الى قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغ السادسة عشرة من عمره ، بعد حصوله على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية مباشرة •

وهذا القرار الواضح يتمثل ـ كما يقول العقاد ـ « في أن الجامعة الاسلامية عنده هي جامعة جمال الدين الافغاني ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة ، أو تخليف ذلك السلطان •

« الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ، ولا نستمع لمن يحاربها باسم الشورى أو النقمة على الاستبداد •

(٦ ، ٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢١ اغسطس ١٩٥٧ ، العدد ١١٩١

« الدولـــــة الاجنبيـــة لا تنفعنا ان ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ، ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب •• الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط في مجاملة « يلدز » و «عابدين» ، مقصر في مساعيـــه نحو « مصر للمصريين » [٨] •

وعلى هذا الاساس فهم العقاد ان الملوك والامراء يخـدمون القضايا القومية بمقدار ما تخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هـذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم •

كما فهم العقاد ان الحكم الدستوري لا غنى عه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الاحوال •

ومن ثم كانت كتابة العقاد ـ فيما بعد ـ في صحيفـــة « الدستور » لا تخرج عن هذا النطاق ، في فهمه للمسائل السياسية والفكرية حول أي قضية من هذه القضايا ، اذ أنه لم يمدح الخليفة عبدالحميد الا في مناسبة واحدة هي اعلان الدستور ، وحينذاك هنأه العقاد بأبيات سجل فيها تاريخ السنة بحساب الحروف الابجدية فكان التاريخ هذه الشطرة : قد أنشأ الدستور عبدالحميد •

ومجموع حروفها بحساب الجمل (١٣٢٦) ، وهي السنة الهجرية التي أعلن فيها الدستور ، بل أن تنفيذ هـــذا البرنامج السياسى الصحفي على هذا المستوى من الفهم قد أحدث بينه وبين الاستاذ فريـد وجـدي ـ حينما كان يعمل في صحيفة الدستور ـ سوء تفاهم انتهى بمقاطعـــة العقاد لصحيفة الدستور حينا من الدهر[٩] •

ومضى العقاد غير عابىء بما يصيبه من جراء تنفيذ هـــذا البرنامج السياسى في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا ، بالرغم من أنه لم يتعد

(٨ ، ٩) راجع آخر ساعة الصادرة في أغسطس ١٩٥٧ العدد ١١٩١

العشرين من عمره بعد ، ومع ذلك استطاع أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات مستفيدا في ذلك كله من ظروف تلك الآونة التي نشأ فيها[١٠] .

وهذه الظروف بعينها كانت منطلقا لان يفكر العقاد في الحكم وأشكاله في مصر والشرق بأسره اذ أنه يرى أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وادواره في الشرق كله . لا قديما كما كان يقع مرارا في روما واليونان ، ولا حديثا كما وقع في فرنسا وانكلترا من التجارب المتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة ، ذلك بالرغم من أن الارتباك والضغط اللذين كانا يثيرانهم الى قلب الحكومات قد نزل أضعافه بالشرقيين ، ولكن مع هذا الفرق اليسير ، وربما كان الجمود على شكل واحد من أشكال الحكومة ناشئا من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهيد الوسائل الخصوصية ، فاذا استولى أحدهم على الملك استقر له الامر وانقاد له الجميع ، وكثيرا ما يتفق أن خادما من خدام البلاد يبسط نفوذه في المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم المتصرف الى أن يزحزحه عن مكانه مغتصب آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ ، والناس بمعزل عن هذه الانقلابات يسلمون بها ولا يشتركون فيها[١١] .

ويرى العقاد كذلك أن حكومة الشرق لا ترتكز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ، ولا الشعب يعتمد على اختلاف هيئاتها فقدانشئت نفسها بقوة ساعدها ، ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في في المغرب وقد شدت أزرها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تتبادل وأياها المعاضدة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الاديان في وهم الانسان[١٢] .

على أن العقاد يعلل انعزال المصريين عن ميدان السياسة آنذاك ، بأن المصري منهم لا يربطه بالمجتمع النظام السياسي والمراسم الحكومية ،قدر

---

(١٠) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ .

(١١ ، ١٢) راجع خلاصة اليومية ص٦١ .

ما يربطه بذلك المجتمع انتظام العادات والعلاقات . فلم تكن الحكومة في تلك الازمان الطويلة لتمتزج بنفسه قط امتزاج الالفة والطواعية والمعاملة المشكورة ، بل ربما كان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على والاقتحام ، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق(١٤).

ومن هنا يحدد العقاد الباعث عن انقياد المصري للسياسة ، حيث يتمثل في أنه ينقاد لان الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولان أزمنة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء والاقتحام ، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق(١٤) .

ومهما يكن من أمر تعليل العقاد لانعزال المصريين عن السياسة ، واستئثار الافراد بالحكم في مصر والشرق على سواء ، فان الحقيقة التي تبرز من وراء ذلك هي حب العقاد وتقديسه للديمقراطية التي تقوم على أن الامة مصدرالسلطات وأن الحكم لابد أن يرتكز على الشعب . ولا تقوم الديمقراطية الا على حرية الافراد والشعب على السواء في ابداء آرائهم . وهذه الحقيقة هي التي كافح العقاد من أجلها طوال حياته ، ووقف عليها جهاده وتفكيره السياسى .

ومن امارات ذلك وقوفه ضد مدير أسوان ابان الحرب العالمية الاولى ، وقد أحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى ، اذ كان المدير مطلق التصرف في الاوقاف التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم(١٥).

ومن ثم فان العقاد نظم قصيدة منثورة سماها « نادي العجول » لان النادي كان للسادة الحاكمين ، وسراة القوم في المدينة ، وكانت تدبر فيه مؤامرات السلب عن طريق المساومات والالعاب . وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس في ساعات معدودة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات .

(١٣ ، ١٤) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية للعقاد ص٢٥ـ٢٧ .
(١٥) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٧ .

والسر في تسمية العقاد لهذا النادي « بنادي العجول » أن رؤساءه كانوا من أصحاب الوزن الثقيل ، ولانه حظيرة من حظائر الدواب الآدمية لا تخلو من القرون .

وقد كتب العقاد مقالة وتناسخه الادباء وأرسله الى الصحف ، وقرأه النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجترىء على ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم[16] .

ويتمثل ذلك المصير في نفي العقاد الى مالطة ، وقاموا بمراقبته تمهيدا لنفيه ، فلم يكترث العقاد لهذه الرقابة ، ولا لذلك التقييد ، لانه بطبيعته كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل .

ولم تقف حيل مدير أسوان وألاعيبه في التنكيل بالعقاد الى هذا الحد ، وانما أوقع بينه وبين مفتش الداخلية الانكليزي مدعيا أن العقاد يتهم المفتش بالرشوة وأنه يقاسم الموظفين أتاوات السلطة على وظائف العمد والمشايخ ، و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين .. ولم يكذب المفتش ما ادعاه المدير على العقاد ، لان العقاد كتب في هذا الموضوع ، وأخذ يقول ويعيد القول أن المفتش الانكليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه . ومن هنا استدعى المفتش الانكليزي العقاد الى ديوان المديرية ، وقال له فيما قال في حديث طويل باللغة الانكليزية : « لا يوجد انكليزي مرتش في الحرب ولا في السلم » . فرد عليه العقاد بقوله : « ان الانكليز جديرون بالتهنئة بعد حرب الترنسفال » وكانت هذه الاجابة كفيلة أن تجعل المفتش الانكليزي يقف بجانب المدير في طلب اعتقال العقاد لولا هروبه الى القاهرة كما سبق أن بينا ذلك[17] .

على أن حبه للديمقراطية هو الذي جعله كذلك يصطدم بالرقيب

---

(١٦) راجع ص   من هذا الكتاب .
(١٧) اخر ساعة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٧ .

العام الانكليزي بوزارة الداخلية ، حينما عين العقاد رقيبا على الصحف ، مؤامرات السلب عن طريق المساومات والالعاب .

اذ أخذ عليه الرقيب « مستر هورنبلور » بعد ثلاثة أيام من تعيينه أنه ترك كثيرا من الاخبار التي أعدها له في رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية ، فقال له العقاد بعد ارجاء النظر فيها ، انني تركتها ، لانها تباح فيما اطلع عليه من الصحف الانكليزية ، ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير ، فصاح به الرقيب العام المتهكم .. الصحف الانكليزية ؟ ثم أردف قائلا : هل أنت من الحزب الوطني ؟ فقال له العقاد : أنا مصري وطني بطبيعة الحال .. وانتهت المشادة بينهما بأن ترك العقادهذاالعمل بناء على استقالته التي طلب من الرقيب العام قبولها[١٨] .

وهذا الحب للديمقراطية المؤسسة على الحرية هو الذي جعله لا يلبي دعوة أحد المسؤولين الانكليز ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ، في مكتب الدكتور يعقوب صروف في دار المقتطف ، حينما طلبا منه أن يكتب عن حالة الحدود الشرقية ابان الحرب العالمية الاولى للصحف المصرية ليعيد الطمأنينة الى نفوس الناس .. فقال لهم العقاد : « أنني لا أكره أن أبث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع ، أما وهو ـ كما يحدث الآن ـ من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعها »[١٩] .

ولم يعقب أحد من الحاضرين في تلك الجلسة بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني ، فانه طفق يقول ويعيد يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في ذلك يا سيد عباس ؟ أليس المهم الان أن تطمئن النفوس على الحدود ؟ فلم يجبه العقاد وانصرف[٢٠] .

كما أن تقديسه للديمقراطية والحرية هو الذي جعله يلقي بنفسه في غمار ثورة ١٩١٩ ليحرر هو وزميله المازني منشورات جماعة « اليد

(١٨ ، ١٩ ، ٢٠) اخر ساعة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠١ .

السوداء» السرية ويكتبان في الصحف مقالات نارية ملتهبة ،حتى تقرر نفيهما على يد وزير الداخلية « ثروت باشا » الذي استقال في هــذه الفترة ، ولولا استقالته ، لحل بهما قضـــاء النفي والتشريد ، لان رصيدهما في الاتهامات كان وافرا بحمد الله ، اذ حامت حولهما الاتهامات في حوادث الاغتيالات التي وقعت حينذاك بدعوى ايغار الصدور واثارتهما للشـــعور العام .

وقد وقف وقفة رائعة من لجنة « ملنر » التي جاءت الى مصر بعـد ثورتها ــ ابان نفي سعد زغلول ــ لتقف على مطالب المصريين في ظاهــر الامر ، ولتخدعهم عن استقلالهم وحريتهم في الحقيقــة ، فاذا « باللورد ملنر » يرى أن الروح المصرية على غير ما كان يعهدها في أيامه السالفة بمصر ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودي يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الامة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقيــة شؤون البلاد في ظل أنظمــة دستورية Self Governing Ins itutions وهذه الترجمة من وجهة نظر العقاد غير دقيقة ، ولذا فانه قام بترجمتها ترجمة صحيحة ونشرها في الاهرام آنذاك وهي أنظمة « حكم ذاتي » . وكان هذا الاختلاف في الترجمة هو محور الاختلاف بين خطة سعد وخطة عدلي حيال اللجنة[٢١] .

وفيما يتصل بتعديل دستور سنة ١٩٢٣ ، كانت للعقاد وقفة رائعة ، اذ أنها قضت على المؤامرة التي كانت تدبر في الخفاء للتوسعة في حقوق الملك في التبعة الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ وحذف مادة « الامة مصدر السلطات » وذلك لان الملك والانكليز اتفقا على استرضاء من بقي من رجال الوفد بعد نفي سعد وأصحابه في المنفى ، وادخال البقية الباقية من أعضاء الوفد البارزين في السجون والمعتقلات ، لــكي يرضخ هــؤلاء

(٢١) راجع سعد زغلول صفحات ٢٨٠ــ٣٠٣ ، ٤١٩ــ٤٢٧ ، وانظر كذلك صفحة ٢٩٥ــ٢٩٧ من « العقاد دراســة وتحيــة » تحت عنـــوان « العقاد محطم الاصنام » للاستاذ محمد خليفة التونسي .

الوفديون الباقون عن التعديل المرغوب ، ومن ثم لا يكون اعتراض على ما تم الاتفاق عليه بين الملك والحكومة النسيمية وممثلو الامة الباقون من رجال الوفد ، ولكن العقاد استطاع أن يحبط هذه المساعي الجبارة بمقالتين نشرهما في جريدة البلاغ آنذاك ، وفحواهما الابقاء على الدستور كما وضعته اللجنة دون أن يمس حرف فيه بتعديل ، وأنه اذا لزم تعديله فليكن ذلك من أعضاء أول مجلس نيابي تنتخبه الامة على وفق مانص عليه الدستور نفسه في أمر تعديله .

ومن هنا فات الامة الى ما يدبر ضدها في الخفاء بعد مقالتي العقاد اللتين كانتا دافعتين لاعداء الحكومة ليكيدوا لها مستندين في ذلك الى الامة وسرت الحملة على التعديل من مصر الى بريطانيا فكتبت الصحف البريطانية وفي مقدمتها « التيمس » ، تتهم الملك فؤاد بتعطيل الدستور فاضطر الى اصداره بحروفه[22] .

ولا يقبل من الدستور أن يكون تبعة على المصريين ، وألا يصيبهم منه الا الاباطيل والاوهام ، اذ كتب ابان أزمة الجيش في جريدة «البلاغ» في عام ١٩٢٦ يقول يلوحون لنا بعهد «كرومر» والغاء الدستور ، وما عهد « كرومر » بشر من دستور كهذا لا ينال المصريون منه الا التبات الجسام ، ولا يجنون منه الا الاباطيل والاوهام . فاما أن نسلم للانكليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه ، واما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان ، ثم ماذا نأخذ من هذا الدستور الذي يسوموننا فيه هذا السوم الغشوم ؟ لا شيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعا بالفرقة والانقسام »[23] .

ويرى الدارس أن العقاد كان في مقالاته السياسية جبارا في منطقه ساخرا في أسلوبه ، اذ أنه كتب يندد فيها بمنهج محمد محمود باشا

(٢٢) راجع سعد زغلول صفحات ٢٨٠ـ٣٠٣ ، ٤١٩ـ٤٢٧ ، وانظر كذلك صفحة ٢٩٥ـ٢٩٧ من « العقاد دراسة وتحية » تحت عنوان « العقاد محطم الاصنام » للاستاذ محمد خليفة التونسى .

(٢٣) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ص٤٩٧ .

رئيس الوزراء الذي أعلن أنه سيحكم البلاد بيد من حديد ، فنشر العقاد مقاله الساخر تحت عنوان « يد من حديد ولكن في ذراع من جريد » ، وقد تداولته الالسن في كل مكان ، فلم يعد صاحب اليد الحديدية يردد هذه الكلمة .

وبالاضافة الى ذلك نشر عدة مقالات يشبه فيهـا اسماعيل صدقي رئيس الوزراء في جبروته وسطوته « بشارلى شابلن » ، وقارن بينهمـا مقارنة طريفة في وقت كان الارهاب فيه على أشده ، وكذلك كانت تتابع مقالاته السياسية حاملة عناوين ساخرة من أمثـال « طبيب الكالوج لوزير الماليـة » و « علوبة يكـره الاوباش » و « حلمي عيسى عـلى الربابـة » و « الوزير الفرنسيسى »(٢٤) .

ومن ثم كان الجزاء الرادع للصحف التي ينشر فيها العقاد هـذه المقالات ، المصادرة والاغلاق كما حدث لجريدة « البلاغ » في عام ١٩٢٨ حين حمل العقاد على صاحب اليد الحديدية ، فأغلقت البلاغ ، وسـبع مجلات اسبوعية وراءها ، كانت تتداول الظهور أيام الاسبوع ، كل منها في يوم . فلما ترك العقاد التحرير في جريدة البلاغ لم تغلقها الحكومـة حتى نهاية عهدها(٢٥) .

على أن العقاد قد ترك سخريته اللاذعة في مقالاته السياسية ، وراح يناقش الاستبداد فيما بعد مناقشـة موضوعية من شـأنها أن تبرز رأيـه السياسى دون سخرية أو تهكم .

والمطلع على هذا النوع من المقالات السياسية يرى العقاد يذهب في مقالة تحت عنوان « ثورة الحرية في وجه الاستعباد » الى أن التاريخ لـم يذكر أن شعبا من الشعوب قابل السلطان الاجنبي الطارىء على البـلاد بالترحاب والتسليم الا أن يكون فيه انقاذ له من سلطان أجنبي آخر يسيء اليه ولا يستطيع التمرد عليه .. وذلك لان الحرية في جوهرها قديمـة متأصلة في الطبائع الانسانية ، وثورات الامم التي صودرت حريتها قديما

(٢٤ ، ٢٥) راجع : العقاد دراسة وتحية ص٦٤ ، ٢٩٧ .

لا تقل عن ثورات الامم الحديثة في هذا السبيل ، وكل ما هنالك أن فهم الحرية يختلف بين عصر وعصر ، وبين قبيل وقبيل[٢٦] .

ويرى العقاد أن الجديد في العصر الحديث أن الاستبداد قد أفلس وفقد الثقة بحقه وبمصلحته ، وأن طلاب الحرية قد خلفوا الاستبداد على عروشه الخاوية ، ولا يزالون يخلفونه عـلى البقيـة التي تتماسك بعض التماسك بقوة العادة والاستمرار . كما أن أحوال العالم لا زالت تتطور وتتحول حتى أصبح الاستبداد عملا كثير الكلفـة قليل المنفعـة ، وحتى أصبح استخدام الجيوش في اخضاع الامم المستعبدة يحتـاج الى ضرائب وقوانين تجنيد ومصادرة حريات في بلاد المستبدين أنفسهم قبل مصـادرة الحريات في بلاد المحكومين المسخرين[٢٧] .

ومعنى هذا في تصور العقاد أن أطوار التاريخ انتهت بنظام الحـكم المطلق ونظام الاستعمار ، فبطل ايمان المستبد بحقه الالهي في سياسـة شعبه على هواه ، وبطل ايمـان المستعمر بأمانـة « الجنس السـيد » كما كانوا يسمون الاوربيين ، ومن هنا اجتمعت العوامل المتعددة على أفلاس الاستبداد والاستعمار ، ولم يبق ما بقي منها الا بحكم العادة والاستمرار أو بوصفه أثرا من الآثار التي لابد أن تصير الى الزوال[٢٨] .

على ان شعوب هؤلاء المستبدين قد تعلمت ـ من وجهة نظر العقاد أن الغالب الظافر في العصر الحـديث هو الذي يؤدي الثمن ويحمل الثمن ويحمل العبء ويتكفل بمعيشة المغلوب المستسلم للظافرين عليه ، وقد تعلمت كذلك أن الاجناس «المتأخرة» تتقـدم وتطلب حقها وأن اخضاعها يتطلب سلاحا لارهابها ، وسلاحا لدفع المنافسة بين الطامعين في بلادها ، وقد تربى النفقة على الكسب المرجو من تلك «العملية» المرهقة المحفوفة بالاخطـار تارة من الثورات وتارة من الحروب ، وتارات شتى

---

(٢٦) راجع ، مجلة « الهلال » الصادرة في ١ يناير ١٩٥٢ .
(٢٧ ، ٢٨) المرجع السابق ونفس العدد .

من المقاولة «السلبية» التي لا تجدي الاسلحة في التغلب عليها (٢٩) .

وفي تصور العقاد كذلك أنه اذا كانت المشقة في اقناع المستعمرة لابناء قومه كبيرة فلا جرم تكون المشقة أكبر جدا في اقناع المستعمر لمن يستعمرهم ويعتدي على حريتهم وكرامتهم كما يعتدي على أقواتهم وأرزاقهم ، وقد كانت الحرية عزيزة على المغلوبين يوم كانت الثورةعلى النير الاجنبي مسألة كرامة ونخوة ، وانها لاعز عليهم جدا في هذا الزمن بعد أن اصبحت مسألة كرامة ومصلحة وحكمة وهيهات أن يخضع الانسان طويلا وهو لا يرى في خضوعه غير العار والخسارة وسوء العقبى (٣٠) .

ويدفع العقاد شبهة ربما تدور بخلد بعض الناس حينما يتصور أحدهم ان زوال الاستبداد قد يكون لان عصرنا خلا من جبابرة الرجال القادرين على الطغيان والتعسف بالشعوب ، يدفع العقاد هذه الشبهة لان زوال الاستبداد منوط بأن عصرنا خلا من الرعايا الذين يقبلونه ويجدون العزة والمصلحة في قباله ، وربما كان من جبابرة الثورات المحدثون أقدر من جبابرة الطغيان الاقدمين ، فما خلت الدنيا من الجبابرة وفيها أمثال غاندي ، وشيان كاي شك ، ومصطفى كمال ، وسعد زغلول ، وجناح ، وسوكارنو وغيرهم من أصحاب « الشخصيات » التي توصف بالجبروت من نوع غير نوع الجبروت الذي وصف به قديما أمثال قيصر ، واسكندر ، وأتيلا ، وجنكيزخان ، بل زال حق الاستبداد في نظر نفسه ونظر الخاضعين لسلطانه ، فكان جبابرة اليوم جبابرة تحرير ودعوات وطنية أو عالمية ، من حيث كان نظراؤهم بالامس جبابرة طغيان وتسخير (٣١) .

ويخلص العقاد من هذه المقالة الخطيرة التي قيلت إبان عسف فاروق وجبروته وتعاونه مع المستعمرين قبيل قيام الثورة بشهور وقبل حريق القاهرة بأسابيع ، يخلص العقاد من هذا كله الى أن الحرية في

(٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) راجع : الهلال الصادرة في ١ يناير سنة ١٩٥٣ .

عصرنا هذا قد « أرسلت طابورها » الخامس الى معسكر الاستبداد فضربته بيده وسلاحه ، فاذا أراد الاستبداد أن يعيش فعليه أن يستبد بمعسكره قبل أن يستبد بضحاياه من الغرباء ، فهل في طاقته أن ينقسم وأن يضاعف أعباءه في وقت واحد .

« ان الحرية أيسر على طلابها اليوم ، وان الاستبداد أصعب على طلابه وأعظم كلفة وخطر ، وكفى بذلك كسبا للانسانية نرجو ان تتعهده فيزداد ولا يخشى عليه انتكاس أو ارتداد [٣٢] .

ومهما يكن من أمر فان العقاد يعلل نشأة الاستبداد أو الدكتاتورية ويحاول ان يعرف هل تنجح الدكتاتورية في مصر ، وذلك في مقال تحت عنوان « هل تنجح الدكتاتورية عندنا ؟ » وفي هذه المقالة يرى العقاد أن الاستبداد أو الدكتاتورية لم ينشأ على شكل من الاشكال في أمة مستقيمة الامور موفورة الارزاق .

ذلك أن الحكومة المستبدة تنشأ في أمة مهزومة أو كالمهزومة ، وتنشأ في هذه الامم بعد اضطرابات داخلية تهدد نظامها الاجتماعي بالتداعي أو التقويض ، وتنشأ مع ذلك حين تكون القوة العسكرية هنالك راغبة في محو عارها واستئناف كرامتها ، مقرونة بالامثلة العليا والدعوات القوية والعالمية ، ثم لا غنى لها في جميع هذه الحالات عن شخصية موصولة بجهاد قديم وعقيدة جديدة أو أمل جديد [٣٣] .

وتأسيسا على هذا الفهم يرى العقاد أن المانيا خرجت من الحرب العظمى مهزومة ذليلة مثقلة بالمطالب عاجزة عن السداد ، ممزقة كذلك بين الاشتراكية واحزاب المحافظين والعسكريين ، متحفزة للاخذ بالثأر ، مستعدة للغضب الوطني والنخوة القومية ، فلو نقصت الهزيمة أو نقص هذا الدين الجديد المعوض لها من عار الهوان ومذلة الخضوع ، أو

---

(٣٢) راجع : الهلال الصادرة في ١ من يناير سنة ١٩٥٢ .
(٣٣) المرجع السابق بتاريخ ١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

نقص « هتلر » وأصحابه ، لما تأتى قيـام السيطرة النازية على النحو المعروف [٣٤] .

ومن ثم أخذ يعدد البلاد الغربية التي نشأت فيها دكتاتورية كذلك، وانتقل منها الى الشرق واستدل بتركيا وايران ، وكلتاهما كانت تشكو من العسر والقلق والاختلاف بين القديم والحديث واختلال الامور بعد الحرب العظمى ما يهيء الطريق لقيام الحاكم الدكتاتور ، وكلتاهما لم يكن على حالة من الحرية الصحيحة ، فانتقلت منهـا الى فقد الحريـة وتوطيد الاستبداد ، بل قصارى الامر فيها أنهما انتقلتا من استبداد عقيم الى استبداد مثمر ، ومن طريق الرجعية الى طريق التقدم [٣٥] .

ويتساءل العقاد هل تقوم في بلاد الشرق الادنى دكتـاتورية على مثال الحكومات التي من هذا القبيل في الامم الغربية الحاضرة ؟

والجواب السريع أن المقدمات اذا تشابهت فالنتائج تتشابه لا محالة، وأن العوامل التي أقامت تلك الحكومات المستبدة يمكن أن تقيمها عندنا اذا تكررت على هذا المنوال في بلادنا الشرقيـة ، ولكن الامر المشكوك فيه ، هو تكرار هـذه العوامل في بلادنا لاختلاف السوابق التاريخية والبواعث العصرية والآمال في المستقبل [٣٦] .

ومعنى هذا أنه اذا تقلبت الاطوار في بلادنا الشرقيـة تقلبا يلائم الدعوات الاجتماعية المتطرفة ، فالمرجح أن هـذه الدعوات الاجتماعيـة المتطرفة تكون قد فشلت في ذلك الحين حيث ظهرت في البلاد الغربية فيؤدي فشلها هناك الى ضعفها وقلة الاصغاء اليها بيننا [٣٧] .

على أن الدكتـاتورية لا تنشأ دون دكتـاتوريين متصلين بدعوة وجهاد ، « فاذا وجد الدكتاتوريون عندنا فما هي الدعوة التي يستندون اليها ، الرجعة الى القديم مستحيلة كل الاستحالة ، لاننا رأينا جميـع الحـاكمين بأمرهم في الغرب والشرق يهجرون القـديم ، ويقيمون

(٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٣٩ .

شعائرهم على وجهة جديدة ، فهتلر وموسليني ، وستالين مغضوب عليهم جميعا من كهان العقائد القديمة ، ومصطفى كمال ، ورضا بهلوي لا يرجعان الى الوراء ، بل ينطلقان في طريق يسميانه طريق التقدم والارتقاء ، وهو على كل حال ليس بطريق الشاهات والسلاطين والخلفاء».

ويواصل العقاد حديثه ذاهبا الى أنه اذا كانت الدعوة التي يستند اليها الدكتاتور الشرقي عند وجوده بعيدة عن الحركات الاجتماعية المتطرفة وبعيدة عن الرجعة الى القديم فماذا عسى أن تكون ؟ [٣٨] .

أتراها تكون « عصبية وطنية » عمياء وحماسة قومية هوجاء ؟

يرى العقاد أن هذه العصبيات لا توجد الا في أمة مكظومة مهزومة مهددة في أرزاقها ، أما الامم التي لا تشعر بكظم الهزيمة والاهانة والجهاد المكبوت ، فهي كذلك لا تشعر بالمرارة التي تخلق العصبية العمياء والحماسة الهوجاء ، ولا سيما اذا تيسر لها الرزق ، وسلمت من الفوارق الاجتماعية التي تجعل ندرة الارزاق عند بعض الناس مسألة طائفية أو حربا كحرب الطبقات المعهودة عند جماعة الاشتراكيين [٣٩] .

ومن ناحية اخرى يرى العقاد أن الدكتاتورية اذا قامت في بلادنا الشرقية لم تقم على أساس وطيد ، وأوشك أن يبادر اليها التقويض قبل أن تفرغ من البناء . وأن كل تطور في أحوالنا يرجى أن يقربنا الى الديمقراطية ولا يخشى أن يقربنا من الدكتاتورية ، وتضاف الى عواملنا الداخلية في هذه المسألة عوامل السياسة الخارجية التي نحن مرتبطون بها ، اذ ان بلاد الشرق الادنى على صلة بالدول الديمقراطية ، وتقضي هذه الصلة بتشابه في النظم الحكومية لا تشذ عنه . ومن هنا فان الدكتاتورية لن تنجح في بلادنا الا اذا احتاجت بلادنا اليها ، ونحن حتى الساعة لا نرى لهذه البلاد حاجة ليست مكفولة التحقيق على أيدي

---

(٣٨) المرجع السابق ونفس العدد .

(٣٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٣٩ .

الحكومات الديمقراطية »[٤٠] .

على أن العقاد لم يكتف في محاربة الاستبداد السياسي بالمقالات فحسب ، بل أنه أصدر كتابين في هذا الصدد هما « اليد القوية في مصر » و « الحكم المطلق في القرن العشرين » في عام **١٩٢٨** .

والذي يفهم من هذا أن العقاد وقف قلمه وفكره لمحاربة الاستبداد والسلطان والجبروت ، ومن هنا كان سجنه في **٣١** من سبتمبر سنة **١٩٣٠** بتهمة العيب في الذات الملكية ، على أثر ماقاله في الاجتماع الخاص الذي عقد في البرلمان للنظر فيما يدبر للحياة النيابية .

وقد وقف العقاد في هذا الاجتماع خطيبا ، فأنحى باللائمة على أعداء الامة وأعداء الدستور ، وجاء في هذه الخطبة الخالدة قوله : « ان الامة على استعداد لان تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدي عليه »[٤١] .

وعلى الرغم من معرفة الملك فؤاد الاكيدة أنه هو المقصود بهذا الكلام ، فانه لم يستطع أن يحاسب العقاد على هذا الكلام ، نظرا للحصانة البرلمانية التي كان العقاد متمتعا بها آنذاك[٤٢] .

ولم يكتف العقاد بهذا الموقف في البرلمان ، بل أخذ يكتب سلسلة من المقالات النارية يحارب بها الرجعية والاستعمار ، وجعل الملك فؤاد على رأس الرجعية التي تتعاون مع الاستعمار ووصفه « بالحلوف » ، وقد نشر هذه المقالات في جريدة « المؤيد الجديد »[٤٣] .

ومن هنا وجدت السراي بغيتها في العقاد ، اذ لم تستطع محاكمته بالامس نظرا لحصانته البرلمانية ، أما اليوم فانها تستطيع أن تحاكمه على صفته الصحفية في مقالاته التي أتهم فيها فؤادا بأنه يعمل ضد مصلحة البلاد .. وقدم للمحاكمة ، فحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، وهو ثابت

---

(٤٠) المرجع السابق ونفس العدد .

(٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٥٧ و ١٥٩ .

(٤٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

الجنان ، رابط الجأش ، مبتسما ابتسامته الساخرة قائلا : « ولو » ، ولم يقبل العقاد مساومة الملك فؤاد له بأن يتنازل عن آرائــه ، ويخرج من الوفد لقاء العفو عنه ، وتنصيبه رئيسا للقسم العربي بالديوان الملكي(٤٤).

ويخرج العقاد من السجن بعد انتهاء المدة المحكوم بها عليه في ٨ من يوليه سنة ١٩٣١ على أعنف ما يكون صرامة وتمسكا بمبادئـه التي من أجلها سجن ، والتي حورب فيما بعد بسببها .

خرج العقاد من السجن في ذلك اليوم ليتوجـه الى ضريح سـعد زغلول ويلقي عليه قصيدة منها(٤٥) :

وكنت جنين السجن تســعة أشــهر
فهأنذا في ســاحة الخلــد أولــد
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى
وفي كل يــوم ذو الجهالــة يلحد
وما أقعدت بي ظلمة السجن عزمـة
فما كل ليــل حين يغشــاك مرقد
ومما غيبتني ظلمــة السجن عن سنى
من الرأي يتلو فرقدا منـه فرقــد
عداتي وصحبي لا اختــلاف عليهما
سيعهدني كــل كمــا كـان يعهد

وفي تصورنا أن الباعث على وقوف العقاد مع الديمقراطية واتخاذها مذهبا له في السياسة هو ايمانه بفرديته وحريته ، اذ أنه لا يرضى بهمـا بديلا ، ومن هنا نراه يحارب بأقصى جهـده كل المذاهب الجماعيـة في السياسة كالشيوعية والفاشية والنازية ، ويرى أنها خرافة ومسخ للبشرية لانها تؤدي الى استبداد فرد أو أفـراد بالناس وتسخيرهم لمصلحتـه أو

---

(٤٤) من حديث خاص مع العقاد .
(٤٥) وحي الاربعين ص١٧٣ وما بعدها .

مصلحتهم ، ولذا فانه قال في توديع غليوم[٤٦] :

والناس لا يملكم واحد   مهما علا في ملكه واستطال

وايمانه بالديمقراطية قديم قدم اصداره لكتاب « الحكم المطلق في القرن العشرين » في عام ١٩٢٨ ، اذ عالج قضية الحرية والانسانية ، وما نالها من طغيان المتجبرين المستبدين ، وصدر العقاد كتابه بفصل تساءل فيه هل فشلت الديمقراطية ، وأجاب على تساؤله بفصل تال فحواه أنها لم تفشل ، على الرغم من تسليمه بأن لها عيوبها ، ولكنه يرى أنها عيوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها ، وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارات فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها ان لم يزد عليه .

« ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الاعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام ، اذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع ، ولكنها تقارن بالانظمة الاخرى في جملتها وينظر الى عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف .. فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها ، أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية ، اذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد »[٤٧] .

وفي تصور العقاد أن المقياس السليم للديمقراطية هو أن قيامها في الامة دليل على مزايا كثيرة في تلك الامة ، أو دليل على أن الامة في معيشة طيبة ومعاملة حسنة ، وأنها ذات أخلاق لا ضرر من اطلاق الحرية لاصحابها ، وأطوار لا تعدو طوقها ولا تستعصى عليها .

وليس أدل على وخامة الديكتاتورية في نظره من أن قيامها في الامة دليل على شذوذ في معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار المحدقة بكيانها ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يسوغوا قيامهم في شعب من الشعوب .

---

(٤٦) هتلر في الميزان صفحات ١٥٧ ، ١٦١ وما بعدها .

(٤٧) هتلر في الميزان ص١٦٩ .

« والبيئة الديمقراطية كالارض الآمنة القرير ، والبيئة الدكتاتورية كالمحجر الصحي أو كالمخفر الذي لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق »[48]

ويذهب العقاد كذلك أن سلام الدنيا يتحقق اذا ما حكمتها الديمقراطية ، لانها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأي في يدي انسان واحد ، وذلك على عكس الدكتاتورية التي تقوم على تسلط طبقة على الحكم بعد طبقة ، وسيد بعد سيد ، لانها راجعة الى القفزات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير[49] .

كما أنه في حملته على الشيوعية في كتابه الشيوعية والانسانية ، عقد فصلا بعنوان « المصير » ، وفيه لم يخرج العقاد عن آرائه السابقة في الديمقراطية ، اذ يدلل فيه على أن دور الديمقراطية لم ينته كما ذهب الى ذلك بعض علماء الاجتماع والسياسة المتشائمون الذين يرون وجوب التدخل في حرية الفرد وحرية المعاملات على اختلافها لتنظيم الثروة العامة وتحقيق البرامج التي توضع للحاضر والمستقبل في وقت واحد ، ولا يتأتى تنفيذها بغير تقييد المعاملات بين الافراد ، وبغير اتباع نظم التأميم في بعض المرافق والمشروعات[50] .

يرى العقاد أن هذه الملاحظات جميعا لا تستلزم الجزم بانتهاء عصر الديمقراطية وعصر الحرية الفردية ، لانها قد تكون من عوارض العصر الحاضر في طريق طويل ، تتجدد عوارضه فترة بعد فترة ، ثم تنتهي هذه العوارض ويخلفها طور جديد من أطوار الديمقراطية يدل على النمو والامتداد ولا يسوغ التشاؤم من الحاضر أو المصير[51] .

ويرجع هذا الاعتقاد لدى العقاد أمران : أحدهما أن الحرية الانسانية تراث التاريخ كله ، كما يتجلى لنا من جملة أدواره وأطواره ،

(٤٨ ، ٤٩) المرجع السابق ص١٩١ـ١٩٣ .

(٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) الشيوعية والانسانية ص٣١٢ ط أولى يونيه ١٩٥٦ .

وليست عرضا منقطعا تبديه لنا صفحة من التاريخ هنا وهناك ثم تطويه صفحة تليها الى غير رجعة(٥٢) •

والامر الاخر أن التنظيم لا ينفي الحرية ما دام حكمه ساريا بين الناس على سنة المساواة ، وما دام سلطان الحاكم فيه مستمدا من ارادة الجميع منصرفا الى تدبير شؤون الجميع ، فان تنظيم مواعيد القطارات والبواخر - مثلا - لا يؤدي الى تقييد حرية السفر أو تقييد حرية المسافرين ، وقد يؤدي الى تمكينهم من السفر الذي يحول دونه ترك « المواصلات » فوضى على غير نظام(٥٣) •

والذي يفهم من هذا أن العقاد مغرم أيما اغرام بالحرية الانسانية التي يرى أنها منتصرة في النهاية رغم ما يعترضها من هزات استعمارية ، أو من المذاهب السياسية التي توجب التدخل في حرية الفرد •

ويتضح هذا من اجابته على « أميل لودفيج » حين سأله بعد لقائه للملك فؤاد ، ابان زيارته لمصر : ما رأيك فيمن يغلب غدا على مسرح السياسة المصرية ؟ فقال له العقاد : المستقبل للحرية بعد عراك طويل(٥٤)

ويفهم الدارس مما سبق أن حملة العقاد على الشيوعية تكمن في كبت الحريات في البلاد التي تتخذها مبدأ سياسيا تعتنقه ، لان تشريعاتها الاقتصادية تتفق - من وجهة نظرنا - مع تفكير العقاد الى حد ما في المسائل الاقتصادية كما سنبين ذلك فيما بعد •

وفي اعتقادنا أن خصومة العقاد للمذاهب الجماعية أو الدكتاتوريين الذين يغضون من حرية الفرد ولا يسمحون بها ليست جديدة على منهجه في التفكير السياسى ، ومن هنا كانت خصومته لهتلر ليست أول خصومة اختصم فيها العقاد دكتاتورا مثله ، اذ أنه نشر مقالة في ٧ من يوليه عام ١٩١٢ وعمره ثلاثة وعشرون عاما يهون فيها من شأن « نابليون بونابرت » وتزييف عظمته ، واحتقاره لهذا الطراز من الوجاهة أو

(٥٣) المصدر السابق ص٣١٢ ، ٣١٣ •
(٥٤) عباس العقاد : سعد زغلول ص٤٧١ •

العظمة المدعاة الزائفة ، لان نابليون ومثله هتلر يطلبون الشهرة من طريق الغزوات والفتوح ، وقاس عظمتهما بقدر احتقارهما للانسان(٥٥) •

ومن ثم يرى العقاد أن كل قوة تنشأ عن الاستبداد مصيرها الى الزوال ، لانها قائمة على غير أساس ، قائمة على سياسة البطش والارهاب ومن هنا قامت حملته العاتية على هتلر ودكتاتوريته وتنبأ بسقوطه ، ورأى أن نجاحه أول الامر هو أول خطوة في سقوطه ، وذلك في كتابه « هتلر في الميزان » الذي صدر في عام ١٩٤٠ ، والذي كان سببا في هجرته الى السودان حينما هاجر الى السودان في يوليه عام ١٩٤٢ ابان الحرب العالمية الثانية ، بعد ما وصلت الجيوش النازية الى « العلمين» على مقربة من الاسكندرية ، وكان العقاد ـ بسبب كتابه عن هتلر ، ومقالاته التي كان يندد فيها بهتلر والنازيين على سواء ـ في رأس القائمة السوداء التي سيحل عليها غضب النازيين فور وصولهم الى القاهرة ، ولن يترتب على غضبهم عليه سوى اعدامه والتشهير به ، كما يتفق وفلسفتهم ومقوماتهم الفكرية •

ومن ثم لم يكن عجيبا أن يهاجر العقاد الى السودان ، لان في هذه الهجرة حياته ، ولكنه مع ذلك لم يقبل مطلقا أن يقال أنه هرب الى السودان ونظرا لفرط اعتداده بنفسه وشجاعته ، وانى يتأتى لشجاعة رجل فرد مهما تكن أن تقاوم جيوشا غازية دوخت الحلفاء في كثير من المعارك الحربية •• ولكن العقاد المفكر مع معرفته بذلك لم يقبل أن توجه اليه تهمة الهرب من مصر الى السودان •

ولم تكن هجرته الى السودان ، الا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، اذ أرقه في السودان نفر ممن لا خلاق لهم ، بدعوى أنه خرج على حزب الوفد الذي يمثل ـ من وجهة نظرهم ـ كفاح شعب مصر ، ولانه كان يناصر الانكليز وحلفاءهم في تلك الحرب ، حتى أن بعضهم ، وهو الاديب صلاح العتباني لم يتورع أن يقول في الحفلة التي أقامها المثقفون

---

(٥٥) راجع : عباس العقاد ناقدا ص١٦٢ وما بعدها •

في السودان تكريما للعقاد في نادي الخريجين : « انه عندما زار مصر كان يدخر للعقاد قبلة اعجاب بوصفه من رواد الفكر وأساتذة الجيل ، وخنجرا يغمده في صدر العقاد السياسى الجائر على حزب الوفد المصري »[٥٦] .

وهنا اكفهر وجه العقاد من الغضب الذي جعله يتململ في جلسته بحركة عصبية ، لان العتباني لم يكن موفقا في اختيار الالفاظ التي يستخدمها في مخالفته لرأي العقاد في خروجه من حزب الوفد ، ولاسيما أن الخناجر والمدى ليست مما يستخدم في عالم الادب والادباء قدر ما تستخدم في « المذابح والسلخانات » وفي أيدي القصابين مع الحيوانات لا المفكرين الرواد كما يقول العتباني نفسه حينما أعجب بالعقاد .

وأراد المشرفون على الحفلة أن يلطفوا الجو من الغبار الذي أثاره العتباني عن طريق الغناء ، واختاروا لذلك مقطوعة من شعر العقاد يقول فيها :

يا نديم الصبوات　　أقبل الليل فهات
واقتل الهم بكأس　　سميت كأس الحياة

وغناها الفنان اسماعيل عبدالمعين ، ولكن الله لم يشأ لهذا الحفل أن يمر على هذا ، اذ أغضب العقاد شاعر آخر يسمى علي نور المهندس ، الذي نعى على العقاد بدوره خروجه من حزب الوفد[٥٧] :

لم أنس موقفه و (الوفد) مؤتلف　　صلب ويأمر بالحسنى ويأتمر

ولكنه لم يكتف بهذا ، حتى أورد اتهام الناس له بالجبن في فراره من مصر الى السودان :

قالوا جبنت من الجلى وما علموا
مكان من خطبوا الجلى ومن مهروا

(٥٦ ، ٥٧) راجع : الاستاذ حسين نجيلة في كتابه « ملامح من المجتمع السوداني » ص٢٥٤-٢٥٧ ط ثانية سنة ١٩٦٠ .

أيجبن العلم ؟ ان العلـــم مزدهـــر
أم يجبن الحق ؟ ان الحق منتصـر
أم يجبن العقل في ابـان سـطوته
الله يعلـم لا جبـن ولا خـور
ما جئت ترجو قرابـا تستقر بـه
من الطغاة وأنت الصـارم الذكـر !

وكان هذا سببا في ثورة العقاد العارمة التي كظمها في نفسه ، وصبها على رؤوسهم حينما جاء دوره للتعقيب على ما قيل في هذا الحفل ، فمشى العقاد تجاه المنصة وئيد الخطى عملاق القامة ، وأخذ يرد عـلى المتكلمين من الشعراء والخطباء والدارسين ـ وما أكثرهم ـ واحدا بعد الآخر . « وكان يلمس أفكار المتحدث أولا في رفق ، ثم يأخذ في كشف أخطائه الفكرية أو اللغوية ـ وقد حفظها عن ظهر قلب . وما يزال بـه حتى يتركه أثرا بعد عين ـ ولعل صلاح الدين العتباني وعلي نور لن ينسيا قط ما صبه عليهما تلك الليلة »(٥٨) .

وقد زاره بعض العقلاء الراشدين من السودانيين في المنزل الـذي نزل فيه فوجدوه لا زال غاضبا ، واندفـع كالسـيل الهـادر يتحدث عن أصحاب الرسالات في التاريخ الذين هربوا أو ابتعدوا عن مواطن الخطر حفاظا على القيم والرسالات التي يحملونها ، وذلك ليقر في أذهانهم أنـه لم يسلك في هذا السبيل سوى ما صنعه محمد عليه السلام(٥٩) .

وحينما وجد العقاد ما يسوءه في السودان من أمثال صلاح الديـن العتباني وعلي نور المهندس ، وذلك بالاضافة الى الحشرة المعروفة عندهم والتي تظهر في الخريف قد لسعته في رجله فأحدثت فيها تورما فجزع من لسع الحشرة وتردد على المستشفى هناك ، كما جزع من لسع كل مـن العتباني ونور المهندس لنفسه .

(٥٨ ، ٥٩) راجع : الاستاذ حسين نجيلة في كتابـه « ملامح من المجتمع السوداني » ص٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ومن ثم لم يكن عجيباً كذلك أن يفارق السودان بعد أربعين يوماً فجأة بعد لسع الجسم والنفس معا ، ولكنه كان انسانا كبيرا ومفكرا كبيرا حينما كتب عن أبناء السودان ، في سبتمبر من عام ١٩٤٨ بعد أن رجع الى مصر بعدة سنوات كتب في مجلة الهلال تحت عنوان « أبناء السودان ليسوا زنوجا » وأشاد بهم في تلك المقالة ، ونسى ما حدث له من بعضهم ولم تؤثر اساءتهم له في القضية التي عالجها ..

على أن العقاد قد حارب الاستعمار في كتبه كذلك ، فذهب الى أنه يجور ، بل يفقد الناس الحرية الانسانية ، اذ أن اباحة الحقوق العامة لكافة الافراد في كافة الاوطان مرهونة على زوال الاستعمار . « ومتى يزول الاستعمار .. متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة الاساطيل ، وأخذ كل أهل اقليم في استغلال اقليمهم واستخراج ذخائره فتسقط حجة المستعمرين ، ويومئذ يبطل الاستعمار وترشد الامم من ضلال الوطنية ، فلا يطلب الوطن من الفرد الا عضوا عاملا ، ولا يطلب الفرد من الوطن الا محلا للعمل ، يومئذ تتحد وجهة الانسانية فتتكاشف وتتآزر بعد أن كانت تتقاطع وتتدابر » .

وفي موضع آخر نراه يقرر أن الاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولى بلغت نهايتها ، وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذي يتراجع أمام واقع أعظم منه وأجدر بالثبات في مجرى الحوادث ، فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه ، وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعي عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه[٦٠] .

ويخلص العقاد في كتابه « لا شيوعية ولا استعمار » الى أننا اذا عرفنا مساوىء الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار فانهما شران لا تبقى منهما بقية ، ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق فهو الفارق في الجهود التي تلزمنا للتيقظ له والحيطة منه والسعي الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه[٦١] .

(٦٠ ، ٦١) عباس العقاد : « لا شيوعية ولا استعمار » ص٢٠١ وما بعدها ط اولى سنة ١٩٥٧ .

وقد كان هذا المنهج السياسى الذي اتخذه العقاد دستوره في كل ما يأخذ وما يدع من الامور السياسية سببا في أن يرفض جميع المذاهب السياسية الوافدة ، ولا سيما المذاهب التي تكبت الحريات على مذبح الدكتاتورية الجماعية كالشيوعية والفاشية والنازية • وراح يقوم بعملية تأصيل للمقومات العربية الاسلامية ، فابتعث من تاريخنا عظماءه في عبقرياته، ومن تقاليدنا مايساير التطور • فكتب «الديمقراطية في الاسلام» و « مستقبل الاسلام في القرن العشرين » كما تابع أثر العرب في الحضارة الاوربية في كتابه « أثر العرب في الحضارة الاوربية » • وغير ذلك من الكتب التي تثبت اصالة العربي المسلم والاسلام معا في قيادة حركة تاريخية تلائم التطور وتحفظ علينا في الوقت نفسه تقاليدنا الاسلامية والشرقيةعلى سواء •

وقد كان هذا المنهج السياسى أيضا سببا في سجنه تسعة أشهر في غياهب السجون من أجل وقوفه في جانب الشعب العربي المسلم في مصر عام ١٩٣٠ ، وسببا في أن يقيم غيره عليه النكير والدعاوى الزائفة المختنفة التي تضر بسمعته وتشى به لدى الحكام آنذاك •

وعلى الرغم من هذا كله لم يذعن العقاد لرغبات السياسة الجائرة على حقوق الشعب ، أو بالاحرى على حقوق الانسانية في ذلك الوقت ، ولم يسنده في هذا الموقف سوى المبدأ الذي كان يعتنقه ويتعبد به وهو الكرامة الانسانية له ككاتب برز من الصفوف الشعبية ، وللشعب كطاقات انسانية خلاقة تجير عليها أهواء ورغبات خسيسة من قبل محترفي السياسة آنذاك، ومن هنا أحس العقاد بغربة وامتياز في ميدان السياسة كما يعرفها محترفوها من دعاة الاحزاب ، وكان هذا سببا في خروجه من حزب الوفد بعد انحرافه عن القصد والمحجة البيضاء • وقد سجل العقاد هذا الاحساس في قوله شعرا(٦٢) :

دعوني أسر في ساحة العيش مفراد
مغمى فلا أدري مصيري وأولي

(٦٢) عباس العقاد : ديوان العقاد جـ٢ ص٥٩ •

ولا تعذلوني ان يئست ، فانني
أرى اليأس أعلى من رجاء المذلل
أروني رجاء فوق يأسى ، فأنبري
اليه ، وعدوا عن رجاء التسفل
اذا لم يكن للنجح فضل لناجح
على مخفق ، فالنجح بغية أخطل
دعاني أبى «العباس» يا صدق ما دعا
أكان نذيرا لي بما سوف أبتلي ؟
ولو شاء لم يجعل الهي قضاءه
على فم هذا الوالد المتفضل

وهذا المنهج السياسى هو الذي أوقعه في حرب مع الاضداد الاقوياء وهذا أوعر مسالك الحروب الشعواء في جميع الميادين •

وفي هذا الصدد يقول أستاذنا العقاد : « لقد حاربت الشيوعية والصهيونية والاستعمار والتبشير والمتجرين بالدين والمستغلين لدعوى الاسلام ، كما حاربت طغيان أصحاب الاموال ، وطغيان السياسة من جانب القصر ، ومن جانب الاحزاب ، ومن كل جانب في بلادنا وفي البلاد الخارجية »[٦٣] •

« وان كاتبا يحارب الشيوعية لجدير بثناء المستعمرين والمبشرين ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من حارب الاستعمار والتبشير ؟ ومن حارب الالحاد فهو ذو حق في التهليل والتكبير من أصحاب الدعايات باسم الدين ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من يبغض المفترين على الاسلام بغضاء الملحدين ؟ • ومن حارب هتلر وموسليني فهو ذو حق كبير في المحاباة من أبناء صهيون ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من يعلم أن طغيان النازيين والفاشيين أسلم وأكرم من لؤم صهيون وأبناء صهيون ؟ »[٦٤] •

(٦٣ ، ٦٤) راجع : جريدة الاخبار الصادرة في ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٦٠ تحت عنوان « يوميات الاخبار » •

٣ ـ في السياسة المصرية :

تحدثنا فيما مضى عن منهج العقاد السياسى بصفة عامة من خلال آرائه في النظم السياسية العالمية •

وبقي أن نتحدث عن آرائه في السياسة المصرية من واقع ما كتبه في هذا الصدد •

وعلى الرغم من أن الذي كتبه العقاد في السياسة المصرية كثير ، وكثير جدا ، وتشهد بذلك مقالاته السياسية التي نشرها في الصحف اليومية والاسبوعية ، الا أننا سنحاول جاهدين أن نتلمس الخطوط العريضة في آرائه التي يعتقدها في اصلاح السياسة في مصر •

وطبيعي أننا لا نبحث عما كتبه العقاد في تاريخ السياسة المصرية ، وان كان في هذا النوع من التاريخ للسياسة المصرية يعد فارس الميدان بكتابه « سعد زغلول سيرة وتحية » الذي أرخ فيه للسياسة المصرية في العصر الحديث بأمانة ودقة بارعتين ، لانه استطاع أن يؤرخ للشعب المصري والدور الذي لعبه في ميدان السياسة ونضاله من أجل الاستقلال وبهذا يرى الدارس أن هذا الكتاب هو أول كتاب في السياسة والتاريخ يعني بالشعب في تاريخ مصر على اطلاقه بطريقة علمية صحيحة •

أقول نحن لا نبحث عن عباس العقاد المؤرخ للسياسة ، ولكننا نبحث عن عباس العقاد في ميدان التطبيق لمبادئه السياسية ، وتحليله للمشكلات السياسية المعاصرة • فمسؤولية الشعب مثلا في تصور العقاد كثيرة كمسؤوليات كل درجة من درجات الرشد والاستقلال يصل اليها الفرد أو تصل اليها الامة ، ولكن المسؤولية الاولى منها عسكرية ، لان الجلاء مسألة عسكرية قبل كل شيء ، فمن الواجب بعد الجلاء أن يكون لمصر جيش كاف للدفاع عنها في جميع الاوقات •• ولا سيما أوقات

الحروب[٦٥] .

ولا يعول العقاد في كفاية الجيش لضرورات على الضمانات الدولية التي تمخض عنها ميثاق الامم المتحدة ، ولا يعلق عليها الرجاء الكبير ، ولا يعتمد عليها كل الاعتماد في ضمان سلامة مصر والدفاع عن كيانها[٦٦] .

كما أنه لا يعتمد على محالفات ومعاهدات تبرم قبل الاستقلال ، لا لان المحالفات والمعاهدات غير جائزة ، بل هي واجبة ، ولكن بعد تحقيق معالم الاستقلال جميعا ، وقيام الاتفاق ـ حينئذ ـ بين أنداد متساوين في حرية الرأي والتصرف ، لا يكون منهم تابع ولا متبوع[٦٧].

على أن هناك مسؤولية أخرى تتمثل في الحكومة الوطنية أمام الشعب وأمام الدول الاجنبية ، لانه لن يقبل مصري من حكومته أن تعتذر بحجة من الحجج ، « لان الوزير الذي يقبل الافتئات على استقلال بلاده يجرم في حق الاستقلال ، ولا يتخذ من ذلك وسيلة للاعتذار »[٦٨] .

ومن ناحية أخرى اذا سأل الشعب حكومته وحدها كانت العاقبة وخيمة على البلاد اذا قصرت تلك الحكومات في واجباتها المنتظرة منها ، وليست هي بالواجبات القليلة بعد الجلاء فقد تضاعفت مسؤولية الحكومة المصرية اذن في عهد الاستقلال ، ووجب عليها أن تضاعف جهودها في الاصلاح ، وجهودها في الحيطة الاجتماعية والحيطة السياسية كيلا ينقلب الحساب الى انتفاض ، وتنتهي المسؤولية الحكومية الى خروج من جميع المسؤوليات[٦٩] .

ويرى العقاد « ان اساءة الحكومة قبل الجلاء تثيرنا على الاستعباد فنستفيد من قوة الخلق وكرامة الحرية عوضا حسنا عن كل خسارة في

(٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) راجع : مجلة « الكتاب » الصادرة في ١ من مايو سنة ١٩٤٧ .

المصالح والاموال ، أما بعد الاجلاء فان اساءة الحكومة تثيرنا على أنفسنا ، وتقدح في كفاءتنا وكرامتنا ، فتجمع علينا بين خسارة المصالح والامـوال وخسارة الثقة والاخلاق[٧٠] .

و « أخشى ما أخشاه على الاداة الحكومية بعد الجلاء أن تسـري محنة الاحزاب الى موازين الجزاء والعقاب في مراقبة أعمال الموظفين ، فيخطىء المخطىء من الموظفين وهو آمن على نفسه من أن يجزى بخطئه لانه يتشفع الى الرؤساء بشفاعة الاحزاب ، ويبحث الرئيس حوله عمن يحسن العمل فلا يجده لان المحسن لا يرجو جزاء المحسنين ، ويحاول اصلاح العيوب في ديوانه فلا يستطيع الاصلاح ، لان الموظف المهمـل أو المسيء قد وثق من البقاء ووثق من الاعفاء والاغضاء ، ان لم يثق فوق ذلك من الترقية وحسن الجزاء »[٧١] .

وفي تصور العقاد أن أضخم المسؤوليات بعـد الجـلاء هي مسؤولية الشعب ، لانها هي المرجع الاول والاخير في كـل مسؤولية تلقى عـلى الحكومات . ذلك أننا تعودنا أن نرجع الى الحكومات بجميع الذنوب ، فعلينا أن نتعود قليلا قليلا أن نرجع باللوم الى أنفسنا قبل أن نرجع به على الرؤساء الذيـن نرفعهم الى مناصب الحكم بأيدينـا . فنحن نلوم المستوزرين على عبادة المناصب الحكومية ، ونحن نحن الذين نوحي اليهم تلك العبادة ، لاننا نعبدهم ونتخذهم أربابا تحف بهم هالات المجد والعظمة كلما تسنموا غارب الوزارة ، عـلى استحقاق أو عـلى غـير استحقاق . ونبغض الرجل الذي يستقيم في حكمه ويغلق بـاب الشـفاعة في وجوه المتطفلين على العدل والحق والقانون . ونحن نلوم الزعماء على التدجيل والتضليل ونحن نحن الذين نغريهم بالكذب علينا والعبث بعقولنا ، لاننا نصدق الدجال المضلل ونعرض عن الامين الصريح[٧٢] .

(٧٠ ، ٧١ ، ٧٢) راجع : مجلة « الكتاب » الصادرة في ١ من مايو سنة ١٩٤٧ .

ثم يختتم كلامه في هـذا الصدد بقوله : « فاذا أردنا أن نجمع مسؤوليات الخلاء كلها في مسؤولية واحدة ، يرجع اليها كل حساب وتنطوي فيها كل تبعة ، فتلك هي مسؤوليتنا نحن أمام أنفسنا .. تلك هي مسؤولية الامة كلها قبل كل حاكم وكل حكومة .. وهكذا ينبغي أن تكون تبعات الاحرار المستقلين في عهد الحرية والاستقلال »[٧٣] .

وتأسيسا على هذا الفهم نراه يرى أن العيب في نظام الحكم وحده سهل العلاج مستدرك الاخطاء ، وانما العيب الذي يحسب له كل حساب هو عيب المحكومين أو عيب الرعية على اختلاف الرعاة[٧٤] .

فالملكية الدستورية المقيدة اذا قيل انهـا معيبة ، لان الملك يتخطى حدوده ، فلنذكر دائما أن الشعب الذي لا يكبح الملك حين يتخطى حدوده لن يكبح جماح رئيس الجمهورية الذي يطغى عليه ويمهد لاستقرار حكمه ، وتجديد انتخابه ، وقمع كل معارضة تقف له في طريقة . و « اذا قيل أن نظاما من الانظمة يعطي الشعب حرية لم تكن له فهذا القول أقرب الى المزاح منه الى الجد الصراح ، لان الحرية والنظام كليهما من الشعب واليه ، فان لم يكن للشعب حرية من طبيعته فالنظام لا يخلق للطبيعة الخاضعة حرية ترفض الخضوع والخنوع »[٧٥] .

ويؤكد العقاد هذا القول بما كتبه في ختام كتابه « فلاسفة الحكم في العصر الحديث » حيث ذهب الى أن نوع الحكومة لا يهم ما دام المحكومون على قسط وافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاة باحترامها ، غير أن المبدأ القائل بأن الحكم من الامة للامة هو أصلح المبادىء لمجاراة هذه الحاسة السياسية في وجهتها ، وهو المبدأ الذي يعطي المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار الافضل من الساسة الاكفاء من القادة والولاة ورؤساء الدواوين ، وكما جاء في الاثر (كما تكونوا يول عليكم) .

(٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٥٣ تحت عنوان « مصر والجمهورية » ص٥ وما بعدها .

ومن ثم يرى العقاد أنه ليكن عنوان رئيس الدولـــة كيف كـان ـ رئيس جمهوريـــة أو امبراطورا أو ملكا أو ما شــاء من الاســماء والالقاب ـ فانما المعول في جميع الحالات على تربية الحاسة السياسية عند المحكومين وعلى صلاحهم لتمثيل دور الرعية قبل صلاح الحاكمين لتمثيل دور الرعاة(٧٦) .

ويرى العقاد أن الشعب الصالح لن تستقر فيه حكومة فاسدة ، وأن الشعب الفاسد لن تستقر فيه حكومة صالحة ، وكل بحث في غير هــذا هو بحث في غير الجوهر الصميم . اذ أن العيب الاكبر في النظام الملكي هو اطلاق حق الوراثة ، فاذا كان هذا الحق مقيدا بقيود المصلحة القومية فالمرجع فيه الى اختيار الشعب ولا فرق اذن بين الملكية والجمهورية في آخر المطاف(٧٧) .

ومعنى هذا أن أنظمة الحكم اذن ـ في تصور العقاد ـ ليست سلما يرتقي مـع الجمهورية ويهبط مع الملكيــة ، وليس المهـم هو احصـاء العيوب على كل نظام ، فما من نظام قط الا وهو عرضة للعيوب ، وليس العيب في النظام شيئا اذا كان مقصورا على النصوص والاوضاع ولم يكن متغلغلا في الاخلاق والعادات(٧٨) .

ويرى الدارس أن القاء العقاد التبعـة في الحكم عـلى عاتق الشعب ليس معناه دفاعا عن نظام معين من الحكم ، لانه دافع في الوقت نفسه عن الشعب أمام الزعم القائل بأن الشعب المصري مستكين لا يثور ، وسكن الى النظام الملكي ، لانه لا يستطيع الثورة عليه(٧٩) .

وفي دفاع العقاد ذهب الى أن هذه فرية لا تستند الى دليل من الواقع اذ أن الواقع يكذب هذه الدعوى التي لم يعتمد دعاتها في اثباتها الا عـلى الاكاذيب الشائعة التي ينفيها تاريخ مصر في جميع العصور ، فقـد كانت الفترة قبل الاسرة الخامسة الى ما بعد الاسرة العاشرة بقليل سلسلة من

(٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٥٣ .

الثورات التي لا تنقطع في الوجهين البحري والقبلي . وقد ثار المصريون على قياصرة الروم قبل الميلاد وبعده . وثاروا كذلك على « نابليون بونابرت » مدوخ الامم في أواخر القرن الثامن عشر . وثاروا على الدولة البريطانية وهي ظافرة بالنصر في الحرب العالمية الاولى[٨٠] .

ثم يعلل العقاد نشأة الحكم الملكي في مصر واستقراره فيها « بأن مصر لا تستغني عن سياسة واحدة لنهر النيل ، ولان الرؤساء المحليين في الوجهين البحري والقبلي لا يملكون أعنة هذه السياسة ولا غنى لهم عن ادارة واحدة تشرف على الري أثناء الفيضان على الخصوص ، كان هذا قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرنا . وها نحن أولاء بعد عشرين قرنا من الميلاد نحاول أن نحل القضية بغير الوحدة بين أجزاء وادي النيل فلا ننتهي الى وجهة نظر أخرى تكفل لابناء الوادي حلا أوفق وأجدى على الجميع »[٨١] .

ويرى العقاد في هذا الصدد أن الحكومة الصالحة لوادي النيل في العصر الحاضر هي الحكومة التي تتمثل فيها مصالح المنتفعين بالنيل من أقصاه الى أقصاه ، « ولتكن ملكية اتحادية ، أو جمهورية اتحادية ، أو ما شاءت لها الاوضاع والمصطلحات أن تكون ، فلا مشاحة في الاصطلاح من وجهة نظره »[٨٢] .

على أنه يذهب كذلك الى أن مصر ليست ملكية من قديم الزمن لانها أقل حرية أو أقل اقتدارا على الثورة من الامم التي اختارت الحكومة الجمهورية ، فلو كانت شعوب الجمهوريات في مصر ، لكانت ملكية مثل مصر ، ولو كانت مصر في أوطان تلك الشعوب لكانت مثلها من شعوب الجمهوريات[٨٣] .

وبالاضافة الى ما سبق يصل العقاد من طريق النفي والسلب الى طريق الايجاب والتقرير ، اذ أن مصر ستختار لنفسها أصلح الحكومات

(٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣) راجع : الهلال الصادرة في ١ نوفمبر سنة ١٩٥٣ .

يوم تختار الحكومة التي تكفل الوحدة والرضى لابناء النيل ، » وقد كان فاروق يتنبأ عن زمن لا يبقى فيه من أصحاب التيجان غير ملوك (الكتشينة) الاربعة ، فان كان الملوك كلهم مثله فلتصدق نبوءته في مصر وفي غيرها ، فلعل ملوك (الكوتشينه) الذين يربحون ويخسرون خير من صاحب تاج يجر وراءه الخسارة حيث كان »[٨٤] .

وتأسيسها على هذا الفهم نراه يعد الاستقلال خطورة في طريق أهدافنا القومية ، ولكنه مع هذا اول الطريق ، وليس بنهاية الطريق ، وليس معنى هذا اننا نطمح الى السيادة على اناس اخرين ، « لانني انقبض انقباضا طاحنا اذا نظرت الى انسان ذليل ، ولو جاءني احد يعرض على ان استعبده طائعا مختارا لما قبلت استعباده ، وذلك لانه ليس همنا وراء الاستقلال ان نجور على استقلال احد ، وانما همنا ان نكون في العالم منتجين ولا نكون فيه على الدوام مستهلكين، وأن نشترك بسهمنا الراجح في أمانة الحضارة العالمية ، فلا نقصر في الميدان عن أمة ولا نقنع بما دون الطليعة في ترقية الحضارة ، واقل من هذا الهدف غير جدير بامة تعيش في مجتمع الامم المتقدمة وتفهم معنى الحياة[٨٥] .

وفيما يختص بالعروبة فانه يفخر بثقافتها ولغتها وحصتها الكبرى في ترقية الحضارة ومن ثم يرى ان على مصر امانة لا ينهض بها غير شعبها ، وذلك لان موقعها واسطة العقد بين العروبة في القارة الآسيوية والعروبة في القارة الافريقية . ومن ناحية اخرى يضاعف هذه الامانة على عاتق الشعب المصرى كثرة العدد وزيادة المادة من المال والتعليم[٨٦] .

وخلاصة الخلاصات في هذه الامانة كما يراها العقاد تتمثل في توحيد مجال الثقافة العربية ورفع الحواجز الثقافية بين ابناء العروبة ، اذ ان تقطيع جهات الثقافة العربية فيما مضى قد حال بينها وبين القوة التى تستحقها ، ولا حاجة الى التفصيل في هذا المقام ، لاننا حين نجعل مجال

(٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦) راجع : الهلال الصادرة في أول نوفمبر ١٩٥٣ .

العروبة مجالا تشترك فيـه الامة العربيـة جمعاء تتقدم الى الطليعـة بين اللغات العالميـة[٨٧] •

ويرى العقاد ان ميزان السلامة والاستقرار في الشـرقين الادنى والاوسط ، اذ نحن ابناء البلد الذى يتوسط القـارات الثلاث ، ونحن في بقعة من الارض لايستقر العالم اذا اضطربت ، ولا يضطرب العـالم اذا استقرت ، ولم يحدث فيالزمن الاخير حدث عالميقط الا كان رده وصداه على هذه القطعة من الارض ، فاذا ملكنا ارادتنا فهى حجاز الامـان بين المشرق والمغرب وبين المتنازعين من كل وجهة[٨٨] •

وبجانب ذلك عندنا مصفاة الثقافات والدعوات ، فاذا استخلصنـا شيئا من الغرب وشيئا من الشرق ، فليس اقدر منا على تصفية الخلاصـة لبنى الانسان جميعـا في ثمرة لا شرقية ولا غربيـة تضيء ولم تمسسها نـار[٨٩] •

أما افريقيا فانه يرى ان مزيتنا هي مقامنا الاول في القارة الافريقية ، اذ لا يتقدمعلينا متقدم من ابنائها ، وسيأتي اليوم الـذي يخـرج فيه المستعمرون من جنوب القارة ، ولا يطرق خيال احد ان يأتي اليوم الذى تنجلى فيه الامة المصرية من القارة الافريقية[٩٠] •

ويطالب العقاد المسؤولين بأن يكون مقامنا مقام رحمة بهذه القـارة ، ولا نكون ذريعـة لاستعبادها بتسليمنا نحن في حريتنا ، فالقارة السـوداء كلها مستعبدة ان لم تبلغ مصر حقها من حريتها واستقلالها • « ومصر اولا واخيرا هي الامة « الدمثة » من أثر التربة والحضارة ، وهذه الدماثـة تعد ذات محاسن وذات عيوب • ومن الرجاء الصادق ،المستقبل ان هـذه العيوب قابلة للزوال ، لان النيل الذي اكسبنا هذه الدماثة على طول العهد بالزراعة والمحرات كفيل « بتصنيع » هذه البلاد فلا تغلب عليها صبغـة الزرع ولا صبغة الصناعة[٩١] •

(٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١) راجـع : الهـلال الصـادرة في أول نوفمبر ١٩٥٣ •

وفي ضوء ما سبق رأيناه ينقد كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبدالناصر ،اذ تناولها بالنقد في كتيب مستقل تحت عنوان « فلسفة الثورة في الميزان» ، وقد ذهب في نقده الى أن شعار الثورة (الاتحاد • النظام • العمل) هو شعار المصريين اجمعين بغير فارق في وجهته ولا في دواعيه ، وليست العقبة في طريق الاصلاح مبدأ من المبادىء الاصيلة يدين به فرد او طائفة من الامة المصرية ، ويجسر على المجاهرة به بغير مواربة ولا نفاق، ولكن العقبة في طريق الاصلاح هي العوامل المصطنعة التى لا تجرى مع الحق والواقع في مجراه[٩٢] •

ويرى العقاد ان هذه العوامل المصطنعة هي آفة الآفات ، وهي العقبة الكؤود في كل طريق، ومن أمثلتها اسرة مالكة يقضي وضعها الصحيح أن تكون « سلطة شرعية » تحارب السلطة الفعلية بقوة الامة ، ولكنها في الواقع انما كانت تعمل على الغاصب الذي يحتمى في ثورة الامة بقوة الاحتلال ، وتحسب انها في أمان من الثورة عليها ما دام الاحتلال في البلاد[٩٣] •

ومن الامثلة الكبرى على العوامل المصطنعة ايضا ، وزارات الكثرة المزعومة التى عرفتها مصر بعد مفاوضات المعاهدة ، فان الوضع الصحيح لوزارات الكثرة ان تقوم بتأييد الامة المعارضة المحتلين ، ولكنها في الواقع انما كانت تأتى على الدوام بطلب المحتلين لتسليم البضاعة ، وكانت في موقفها المتناقض تعجز عن ارضاء الاحتلال ، وعن ارضاء الامة في وقت واحد[٩٤] •

وهناك الدفاع الكاذب عن الاقطاع باسم التاريخ او باسم الدين ، فما كانت في مصر ملكية زراعية ترجع في العصر الحديث الى ابعد من القرن التاسع عشر ،والاسلام يرحب بتعميم الملكية • وينكر كل الانكار ان

(٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) عباس العقاد : فلسفة الثورة في الميزان ، الطبعة الاولى ، دار المعارف سنة ١٩٥٥ •

تنحصر في ايد معدودات •

على ان العقاد يرى ان فلسفة الثورة لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في اوسع حدودها ، فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا ، ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق ، او عوالم لا انفصال لها من وطنه ، وهي العالم العربي ، والعالم الافريقي ، والعالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه[٩٥] •

وبالاضافة الى ما سبق يؤكد العقاد في نقده ان مصيبة الاستعمار ، انه اوقع في النفوس ان السياسي لا يهتم بامة اخرى الا ليطمع فيها أو يبسط سيادته عليها ، ولكننا حريون أن نذكر على الدوام اننا (غير مستعمرين) واننا لا نحتاج الى جهد كبير او صغير لننفي هذه الشبهة عنا ، فليس في وسع احد ان يتهمنا بها ويجد من ذوى العقل السليم من يستمع اليه[٩٦] •

وفي تعقيبه على كلام الرئيس فيما يختص بعلاقاتنا بهذه العوالم : أين نحن من العالم العربي ؟ أين نحن من العالم الافريقي ؟ أين نحن من العالم الاسلامي ؟ نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنا ان نجهل علاقتنا به ومستقبلنا فيه[٩٧] ؟

في تعقيبه نراه يصف كلام الرئيس بانه كله صحيح في الجملة والتفصيل ، « وليس الاهتمام به من طموح الشباب كما يتخيل المتخيل الوداع في عقر داره ، بل أخشى أن أقول انه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها بل من همومها في ابانها ان كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ ، ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي فضيعه بدلا من تزويده باسباب القوة والمناعة ؟ وماذا نصنع ان اصبحت افريقيا للمستعمرين الاوربيين ولم تصبح في الغد القريب افريقيا للافريقيين ؟ • وماذا نصنع اذ

(٩٥ ، ٩٦) راجع : فلسفة الثورة في الميزان •

(٩٧) جمال عبدالناصر : فلسفة الثورة •

تهدم معنى الحياة كما تمثله المادية الحيوانية او كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من انتيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة[98] .

ويرى العقاد انه يجب الا نهدء ولا ننام ، والا نعفي من يأتى بعدنا من العمل ، فاننا ان اعفيناه من العمل أسأنا اليه ، ولكننا نترك له واجبه ، وننهض بواجبنا ، وواجب كل جيل من اجيال الامم ان يبقى لمن بعده أمانة ، ولا يبقى له قيودا من عمله او اثقالا من جرائر اهماله وتفريطه ، واذا استطعنا ان نقول للاجيال المقبلة : ان دينكم لنا اعظم من ديننا لاسلافنا فنحن الاوفياء وهم الرابحون[99] .

٣ - في رحاب الثورة :

على ان العقاد كان اول من استقبل الثورة المصرية استقبالا رائعا ، وتمنى لمصر على يد الثوار عهدا جديدا تصان فيه الكرامة وتكثر فيه الاعمال والجهود ، ويختفي الذل والضيم ، ولا يسام فيه المصريون سوم العبيد على هوى الحكام ، وذلك في قصيدته « عيد النيروز » التي نشرها في صحيفة الاخبار[100] :

اهلا بنيروز وليد	أهلا بميلاد سعيد
يوم جديد ، قلت بل	عهد على مصر جديد
عهد تصان كرامة	فيه ، وتتبعها جهود
لا تستذل ولا تسا	م على الهوى سوم العبيد
وغدا ستنقشع الغيو	م فلا بروق ولا رعود
ما كان غير الصالحين	لهم قرار في الوجود

ويمضى في قصيدته مؤكدا ان الثورة حصن وطيد لمصر ، تتهاوى على

(٩٨ ، ٩٩) فلسفة الثورة في الميزان .

(١٠٠) جريدة الاخبار الصادرة في ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ العدد ٧٣ .

صخرته الاصنام ، ويرد كيد الباغي لمصر والحسود لها بفضل الله(١٠١) .

مصر الكنانة كعبة — قرت على حسن وطيد
لا تلبث الاصنام فيه — ان تنكس او تميد
كم ذا اراد بها الاذى — باغ ، وكاد لها حسود
يمضى يعدد ما يريد — والله يفعل ما يريد
وتراه ضاع وظنه — الا يضيع ، ولا يبيد

ثم يتساءل العقاد عن الذين خانوا مصر من كل مسخ هازل تزيى بزي الجبار العنيد ، وحاكى الاسود في التجبر ، والقرود في العربدة ، معتمدا في طغيانه على مصر على صولجانه وبنوده ، ولا يجدى في هدايته النصح ، ولايفيده العتب ، ثم ذهب وولى مع صحبه ، لان الله اقوى من كل شيطان مريد(١٠٢) :

يا مصر يا بنت الخلود — يا معقل المجد التليد
أين الذين جزوك جا — زية الخيانة والكنود
من كل مسخ هازل — في زي جبار عنيد
يحكى الاسود تجبرا — وكذاك عربدة القرود
طاغ عليك ، ومنك لا — منه الصوالج والبنود
وكأنما في جوفه — نار تلظى بالوقود
ابدا تنادى كلما — اطعمتها هل من مزيد
لا نصح يجدي في هدا — يته ولا عتب يفيد
أين القرار به ؟ وأين — اليوم مركبه المجيد ؟
ولى وولى صحبه — لا غائبين ولا شهود
من كل مغلوب على — كمد ومنبوذ شريد
الله اقوى قوة — من كل شيطان مريد

(١٠١ ، ١٠٢) جريدة الاخبار الصادرة في ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ العدد ٧٣ .

كم ذا استعز ببأسه فأذله البأس الشديد
بأس الجنود العاملين يقودهم رب الجنود

ثم يخاطب القائد الثورة واخوانه من خلفه ، بأنهم قد وفقوا الى النهج السديد وانهم بثورتهم قد حيوا النيل المبارك واحتفوا بالصعيد[١٠٣] :

يا صحبة التوفيق وفقتم الى النهج السديد
حييتم النيل المبارك ، واحتفيتم بالصعيد

ويرى الدارس انه ليس بغريب ان يتقبل العقاد الثورة بقبول حسن لانه طالما صارح اصدقاءه بانه اذا خلع فاروق فلن يتم خلعه بمعزل عن الجيش او الازهر ، وقد يخلعانه متفقين[١٠٤] .

ويجرد العقاد الادباء بانهم لم يقوموا بكل ما يجب ازاء الثورة ، واقتصر دورهم على التهييء لها وطلب التغيير ، وذلك لانهم يعيشون في جو المطالب المثالية ولا يقيسون الامور بمقاييسها العملية الواقعية ، ولا يمنع هذا من ان الاديب الثائر قد يكون شعلة الثورة بجميع الاهيبها دون ان يقضى حياته في تصريف فعل الثورة من ثار يثور ثورانا[١٠٥] .

على انه يصف الثورة التي تنبأ بها قبل شهرين من وقوعها فيمجلس حافل بالادباء والشعراء والاساتذة في الجامعة والصحفيين ـ ولم يخش شيئا من وصول حديثه الى السراي واذنابها ـ ، والتي دعا اليها في مجلس النواب في عام ١٩٣٠ وسجن من اجلها ، يصفها « بانها جاءت سليمة لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الامور ، وقد كان الخلاص من عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها ان تقدم الامة في سبيلها على خسارة في الارواح والاموال ، واضطراب الامور شهورا او اكثر من شهور ، فلما تكفل الجيش للامة بالثورة التى كانت مطلوبة منها ، عوفيت من

---

(١٠٣) راجع الاخبار الصادرة فى ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ العدد ٧٣ .

(١٠٤) راجع : الهلال الصادرة فى ١ من ديسمبر ١٩٥٢ .

(١٠٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من يولية سنة ١٩٥٣ .

جرائرها واهوالها وانتظمت الإمور في سياقها وانجلى ملك مكروه من عرشه بايسر من جلاء عيدة في قرية صغيرة ينصره اناس ويخذله آخرون[١٠٦] .

ويرى العقاد انه من التوفيقات الالهية ان يتولى قيادة الجيش في هذه الحركة رجل من اصلح القادة لحرب الاقطاع ، رجل لو قيل فيه انه محصن الضمير « بمصل نفساني » مضاد لآفات الاقطاع لما اختلف تعبير المجاز وتعبير الحقيقة في وصفه ، فان آفات الاقطاع جميعا تتلخص في الولع بالمظاهر والاستكثار من جمع المال بغير حاجة اليه[١٠٧] .

على انه لم يكن كافيا ـ في تصور العقاد ـ لتمام العمل التاريخي الذي لا يتكرر كل يوم او كل جيل ان يزول فاروق ويبقى بعده الف فاروق او اكثر من الف فاروق ، فليست نهاية فاروق هي نهاية الحركة ، ولكنها فاتحت عهد لابد ان تستقر على اساس وطيد[١٠٨] .

وفي تصور العقاد انه لابد ان نعلم المحذور الذى اتقيناه ولا نزال نتقيه ، وهو شعور الموظف الفاسد بحماية الفساد الاكبر له ، انه يخالف الشرع والعرف والحياء ولا يبالى العاقبة ، لانه يخدم بالمخالفة سيدا يغريه بها ويكافئه عليها ، فاذا زال هذا السيد وزالت هذه الحماية فقد زال المحذور[١٠٩] .

ويطالب العقاد قيادة الثورة بأن تعمل على تأمين كل عامل بزوال حماية الفساد وقيام حماية في مكانها ، تؤيد الصالح المصلح وتملأ سريرته بالطمأنينة الى النجاح والتوفيق فيما يتوفر عليه ويصمد له من الخدمة العامة والجهد الشريف .

ويخلص العقاد من هذا كله الى قوله : « كانت حماية المفسدين رأس الفساد ، فاذا زالت هذه الحماية المفسدة وقامت في مقامها الثقة

(١٠٦،١٠٧،١٠٨) راجع : الهلال الصادرة فى ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(١٠٩) المرجع السابق نفس العدد .

بحماية العمل النافع والعاملين النافعين ، فذلك هو رأس الصلاح والاصلاح[110] » .

* *

والمطلع على ما كتبه العقاد في الثورة المصرية يرى انه كان يعتقد ان فاروقا كان له من الفضل في قيام الثورة ما لم يكن لادباء مصر مجتمعين منذ خمسين سنة ، فلو انهم صمدوا خمسين سنة يكتبون في وجوب الثورة لما اقنعوا الناس بحقهم فيها ، كما اقنعهم فاروق بعمله وقوله وجده وهزله ، وذلك هو فضله الاول الذى يرفعه الى اسفل[111] .

ويرى العقاد في هذا الصدد ان من توفيق الله للادب الثائر في مصر انه وضع النظريات وجاءه التطبيق في شخص ملك واحد بما يعيى عشرات الملوك[112] .

وفي تصور العقاد ان فاروقا لم يضع لنفسه سياسة يحمي بها عرشه ، ويوطد عليها دعائم حكمه ، ويرجح العقاد أن فاروقا تلقى وصية من أبيه يطالبه فيها بالاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر[113] .

وهذه السياسة ـ من وجهة نظر العقاد ـ أصح سياسة ، ولاشك ، لانه ليس أنفع للعروش من ولاء القوة والعقيدة ، وهما متمثلتان في رجال الجيش ورجال الدين ، « ولكنهما منفعة لا تتأتى الا للملك النافع ، فان كان ملكا غير نافع كفاروق ، فأخطر الخطر عليه من حيث يقدر الحماية والامان »[114] .

وينعى العقاد على فاروق فهمه للاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر ، اذ فهم ـ خطأ ـ أن يفرض على كل منهما أعوانا وأذنابا يخدمونه ويخدمون مصالحهم في وقت واحد ، ووقع في خلده أنهم يخشونه لا محالة ما دامت مصالحهم مقرونة بمصلحته وما دامت مناصبهم

---

(١١٠) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(١١١،١١٢) راجع الهلال الصادرة فى ١ من يولية سنة ١٩٥٣ .

(١١٣ ، ١١٤) نفس المرجع بتاريخ ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

موقوفة على مشيئته ، فما زال على هذا الجهل حتى انتهى الامر الى موقف لا لبس فيه بينه وبين جيشه[١١٥] .

« وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين ، فلما تكشفت تلك الحرب عن فضائح السلاح لم يبق في الجيش المصري ضابط ولا جندي يضمر الولاء للملك المجرم الذي بلغت به الضعة ، والعياذ بالله ، أن يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة القتال ، وشملت الريبة كل عامل في القوى العسكرية من المقربين اليه والمقصين عنه على السواء »[١١٦] .

ومن ثم أعلن الجيش بحق أنه يحارب فساد فاروق ، ولا يقصر حربه على شخص فاروق ، وبحق أعلن كذلك أنه فساد في نظام الاقطاع كله ، فلا يتأتى القضاء عليه اذا انقضى فاروق وترك وراءه ألوفا من الفواريق الصغار[١١٧] .

ثم يدفع العقاد شبهة ربما تعرض لسائل يسأل عن علاقة الجيوش بهذه الشؤون ، يدفعها العقاد حينما يذهب الى أنه على هذا السائل أن يسأل كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق . ان فاروقا قد نزل عن العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، استجابة لرغبات الامة التي أعرب عنها الجيش في بيانه[١١٨] ، فلو أنه بقي على العرش الى نهاية أجله فلا يعلم الا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية الى هاوية ، وتتقهقر من نكسة الى نكسة ، وتتهافت من خراب الى خراب ، وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذي جعلها مضغة في أفواه العالمين ، وأسقط الثقة بها في حساب العروض والاعراض[١١٩] .

أما اذا قدر له أن يخلع قبل نهاية أجله ، فمن المستبعد جدا أن يتفق ملوك الاقطاع الصغار على خلع ملك الاقطاع الكبير ، وانما يجيء

(١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧) راجع : الهلال الصادرة بتاريخ ١ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(١١٨) راجع : مجلة الكتاب الصادرة في ١ من أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

(١١٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢

خلعه بقوة أجنبية ، تعصف باستقلال البلاد[١٢٠] .

على أن العقاد يرى أنه اذا كانت حركة الجيش قد عصمت مصر من هذه العاقبة ، وكلها شر لا خير فيه ، فمن حقه ، بل من واجبه أن يدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكد يخرج منها ، ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء نظام الاقطاع على شره الذي عهدنا ، « ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة ، فانها حماية لهم في آخر المطاف »[١٢١] .

ولم يكتف العقاد بأن يبين خطل فاروق وفساده ، بل رأيناه يحاول أن يحلل نفسيته ، وأن يرجع بواعث فساده الى مصدرها من تلك العلة التي تصاحبه فتخرجه عن سوائه[١٢٢] .

وفي هذا الصدد يذهب الى أن فاروقا في رأي الاكثرين لم يسلم من مرض نفسي ، وقد ازداد الظن باختلاله وثوقا على أثر الاخبار التي علمت عن أطواره المجهولة مما كان يطلع عليه خاصته ويكتمونه أو ينشرون ما يناقضه[١٢٣] .

ومن ناحية أخرى لحظ بعض الأطباء الاجانب أعراض الاختلال على تكوينه بعد الكشف عن اصاباته في حادث القصاصين ، وقيل أن عشراءه كانوا يشهدون منه على الدوام نزوات عنيفة لا تصدر عن العقلاء[١٢٤] .

ويطبق العقاد النظريات النفسية على أخبار فاروق وأطواره ، فيجد أنها تنطبق تارة على جنون القسوة Sadism وتنطبق تارة أخرى على جنون السرقة Kleptomania وتنطبق تارات على جنون الشهوة Satyriasis

---

(١٢٠ ، ١٢١) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(١٢٢،١٢٣،١٢٤) راجع مجلة الكتاب الصادرة فى ١ من اكتوبر سنة ١٩٥٢ .

ثـم يتحـدث عـن أعـراض من الجنـون التي اعترت فاروقـا ويضيف اليها نوعا آخـر من المرض هـو توقف النمـو الـذي يسمى Arrested development وتتفرع عليه حالة تسمى بحالة التثبت Fixation وقد كانت ظاهرة الاعراض على فاروق(١٢٥) .

وفي مقام التوضيح يذهب العقاد الى أنه قـد يكون الرجل مستوفيا نموه الجسدي وهو مع ذلك طفل في نموه الاجتماعي أو العقلي ، ويشعر نحو أبيه شعور الطفل نحو الاب الذي يعوله ولا يقوى على فراقه ، كما يشعر صاحب هذه الآفة بقصوره وتلعج نفسـه « بمركب النقص » الذي يدفعه الى اظهار القوة واظهار القسوة والشك في كل أحد غـير « محور التثبت »(١٢٦) .

وتأسيسا على هذا الفهم يفسر العقاد قسوة فاروق ، كما يفسر ولعـه بالاستيلاء عـلى كل ما يراه ، ويفسـر كذلك مظاهراتـه وتمثيلياته التي حسبها بعضهم من جنون الشهوة ، اذ هـي في حقيقتها « مركب نقص » في طبيعة لا تشعر باستيفاء كيانها ، ومن هنا تتخلص من ألم النقص بتلك المظاهرات والتمثيليات(١٢٧) .

ثم ينعي عـلى فاروق أنـه كان يصنع ما يروقـه ويأبى أن يحاسب نفسه ، ويتعالى أن يحاسـبه غيره ويستمع الى ثنـاء المتملقين ، وينفر من نصيحة المخلصين ، ومن هنـا أطبقت عليـه البليـة وامتنعت عليـه سبل النجـاة(١٢٨) .

* *

(١٢٥،١٢٦،١٢٧،١٢٨) راجع : مجلة الكتاب الصادرة فى ١ مـن أكتوبر سنة ١٩٥٢ .

الفصل السادس

مع الاشتراكية

١ ـ الاشتراكية الغابية :

يرى الدارس لموقف العقاد من الاشتراكية ، أنه لم يكن اشتراكيا فحسب ، بل كان شديد التشجيع للاشتراكية منذ شبابه الباكر ، وذلك حينما طالب الحكومة في كتابه « خلاصة اليومية » بأن تستولي على ثروة الغني الذي يموت ، لتحسن بها حال المجموع وليس لابنائه في ثروة أبيهم حق أي حق سوى أن تتولى الحكومة تربيتهم ، وفي ذلك يقول العقاد :

« اذا مات رجل عن مائة ألف جنيه ، وخلف وراءه ابنا ، فكيف يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأي مسوغ يستحل ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الامة .

« نعم ان على الوالد أن يربي ولده ، وله أيضا أن يعينه على انشاء مستقبل له في الحياة ، فليكن الامر كذلك ، فليس في هذا نزاع ، فاذا مات ذلك الاب فلتقم الحكومة مقامه ، فتتولى تربية ولده ، وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الاعمال ، ولتتركه بعد ذلك يلاقي ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الافراد »[١].

وفي موضع آخر نراه يصدر عن هذا المتجه الفكري مؤكدا سوء توزيع الملكية في القرن التاسع عشر ذاهبا الى أنه خلل لا يستقيم حال الجمعية البشرية الا بتلافيه حينما يقرر أنه ليس للانسان حق في أن

---

(١) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٧٦ .

يحتجز من الثروة العامة الا بقدر ما يقدم لها من العمل فالرجل يسقط حقه في التصرف بثروته متى انقطعت أعماله بموته ، وعلى الهيئة الاجتماعية الانفاق من ريعه على من يهمه أمرهم من بعده ، « يترك الرجل لابنه ضيعة ، والضيعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها الا سعيا طفيفا ، ولكنها لا تنال بعد عشرة أعوام الا بتكبد المشاق والصعاب ، فيتمتع ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملا في نظيره ، وهو خلل متشعب في تقسيم ثروة الامة لا يستقيم حال الجمعية البشرية الا بتلافيه »[٢] .

ولنا أن نتساءل الان : هل ظل العقاد على هذا الفهم أم أنه رجع عنه ؟ لانه ربما يكون قد صدر فيما سبق عن فورة شباب يطمح الى المثل الاعلى ، ثم انطفأت فيما بعد .

وللاجابة على هذا التساؤل نقرر أنه دافع عن الاشتراكية دفاعا مجيدا، حينما نقد كتاب «سر تطور الامم» للدكتور جوستاف لوبون، العالم الفرنسي ، الذي عربه فتحي زغلول الوزير المصري في عام ١٩١١ تقريبا .

وفي هذا الصدد لم يرتض العقاد من المؤلف حملته المنكرة على المساواة والاشتراكية ، وتشاؤمه من الاشتراكية ، كما يتشاءم الناس من نعيب البوم لا يعلمون لذلك التشاؤم سببا ، لان دعاة المساواة لم يقولوا : ان الناس طبعوا على غرار واحد في العقل والفضل ، وهل ترى أن دعوتهم الى تساوي الناس في الحقوق أو القانون تعطل تنازع البقاء بينهم. وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ، ومن هنا ترى أن دعوة المساواة حرية أن تفسح المجال لهذا التنازع ، وترفع العوائق التي يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار[٣] .

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٣،٤) عباس العقاد : الفصول ص ١٥٨ــ١٦٠ .

ويرى العقاد أن دعـاة المساواة لم يعن واحـد منهم العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف في الجامعة ، أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس ، ان مثـل هـذا الداعي لم يقـم ولن يقـوم ، لان مديري البيمارستانات لا يفرطون في مثله اذا ظهر ، بل كل ما يعني بـه الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير أنه يكون متساويا مع سائر الناس في الامن على حياته ، وهل في ذلك ضير ؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقـه في المعارف أو المواهب العقلية عـلى سواه ، فأي ضير فيه ؟(٤) .

ويذهب العقاد الى أن المساواة لا تتمثل في الامن على حيـاة العامل فقط ، بل تتعدى ذلك الى الانتخاب ، حيث انهـا في هـذه الحالة توجب الديمقراطية ، وعدمها تنديد بروحها ، لان لكل انسان من الاصوات في الواقع بقدر ما له من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وكذلك يصبح أكثر الناس عقلا واستعداد للاقناع أكبرهم قسطا في سياسة بلاده ، فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شـراء الاصوات ، ويستخدم تلك الاصوات المتعددة في غرض واحد ، فذلـك ما ينقم عليه الاشتراكيون أشد النقمة(٥) .

وفي هذا الصدد يقول العقاد : « وهبنا أبطلنا اليوم مذهب المساواة ، فمن يا تـرى يحكم بين الناس ، ويقـدر لكل منهم ما هو أهل لـه من الحقوق السياسية والادبية ؟ أترانا نلجـأ في ذلـك الى الحكومة ؟ ذلـك ما يأباه الباحثون ، لانهم يريدون أن يقصروا عمل الحكومة على الضروري الذي لا يسع الافراد القيام به ، فأولى بالباحثين وهذه ارادتهم ألا يدعـوا الحكومة تتدخل بين الناس حتى في ترتيب أقدارهم ، وتمييز درجاتهم ، كأنما هـم كلهم موظفون في دواوينها ـ فلم يبق اذن الا أن نترك الناس يدعي كل منهم من الحقوق ما يقدر على تحصيله بذراعه ، وبمثل هـذا النظام نثوب الى الصواب ، ولا نكون قد تركنا أضغاث أحلامنـا بالمساواة تغشي بصائرنا »(٦) .

(٥ ، ٦) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٠ـ١٦١ .

وفي تصورنا أن العقاد يؤمن بالاشتراكية ايمانا شديدا ، لانه ينعي على صاحب كتاب « سر تطور الامم » أنه شديد الطيرة من الاشتراكية وتمثيلها تمثيلا مشوها ، لانه يعمد الى شر مذاهبها فيعرضه على القارىء في حالة مشنوعة ، ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها ، فتارة يحكم بأنها ستؤدي بالامم الى أرذل درك الانحطاط ، وتارة يعرضها لك كما تتصورها أذهان الجهلاء الواهمين ، فيسبق الى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الافيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين(٧) .

ينعي العقاد على الدكتور لوبون هذا ، ولا يسلم له بهذا الفهم للاشتراكية ، لانه لا يوجد مذهب من مذاهب الاجتماع ، أو دين من أديان الامم سلم مما تعرضت له الاشتراكية من التحريف والتشويه ؟ وأي فكرة كبيرة أمكن أن تصل الى أذهان العامة على حقيقتها دون أن يمزجوها بأحلامهم ويضيفوا اليها من تفسيراتهم وخطرات أوهامهم ما هي بريئة منه ؟ فمن الظلم اذن أن تعتبر هذه الاحلام أكثر من ظل للاشتراكية يقترن بها ويحاكيها ، ولكنه شيء آخر منفصل عنها(٨) .

ويضيف العقاد الى ذلك بأن هذه الاحلام لازمة لها كما تلزم الاحلام كل نحلة ورأي ، ولكنه يجب ألا يخلط في الحكم بينها وبين مبادىء الاشتراكية وقواعدها العلمية ، وهذه القواعد والمبادىء لا تدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة ، لانها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر ، وكيف تدفع الحاجة الى الاشتراكية بالسفسطة والمغالطة أو بالمنطق والبينة ، وهي — كما يقول الدكتور لوبون — سر لا يعرفه الا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة ، ولا تأتي الادلة التي تقنع به من طريق العقل(٩) .

ويتساءل الدارس عن موقف العقاد من القائلين بأن الاشتراكية نذير

(٧،٨) المرجع السابق ص ١٦١–١٦٢ .

(٩) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الانحلال والضعف ، وأنها لا تفشو في الامم الا على وشك من ادبار مجدها واختلال نظامها ونفاذ ما فيها من قوة حيوية ؟

يدفع العقاد هذا الزعم الذي قال به عدو الاشتراكية جوستاف لوبون في كتابه ، كما قال بما يقاربه الباحث الاثري المشهور « فلندرس بتري » اذ ذهب الى أن الدول تنشأ في مبدأ ظهورها على يد فرد مستبد ، ثم تنحدر منه الى فئة من العلية والمقربين ثم تنحدر الى الحكم الديمقراطي أو حكم الطبقات الوضيعة فيعتريها من هنا الضعف فالسقوط في قبضة مستبد جديد(١٠) .

يدفع العقاد هذا الزعم بقوله : كأنما هذا الترتيب استنبطه «بتري» من أطوار التاريخ المصري - على فرض صحته - قاطع في الدلالة على أن الاشتراكية أو الديمقراطية هي علة السقوط الذي يعتري الدول ، وانها لا يجوز أن تكون عرضا من أعراضه ، ونتيجة من نتائجه ، وكأنما يكفي لمداواة ذلك السقوط أن تمحى الاشتراكية ويمحق الأشتراكيون ، ولا يجوز أن يكون الدواء الناجع مرتبطا بداء العلة الدفينة التي اطلعت الاشتراكية وأطلعت أعراض السقوط معا ، واذا كانت الاشتراكية على هذا التقدير عرضا للعلة وليست هي العلة نفسها ، فماذا يجدينا أن نمحوها ونكم أفواه الداعين اليها ، وماذا في محوها من الدواء للانحلال والتدهور الذي لا مفر منه ؟ ألا يكون ذلك كمعالجة الجدري بنزع قشور طفحه من ظاهرة البشرة ، وترك جرثومته تسري في الدم وترتع في باطن الجسم ؟ فان كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الاصيلة ، والا فلا معنى للقدح في الأشتراكية ، ولا فائدة من اضطهاد دعاتها(١١) .

وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا المقام : هل معنى هذا أن العقاد لا يرى علاج ما في المجتمع من نقص ومثالب الا في الاشتراكية ؟

وللاجابة على هذا السؤال تقرر ان العقاد يعترف بأن نظام مجتمعنا مشتمل على نقائض ومثالب ، ومن هنا يطالب بتبديلها .

(١٠ ، ١١) المرجع السابق ١٦٣ ، ١٦٤ .

وتكمن مطالبته تلك في أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال ، كما تهتم بشخصية الحائزين على السلاح ، لان المال ربما كان أخطر في يد الشرير من السلاح في يد القاتل(١٢) .

وفي تصورنا ان هـذا القول من العقاد يدفع كل ما نسب اليـه من بعض الكتاب بانهرجعي يعاند مطالب الشعب ويقف في طريقها .

ومهما يكن من امر ، فان العقاد يوافق في هذا التحذير من اصحاب الاموال السير « اوليفر لودج » حينما ذهب الى ان الثروات العظيمة خطر على المجتمع ،وانهذه الثروات تكثر من جراء انظمة مصطنعـــة يمكن تبديلها ، وليست هي مما تقضى به طبيعة سير الامور ، وانه يجب ان يعاد النظر في قانون التوريث وأن ينقح ، وان كثيرا من المصاعب التي تواجه المجتمعات الحديثة ناجمـة من السماح للافراد بحـق الملك المطلق عـلى الارض بدلا من المجاميع(١٣).

ويطالب العقاد ولاة الامور في كل امة على نحو أصرح مما سبق، ان يعترفوا بنقائض المجتمع ولا تفتنهم عن اصلاحها عصبيـة الطبقات ، لان الكثير من هذه النقائض قابل للاصلاح والتخفيف ، لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر الى تعنت الطبقات الاخرى ، وتفاقم النزاع بينها على غير جدوى . ومن حق جميع الطبقات ان تنال كل حظها من المعيشـــة الصحية ، وان يسوى بينها في فرص العمل التي تؤهلهم الى كفـــاءتهم الطبيعية مع الاعتراف بالفوارق الطبيعية بين اخلاق الناس ومـــداركهم ومواهبهم المختلفة لان عدم الاعتراف بالفوارق الطبيعة بين اخلاق الناس ومداركهم ومواهبهم المختلفة ، لان عدد الاعتراف بها لا يـــكون عدلا ورحمة ، بل ظلما واجحافا معكوسا مناقضا لسنن الطبيعة(١٤) .

وبالاضافة الى ما سبق يرى العقاد ان الاشتراكية الصحيحة ليست اسطورة من الاساطير ولا هي وعد خيالى يبشر الناس بالتعادل في الاقدار

---

(١٢) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٣،١٦٤ .

(١٣،١٤) المرجع السابق ص ١٦٤،١٦٥ .

والتشاكل في المنازل والارزاق .. كلا .. فليست المساواة بين الناس من همها ان تكون مطلقة تلغى الفوارق الطبيعية ، ولكنها تدعو الى المساواة بين الاجر والعمل ، وتطلب ان يعطي كل عامل ما يستحقه بعمله ، وان ينتفع المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الافراد(١٥)

وفي هذا الصدد يقول : « فان كانت الدنيا قد حم اجلها ، وقارب يومها ، لان جائعا يريد ان يشبع ، ومنهوكا يتمنى ان يستريح ، ومظلوما يود لو ينتصف ، فلشد ما هزلت هذه الدنيا وضعف مزاجها وتبدل حالها بعد ان احتملت في ماضى العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ، وبعد ان صبرت على دسائس الدعاة واكاذيب الدجالين(١٦) » .

والاشتراكية في تصوره قامت لترقي مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب العمل وتجعله انسانا ذا رغبة في عمله وغيرة عليه ، وليس كما هو الان آلة تدير آلة ، ومن هنا لابد ان يسود الاعتقاد بتضامن الانسانية وايقان كل فرد ان على حقوقه حارسا من امته ، وانه موضع عناية الانسانية اجمع ، وبذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب ، والا فلو ظن الانسان انه ليس ثمة ضمير عام يؤنب الناس كافة على ما يحل به من الغبن والاذى ، وانه لا حق له في الرحمة اينما يمم وجهه فقد مات ضميره، وغلبه الحرص فتعلق بالجشع ونبذ المبادىء والفضائل ، الا ما وافق منها هواه ، وفشت فوضى الاخلاق فارتفعت الحدود ، واندثرت معالم الشرائع الا في الدفاتر والاوراق(١٧) .

على ان العقاد يعرض لما يتطلبه تحقيق الاشتراكية حينما يرى انها تتطلب قبل تحقيقها معتقدا جديدا يتمثل في وحدة الاخاء أو التضامن الانساني ، لانك اذا زرعت في قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية أكبرته في عين نفسه ، ومسحت عن قلبه ذلة المخلوق الذى نبذته السماء ، ولم تعبأ به الطبيعة الا كما تعبأ باحقر المخلوقات .

(١٥ ، ١٦ ، ١٧) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

ومن ثم ينبغي ان يعتقد الانسان انه يعمل للانسانية لا ابتغاء المثوبة ، او خوفا من العقوبة ، ولكن مسوقا بمحرض من غرائزه التي لا طاقة له بالخروج عنها ، فاذا عمت هذه العقيدة رضى كل انسان بحظه ، ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية في غير ارضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحي به[١٨] .

ويرى العقاد ان الاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ، ولكنها قديمة ظهرت في كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل ، وتطور هذا العصر في فهمها ، وتوسع في تطبيقها تبعا للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ، ومن بينها علاقات الافراد والامم[١٩] .

ويضيف العقاد الى ذلك اننا لسنا في عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ، او يستبد فيه شرفاء على سرقة ، ولكن المسألة ظهرت في طورها الجديد ، وكان ظهورها في هذه المرة بين اصحاب الاموال وطوائف العمال . ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الالوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله ، فكان التعب والحرمان من نصيب فريق ، والراحة والربح من نصيب الفريق الاقل ، فتجددت ، الشكوى القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليهم لتشهد خاتمة هذه المدنية ؟ وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة[٢٠] ؟

لا يظن العقاد ذلك ، لاننا اليوم في مأمن من غارات القرون الاولى ، ولان العلم والنظام قد اصبحا في هذه العصور ملكا للانسانية عامة ، وليسا من خواص أمة يذهبان بذهابها[٢١] .

ويرى الدارس أن العقاد لم يخرج عن هذه الآراء حينما قابل الكاتب الالماني «أميل لودفيج» وسأله لودفيج عن رأيه في مسائل المجتمع والسياسة وموقفه من الاشتراكية بالذات .

وكانت اجابة العقاد انه يوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي الى

(١٨ ، ١٩، ٢٠ ، ٢١) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

تحسين أحوال الفقراء والاجراء ، ويخالفهم في كل ما يؤدي الى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية • وبعد ذلك عاد « لودفج » يسأل العقاد : عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا ، فايهما يكون له التغلب فيما تظن[٢٢] ؟؟

فأجابه العقاد بقوله : أتسأل عن المدى الطويل ، ام المدى القصير ، فقال « لودفيج » بل عن المدى الطويل ، فقال العقاد : سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم •• للحرية بعد عراك طويل ، فأعجب « لودفيج » باجابة العقاد وقال له يسرني ان اسمع منك ذلك[٢٣] ••

وبعد ذلك ببضع سنوات وجدنا العقاد يذكرها في كتابه « سعد زغلول سيرة وتحية »[٢٤] ليوضح رأيه في الاشتراكية وقوى التقدم ، ثم تحدث عن هذه المناقشة التي جرت بينه وبين « أميل لودفيج » في مقام الحديث عن رأيه في قوى التقدم والاشتراكية في مجلة الهلال[٢٥] •

على ان العقاد ذهب فيما بعد الى ان تذويب الطبقات يمنع نشأة الدكتاتورية في مصر ، ولا سيما اذا تيسر للامة الرزق ، وسلمت من الفوارق الاجتماعية التي تجعل ندرة الارزاق عند بعض الناس مسألة طائفية ، أو حربا كحرب الطبقات المعهودة[٢٦] •

٢ ـ الاشتراكية الديمقراطية :

ويرى الدارس ان موقف العقاد من الاشتراكية فيما بعد قد تغير نوعا ما من التغير ، واخذت مطالبته بحقوق الشعب تأخذ صورة اخرى تختلف عن الصورة السابقة •

(٢٢، ٢٣) عباس العقاد : حياة قلم ص ٢٠٤، ٢٠٥ •

(٢٤) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٤٧١ •

(٢٥) راجع : الهلال الصادرة فى ١ من يناير ١٩٤٩ تحت عنوان « هؤلاء حادثتهم » للعقاد •

وفي مقام التدليل على ذلك يسوق الدارس ما كتبه العقاد تحت « هل تصبح مصر اشتراكية » في كتابه « يسألونك » الذي صدر في عام ١٩٤٦ ، اذ ذهب في ذلك الحين الى ان الاشتراكية ليست نوعا واحدا ، ولكنها اشتراكيات ، وان الاشتراكيين اكثر الناس اختلافا على تفاصيل مذهبهم واكثرهم اتهاما لمن يخالفونهم ، لكنك على كثرة المذاهب الاشتراكية وكثرة التهم التي يتقاذفها المختلفون عليها تستطيع ان تقسمها الى معسكرين اثنين يدور بينهما اكبر الخلاف ، وهما المعسكر الذي يوافق الديمقراطية ، والمعسكر الذي يحاربها ولا يوافقها بحال من الاحوال(٢٧) .

« فالاشتراكية التي تحارب الديمقراطية وتسعى الى هدمها هي مذهب « كارل ماركس » ومن والاه ، ولا بد فيها من عناصر ثلاثة لاتقوم بغيرها ، وهي الايمان بالتفسير المادي للتاريخ ، وتغليب طبقة واحدة على المجتمع كله ، واستخدام العنف لا محالة لتعجيل الانقلاب المطلوب .. فمن لم يؤمن بالمادية المطلقة في جميع مظاهر الحياة وبالغاء جميع الطبقات ما عدا طبقة الاجراء ، وضرورة الثورة الدموية لتحقيق المذهب ، فليس هو من الماركسيين ، وقد يتم التفاهم بينه وبين الديمقراطية على نحو من الانحاء(٢٨) » .

ويذهب العقاد الى ان مصر بعيدة جدا عن الاشتراكية الماركسية ، وبعيدة على درجات من البعد عن الاشتراكية الديموقراطية ..

وفي مقام اتعليل لذلك البعد يرى العقاد ان الاشتراكية ـ حتى الديموقراطية منها ـ تستلزم خطوة سابقة لظهورها ، وهذه الخطوة تتمثل في الوعي الاجتماعي ، أو وعي الطبقات(٢٩) .

ومعنى هذا الوعي ان تشعر طبقة الاجراء والصناع خاصة بوجودها غير منعزل عن سائر الطبقات الاجتماعية الاخرى ، ولا يتفق ظهور هذا

(٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٥ ، ١٥٦ ط أولى القاهرة ١٩٤٦ .

الوعي الا بعد شيوع الصناعات وازدحام المدن بجامعات الصناع وتعاقب بينهم وبين اصحاب الاموال[٣٠] .

على ان مصر - في تصور العقاد - لم تعرف وعي الطبقات على هذا المعنى ، ولم يبد من بوادره فيها الا اثر ضعيف لا يعتمد عليه في توجيه الحركات الاجتماعية . ذلك لان العاملين في الزراعة لا تتألف منهم وحدة كالوحدة التي تتألف من الوف العمال الذين يشتغلون في مصنع واحد ومدينة واحدة ، ولا يندر في الريف المصرى ان يكون العامل في الارض من ابناء عمومة المالك الكبير او من ذوى قرباه ، ومعظمهم يعتزون بنسبهم هذا اكثر من اعتزاهم بعصبية الطبقة الفقيرة التي لا يحسبون انفسهم منها وان كانوا فقراء[٣١] .

كما ان العاملين في المدن لا تتألف منهم تلك الوحدة القوية التي توجد مع الصناعات الكبرى واتصال تلك الصناعات بمرافق الامة باسرها ، وقد ظهرت بينهم تلك البوادر التي لم تظهر بعد بين عمال الزراعة ، فهم يشعرون بطبقتهم ويبحثون عن حقوقهم ، ولكنهم لم ينتظموا في حركتهم على النحو الذي يهيء لهم ولاية الحكم او المشاركة فيه[٣٢] .

من هذا وذاك يرى العقاد ان المصريين في مصر بعيدون عن الاشتراكية الماركسية ، وبعيدون شيئا ما من البعد عن الاشتراكية الديموقراطية .. ولكنه مع هذا يرى ان الاشتراكية ستجيء الى مصر مع ادخال عنصر الزمن في ذلك المجيء ، او على حد تعبيره ، « اذا جلسنا في أماكننا وانتظرناها ، ولا نعرف طريقها اذا نحن سبقناها الى منتصف الطريق[٣٣] » .

ويقرر العقاد آنذاك أنه لن تبقى امة واحدة على وجه الارض بغير تسوية مشروعة بين العمال واصحاب الاموال ، وستفرض هذه التسوية فرضا بالنظم الدولية التي تقرها كبار الامم وتتفق على تنفيذها ، وربما كان

(٣٠، ٣١) عباس العقاد : يسالونك ص ١٥٥ .

(٣٢ ، ٣٣) المرجع السابق ص ١٥٦ .

انصاف العمال شرطا من شروط الانتقام في جماعات امم الحضارة ، كما كان الاعتراف بالنقابات شرطا من شروط الدستور الذي قامت عليه عصبة الامم بعد الحرب العالمية(٣٤) .

وبالاضافة الى ذلك يطالب العقاد المشرعين آنذاك بأن يفرضوا هذا الانصاف للعمال قبل ان تفرضه النظم الدولية ، وذلك حينما يقول :

« وخير لنا ان نفرض هذا الانصاف على انفسنا قبل ان تفرضه النظم الدولية علينا ، فان لم يكن كذلك ، فان تعميمه بالنظم الدولية انفع لنا من التفرد بين الامم بتجاهل مطالب العمال ، واغضاء عن حقوق العمل في صوره المختلفة ، لان هبوط مستوى المعيشة بين الطبقة العاملة في بلادنا يسوق الينا الاموال الاجنبية التي يطمع اصحابها في استغلال مرافقنا ، لرخص الاجور عندنا . فعلينا اذن ان نسبق الاشتراكية الى منتصف الطريق ، والا جاءتنا الاشتراكية وفتحت ابوابنا على الرغم منا(٣٥) ».

ومنتصف الطريق في تصور العقاد هو ايماننا بتعاون الطبقات ، فنقضي به على حرب الطبقات قبل احتدامها .

ويذهب العقاد الى انه لا بد من تعقل الاغنياء في هذا الوقت لمواجهة الحقيقة ، بل لابد من فرض هذا التعقل على جهلائهم بهداية الزعماء الذين يعرفون الخطر قبل وقوعه ، ويعطون الحق قبل ان يغصبوا عليه(٣٦) .

ويتمثل هذا التعقل في ان يقبل اصحاب الاموال زيادة الضرائب على ثرواتهم الكبيرة لنشر التعليم وتحسين الصحة العامة ، وضمان العيش للشيوخ والعجزة ، وضمان التربية وسلامة البنية للاطفال الصغار المحرومين من العائلين(٣٧) .

كما يتمثل هذا التعقل ايضا في ان يتبرع الاغنياء بالاموال لبناء المستشفيات والملاجىء والمدارس الشعبية ، واقامة المصانع واصلاح الاراضي

---

(٣٤) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٣٥،٣٦،٣٧) عباس العقاد : يسالونك ص ١٥٧ .

البور تيسيرا لوسائل العمل وتوفيرا للسلع والخيرات ، فلا يكون قصاراهم من خدمة المجتمع ان يرضخوا من الضرائب طابعين أو كارهين[٣٨] .

ويرى العقاد آنذاك انه « من الممكن ان تقف عند منتصف الطريق ، لان التجربة الانجليزية والامريكية والدانمرك والسكندناف ، تدل على امكان التعاون بين الطبقات وتوفق بين طبائع الافراد وطبائع الامم ومبادىء الحرية العامة في نظام معقول ضحاياه أقل كثيرا من ضحايا الانقلاب الشيوعي حيث كان وكيفما كان[٣٩] .

ويعلل العقاد ذلك بأن التنافس لازم لاستنهاض همم الافراد الى طلب الكمال ، والتعاون لازم لتحقيق المصلحة العامة ، ومبادىء الحرية هي الفارق بين الانسان والحيوان الذي يقنع بالمعيشة المادية ، كما يعيش القطعان في الحظيرة ، او على أحسن الاحوال كما يعيش المذنبون في السجون[٤٠] .

وفي تصور العقاد ان نظام الديمقراطية يسمح للافراد بالتنافس ويعطى المجتمع حقوقه النافعة ولا يجوز على مبادىء الحرية العزيزة على بنى الانسان ، وذلك لان المرافق الكبرى في النظام الديمقراطى ـ كما هو مطبق في البلاد الاوربية ـ ملك للامة بأسرها ، وان الافراد فيها اجراء لا يملكون شيئا منها ، لان صاحب المصنع الذي يعطى الامة سبعين او ثمانين ـ او تسعين في المائة من ارباحه ـ لا يتقاضى اكثر من مدير موظف يستأجر لادارة دفة المصنع على حساب الدولة ، ولكنه في ظل النظام القائم يملك همة المنافسة ، ونشاط الرغبة الفردية ، ويشعر بالحرية ويعمل للجماعة وهو يحسب انه يعمل لنفسه ويغار عليها . وذلك بعكس المدير الذى يعمل كالموظف في غير ملكه ، فلا يحقق حرية الفرد ولا مصلحة الامة ، ولا يلبث التنافس المعطل فيه وفي غيره ان يبدى عواقبه الوخيمة على مصالح المجتمع ومصالح الافراد[٤١] .

(٣٨، ٣٩، ٤٠) المرجع السابق ص ١٥٧ــ١٥٩ .

(٤١) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٩ .

ويخلص العقاد من هذا كله الى ان الاشتراكية الديموقراطية هى التي يتمناها لمصر ولا يخاف عليها منها ، ويعتقد اننا « سائرون اليها بالقدوة الدولية ، وان لم نمر باطوارها الصناعية ، كما مرت بها الامم من قبلنا ، ولكن القدوة الدولية لن تغنينا عن ولاية الامر بايدينا كما يوافق مصالحنا وآدابنا وتقاليدنا ، ولن تعفينا من السبق الان الى لقاء الاشتراكية الديموقراطية دون ان ننتظرها لنبتلى بتجاربها ونمتحن بمغامراتها[٤٢] .

وفي موضع آخر يرى العقاد هذه المعاني من حيث ايجاب الضرائب التصاعدية على اصحاب رؤوس الاموال والمطالبة بالاشتراكية الديموقراطية أو على حد تعبيره الاشتراكية الوسطى ، أو الاشتراكية المعتدلة بين الطرفين ، طرف السيطرة الحكومية الشاملة ، وطرف الفوضى التي تبيح لكل فرد ان يفعل ما يشاء في امور لها مساس بسلامة المجتمع ووسائل المعيشة فيه[٤٣] .

وعلى الرغم من انه يذهب الى ان الاشتراكية ليست بالنظام الغريب عن بلادنا ، الا أنه يخص بحديثه الاشتراكية الديمقراطية أو الاشتراكية الوسطى ، ويسوق في التدليل على رأيه ما سبق أن عرفناه ، اذ أنه يقول : « ان تجارب مصر وتجارب غيرها قد أثبتت لنا على التحقيق أن المرفق الذي تديره الحكومات تتضاعف تكاليفه وتزيد فيه المغارم على المغانم ، ويئول شأنه الى الاهمال وقلة الاكتراث .. وبداهة العقل تأبى أن يقال أن عمل الانسان لغيره كعمله لنفسه ، فان الطبيعة برمتها لا تحمل الحي على ابقاء نوعه ما لم يكن في تكوينه دافع المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوي ، ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الاحياء »[٤٤] .

ومن ثم يرى أنه من الخطر تسليم المرافق جميعاً الى الدولة ، والغاء البواعث الفردية التي تشحذ الهمم وتقنع المرء بأنه يعمل لنفسه ولذريته

---

(٤٢) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٩ .

(٤٣) راجع : مجلة الهلال الصادرة فى ١ من أكتوبر سنة ١٩٥١ .

(٤٤) راجع : مجلة الهلال الصادرة فى ١ من اكتوبر سنة ١٩٥١ .

مع خدمته للمجموع • وقوام الامرين بالنسبة الينا نحن المصريين على الخصوص أن نبقي للفرد حق الملك وحق التصرف فيما يقدر عليه ، وندع للحكومات أن تستأثر بالاعمال العامة التي لا قبل بها للافراد ولا للشركات[٤٥] •

وتبدو قيمة هذه الآراء وصواب وجهة نظر العقاد ، اذا عرفنا أنه قد أعلن في الاتحاد السوفيتي أن حافز الربح سيكون حجر الاساس في الصناعة الاستهلاكية ، وسيعمم المسؤولون في روسيا التجربة في جمهورية روسيا الاتحادية ـ وهي أكبر وأهم الجمهوريات السوفيتية ـ وتقوم هذه التجربة على أساس الاستجابة مباشرة لاحتياجات المستهلكين بدلا من الالتزام بنظام الحصص التي تفرضها الحكومة • وذلك بأن تحول سلطة التخطيط من الدولة الى من يرى المصانع ، وسيكون هؤلاء المديرون مسؤولين عن ربح مصانعهم ، وسوف يسمح لهم باعادة استثمار جزء من أرباح المصانع على النحو الذي يرونه[٤٦] •

ويلح العقاد في تأكيد هذه المعاني وفي المطالبة بالتوسط بين الاشتراكيتين ، ويرى أنه اذا أصبحت مصر اشتراكية فأصلح الاشتراكيات لها أن تتوسط ولا تندفع مع الشطط في جانب من الجانبين ، فليس من مصلحة مصر أن تستولي الحكومات على مرافقها وأن تدار فيها الاعمال العامة ، كما تدار أعمال المكاتب والدواوين ، وليس من مصلحة مصر كذلك « أن تغفل عن مجرى الامور في العصر كله وفي العالم بأسره ، وأن تبقي هذا التفاوت الشاسع بين أغنيائها وفقرائها الزراعيين ، وبين أصحاب رؤوس الاموال وأصحاب الايدي العاملة ، وفي وسعها أن تحقق المصلحة لابنائها جميعا ، وبذلك لا ينهدم مجتمع ، ولا تتسع الفجوة بين أغنيائها وفقرائها أو تتفتح أبواب الاستغلال والشكوى »[٤٧] •

---

(٤٥) راجع الاهرام والاخبار الصادرتين فى ٩ـ٧ـ٩٦٥ تحت عنوان « نائب رئيس جمهورية روسيا السوفيتية يعلن : مزايا تجربة الحافز الفردى ظهرت عمليا •

(٤٦،٤٧) راجع : مجلة الهلال الصادرة فى ١ من اكتوبر سنة ١٩٥١

ومهما يكن من أمر ، فان الدارس على الرغم من تسليمه بأن في آراء العقاد بعض الحق فيما يختص بادارة أعمال المرافق العامة ، فانه ليفتقد تلك الجرأة الفكرية الطموحة الى تحقيق مجتمع أفضل ، كما عهدناها فيما كتبه وهو في شبابه •• ولكن الدارس يسلم في الوقت نفسه أنه لم يكن ينتظر من العقاد أكثر من هذا وذلك لأمرين :

أحدهما : البلاد كانت تسودها طبقة الاقطاعيين الذين كانوا يملكون كل مقدرات البلاد ، ويوجهون الحكم في الوطن ـ بزعامة فاروق ذلكم الاقطاعي الاكبر ـ الى حيث يحقق مطامعهم ومصالحهم الذاتية •• ومن هنا لم يبالوا في تحقيق تلك المطامع أن يزجوا بكل تقدمي يطالب بالعدل والاخاء الانسانيين في غياهب السجون ، وبالنفي والتشريد في بقاع العالم المتأخر أو المتقدم على سواء[٤٨] •

والامر الآخر يتمثل في أن العقاد وقف من الاشتراكية هذا الموقف بعد أن ذرفت سنه على الستين ، واصطلحت عليه الآفات والعلل الجسمية والنفسية على سواء •

فمن ناحية الجسم ـ كما يعلم تلاميذه والمقربون منه ـ كان مريضا بالصدر حيث تحجر جزء من الرئة ، و « القولون » ولم تعد صحته على ما كانت عليه في عام ١٩٣٠ حينما سجن وخرج من السجن ليقول :

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما   سيعهدني كل كما كان يعهد

معنى هذا اننا أمام رجل لا طاقة له بالسجن والتعذيب الذي كان الحكام آنذاك يمنحونه للتقدميين لكي يتم وأد أفكارهم التقدمية على مذبح مطامع أولئك الحكام من الاقطاعيين •

ومن ناحية النفس فان عهدا قد بُلِيَ بأولئك الحكام لعهد تسوده القتامة ويتشح بالسواد ، ويراق دم المثل الاعلى فيه في معبد الانانية والذاتية التي كان الحكام يتسمون بها •

---

(٤٨) نفس المرجع السابق •

ولهذا وذاك عقد العقاد مع الحياة صلحا وقبلها على ما هي عليه وراح يطالب للشعب بحقوقه ولكن في صورة قد تكون مخالفة لاشتراكيتنا اليوم ، ولكنها يومذاك كانت تعد تقدمية من كاتب أعزل لا يتمتع بقيادة جيش ولا فورة الشباب •

ويتساءل الدارس هل ظل العقاد على هذا الموقف لا يريم عنه حتى بعد قيام الثورة ؟

وهنا لابد أن نصطحب العقاد لنقف على ماهية تفكيره ازاء الاشتراكية ونظام الاقطاع الذي كانت تتلفع به مصر منذ القرن التاسع عشر ، ومن هنا أيضا لابد أن نرجع الى الوراء فنجتاز حقبة من الزمن ، حيث نقف وجها لوجه أمام مجلة الكتاب في عام ١٩٥٢ ، نقف أمامها لنرى العقاد يتحدث عن الاقطاع فيذهب الى أن عهد الاقطاع يلفظ أنفاسه الاخيرة في بلد بعد بلد من بلاد الحضارة ، فان لم يمت عبطة يمت هرما كما قال الشاعر ، أو كما قال الشاعر الاخر(٤٩) :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الاسباب والموت واحد

ففي البلاد التي تقدمت فيها الصناعات الكبرى يموت بالشيخوخة ، ومن بقي من أصحابه فانما يبقى منقسم السلطان منهدم الاركان ، أما في البلاد الي تخلفت فيها الصناعات فلا استقرار له بين أهلها ولا قدرة له على التماسك والثبات في وجه القوى التي تنوشه من جميع حياته وتعمل على التعجيل بذهابه ، وتقوضت أركانه في بلاد زراعية لم تتقدم فيها الصناعة الكبرى ، وتقوضت أركانه في بلاد يتوسط فيها الامر بين الزراعة والصناعة(٥٠) •

وأخذ العقاد يعدد هذه البلاد وتلك الى أن قال : ان ظروفنا في مصر أصلح ــ من ظروف البلاد التي قضت على الاقطاع ــ لنجاح التجربة مع توافر أسباب الحيطة والتدبير القويم • ذلك أن ظروفنا في مصر تؤكد لنا أن الاصلاح الزراعي عندنا ألزم وأيسر من وجوه شتى(٥١) •

(٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) راجع : الكتاب الصادرة في ١ من نوفمبر سنة ١٩٥٢ •

ثم يعترف العقاد بأن الاصلاح الزراعي لا يمكن أن يخلو من العقبات والمصاعب ، ولكن هذه المصاعب وتلك العقبات لا يمكن حصرها ـ في تصوره ـ قبل الشروع في التطبيق والتقدم به خطوة بعد خطوة[٥٢].

ويرى العقاد أن البوادر التي ظهرت من العقبات والمصاعب آنذاك تتلخص في ارتفاع أجور العمل الزراعي وهبوط أثمان المحاصيل مع تحديد أجرة الفدان .

وعلى الرغم من هذه المصاعب فانه يرى أنه لابد أن يرتفع مستوى المعيشة بين عمال الزراعة فلا محل للحد من أجرة العامل الزراعي كلما أمكنه الحصول عليها[٥٣] .

وفي تصوره أن اشراف الدولة على تصدير الحاصلات المطلوبة في الخارج ييسر لها أن تشتري حاصلات الارض بالثمن الذي يجزي المالك والعامل . وان الاصلاح يحتاج الى مؤسسة مالية تتكفل بتمويل الحركة كلها ، وقد يؤدي جمع المال لهذه المؤسسة الى تخفيف التضخم النقدي وتمكين الحكومة من سداد أثمان الارض المستغنى عنها ومعونة الفقير الذي يزرع أرضا ولا يملك أدوات زرعها وكل صعوبة تعترض هذه الحلول وما شاكلها هي أهون على كل حال من دوام عهد الاقطاع الذي لا مصلحة لاحد في دوامه ، حتى الاقطاعيين لو أنهم يتبصرون[٥٤] .

على أنه يرى في موضع آخر أن السبيل الوحيد لضمان تقدم الثورة في عملها ، هو أن تدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن ، فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكد يخرج منها ، ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء النظام الاقطاعي على شره الذي عهدناه ، ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة ، فانها حماية لهم في آخر المطاف[٥٥] .

(٥٢،٥٣) المرجع السابق نفس العدد .

(٥٤) راجع : الكتاب الصادرة فى ١ من نوفمبر ١٩٥٢

(٥٥،٥٦) راجع : الهلال الصادرة فى ١ من ديسمبر ١٩٥٢ .

وحينما يتحدث في ذلك الوقت عن النهضة الجديدة يرى أنها تتمشى مع مبدأ المساواة قبل كل شيء ، والمساواة في تصوره تتمثل في التقريب بين الطبقات ، والغاء الرتب والالقاب ، وأخيرا المساواة في الحقوق الوطنية[٥٦] .

ولم يقف العقاد من قرارات يوليه الاشتراكية في عام ١٩٦١ جامدا ، بل انه كتب عن الاشتراكية يقول :

« الذي نعلمه من مراقبة الاشتراكية خمسين سنة أنها تختار لها أحد طريقين لا معدى عن واحد منهما :

« طريق الهدم والعداء ، وشعار أصحابه أن الاصلاح الاجتماعي قبل هدم المجتمع عبث عقيم . وطريق التعاون والتقدم ، وشعاره أن المجتمعات كالبنية الحية تعالج وتصلح على العلاج ، ولا يلزم أن يموت أولا لتبعث ثانيا[٥٧] .

« وهذه هي « اشتراكية التعاون » التي تحراها ولاة الامور في وطننا لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح وتحديد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الامة .

« وهي اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق كلما تابعت بها التجربة بعد التجربة على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال واطلاق النشاط الحر والكفاية الفردية في ميادين العمل كافة .

« وحدها الواسع أن تنطلق جهود الفرد الى حيث تذهب به كفايته ورجاؤه ، ثم لا مذهب له وراء المصلحة التي تلتقي فيها سلامة الفرد وسلامة المجموع »[٥٨] .

٣ ـ تذويب الطبقات :

وان يعجب الدارس فلن يجد ما يستثير عجبه ودهشته أكثر مما

---

(٥٧) راجع : مجلة الهلال فى عددها الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٦١ تحت عنوان « الاشتراكية التعاون هي أشتراكيتنا » .

(٥٨) راجع : مجلة الهلال في عددها الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٦١ تحت عنوان « الاشتراكية التعاون هي أشتراكيتنا » .

كتبه العقاد في الكتاب الثالث من سلسلة « الناقوس » التي كان يشرف على اصدارها ، والتي كانت في الوقت نفسه مثارا لشبهات كثير من الكتاب التقدميين ازاء وطنية العقاد .

وفي هذه المقدمة يتحدث العقاد عن أسباب التفاوت الرأسى بين الطبقات[٥٩] الاجتماعية ، ويفرق بينه وبين التفاوت الافقي ، اذ أن التفاوت الرأسى تفاوت من الاعلى الى الادنى ، وذلك بخلاف التفاوت الافقي ، لانه تفاوت لا يلزم فيه الاختلاف بين الدرجات العليا والدنيا سواء نظرنا الى ارتفاع الجاه والمظهر أو ارتفاع المركز والوظيفة ، أو ارتفاع المراتب في الثروات والارزاق[٦٠] .

وفيما يختص بأسباب التفاوت بين الطبقات الاجتماعية نراه لا يذهب فيها مذهب الماديين الذين يحصرون الاسباب في التأثيرات المادية ، لانه على الرغم من أن التأثيرات المادية عامل فعال ، فانه لا ينفي وجود العوامل الاخرى ، وغاية ما هناك فان العامل الاقتصادي في مقدمة العوامل التي تعجز الانفراد بالتأثير في شؤون المجتمع الانساني ، لما في هذا المجتمع من العناصر النفسية والحيوية التي لا يستغرقها جانب الاقتصاد مهما يكن شأنه في بعض معاملاتها ووشائجها . ومن هنا استبدل العقاد التأثيرات الكونية بالتأثيرات المالية ، واعتبرها سببا في التفاوت بين الطبقات[٦١] .

---

(٥٩) يرى العقاد ان كلمة الطبقة الاجتماعية مصطلح حديث يقابل في اللغات الاوروبية كلمة « الكلاس » Class بمعنى الصنف من الناس أو من أى شيء ، وتأتي كثيرا بمعنى الفئة والطائفة عند تقسيم الناس الى أصناف مختلفين ، ويرى العقاد كذلك ان الكلمة العربية فى اصطلاحها هذا اصدق دلالة على معناها المقصود فى المباحث الاجتماعية من الكلمة الاوربية ، لان الطبقة توحي الى السامع معنى التفاوت في الدرجات من اعلى الى أدنى . راجع للعقاد مقدمة الطبقات في المجتمع الحديث ص ١ .

(٦٠) راجع : الطبقات في المجتمع الحديث تاليف ت.ب. بوتومور، وترجمة وهيب مسيحة صفحات ١،٤،٦،١٠ .

(٦١) راجع : الطبقات في المجتمع الحديث تاليف ت.ب. بوتومور. وترجمة وهيب مسيحة صفحات ١،٤،٦،١٠ .

وفي تصور العقاد أن أسباب الصعود والهبوط بين طبقة وأخرى في الاغلب الاعم أسباب نفسية أو خلقية ترتفع بالوضيع الى مكان الرفعة وتهبط بالرفيع الى مكان الضعة حسب نصيب هذا أو ذاك من الذكاء والنشاط واغتنام الفرص والانتفاع بالظروف .

ويورد العقاد تعقيب الماديين على هذه الملاحظة قائلا : « انهم يعترفون بالكفايات الشخصية والمزايا التي تتفاوت بين أبناء الطبقة الواحدة ، الا أنهم يسقطون هذه المزايا من حساب الطبقات لادعائهم أن مزية الفرد لا تنفعه بشيء ان لم تقترن بموافقة الاحوال العامة ومساعدة البيئة على ابراز تلك المزية »[٦٢] .

ويرى العقاد أن من تحصيل الحاصل أن يقال أن الفرد لا يفلح في الانتفاع بمزية من المزايا النفسية ان لم تساعده الظروف الجوية أو الظروف البيئية أو الظروف الطبيعية ، فان سيطرة الظروف على من تحيط بهم من الجماعات والافراد أمر مفروغ منه لا يسمح للقائل به أن يبني عليه حكما قاطعا على مجرى التاريخ ومصير بني الانسان الى آخر الزمان[٦٣] .

ومن ثم يرى أن الظروف الاقتصادية تحول بين الفرد وبين غايته اذا لم توافقه في مساعيه ، « ولنا أن نرفع كلمة الظروف الاقتصادية ونضع مكانها ما شئنا من الظروف لنقول أن جميع الظروف تحول بين الفرد وكل سعي يسعاه ان لم توافقه على ما يريد . وقصارى ما يثبت لنا من ذلك أن الظروف موجودة معهودة ، ولكنها لا تجيز لأحد أن يبني عليها وحدها أقدار الامم ومصير الطبقات »[٦٤] .

وفي تصور العقاد أن النظام الاقتصادي الذي خلا من نفوذ أسباب الاموال قد فسح الطريق لبروز طبقة حاكمة من الرؤساء ومديري المصانع وخبراء الصناعات والفنون ، لا تقل في تحكمها واستئثارها بالامر عن كل طبقة حاكمة في بلاد رأس المال أو بلاد الاستعمار[٦٥] .

(٦٢،٦٣،٦٤،٦٥) المرجع السابق المقدمة ص ١٢،١٣،١٤ .

ويرى العقاد أن غاية ما يطرأ على نظام الطبقات من التعديل والتحسين ، فانما هو في سبيل تقارب الحقوق وتبادل المعونة ، بعد أن شاعت بين أبناء الطبقات جميعا معرفتهم بحقوقهم واعترافهم طوعا أو كرها بحقوق غيرهم وقدرتهم يوما بعد يوم على حماية تلك الحقوق(٦٦) •

والخطوات الاولى للتقارب بين الطبقات تطرد اليوم متوالية موفقة في أمم الطليعة الديمقراطية التي توطدت فيها أسس الحرية الاجتماعية ، وتطورت فيها موارد الثورة وتقسيم الاعمال والارزاق ، ولا سيما الاعمال القائمة على الصناعة الكبرى(٦٧) •

وتتمثل هذه الخطوات في اسهام طبقة الفقراء من الصناع والزراع وغيرهم بحصص كبيرة في رؤوس أموال الشركات التي كانت حكرا للاغنياء وأصحاب الملايين(٦٨) •

كما تتمثل في أن أصحاب الثروات الضخام يقلون شيئا فشيئا ، أما بتعميم قوانين تحديد الملكية الزراعية ، أو بالحد من الارباح فوق مقدار ينتهي اليه كل ربح مستفاد من استغلال الاموال •

وأخيرا تتمثل في شيوع التأميم في المرافق القوميـة التي يخشى من سيطرة الافراد عليها وتعم المصلحة فيها سائر أبناء الامة من مالكين أو مستفيدين •

ويرى العقاد أن هذه الخطوات وأمثالها مما تكشف عنه تجارب الحاضر والمستقبل كفيلة بتحقيق غايتها الجلى : وهي التقارب بين الطبقات والتعاون بينها بما يحقق لها المصلحة في جملتها ولا يتيح لواحدة منها أن تنفرد بتسخير سواها(٦٩) •

على أن هذه الخطوات وما يستجد بعدها في تصور العقاد ، لن تجدي جدواها الا اذا اقترنت بخطوات أخرى تسايرها وتمنعها أن ترتد بالامم على عقبيها • ومن هنا لابد في خطوات التقارب بين الطبقات من خطوات

(٦٦،٦٧،٦٨،٦٩،٧٠) راجع : الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الحديث ، المقدمة ، ص ١٣،١٤،١٥ •

مسايرة لها في سبيل التوازن بين حقوق كل طبقة وقدرتها على حماية تلك الحقوق ، هذا التوازن مختل في هذه الايام ، وقد كان مختلا من مطلع فجر التاريخ ، فيتفق أحيانا أن تزيد قوة الطبقة على حقوقها ، فتغريها هذه الزيادة في القوة بالطغيان على حقوق غيرها(٧٠) •

وفي توضيح ذلك يذهب الى أنه كانت قوة العلية من الاغنياء وأصحاب الجاه فيما مضى أكبر جدا من حقوقهم على المجتمع ، فابتليت الامم من جراء ذلك بآفات الظلم والتسخير وآفات الترف والفساد • ولم تكد تخلص من بعض هذه الآفات الا بالثورة بعد الثورة ، والحرب بعد الحرب ، الى عهد لا نزال نلمس بقاياه ونعاني الكثير من آفات تلك البقايا(٧١) •

ثم تنبهت الطبقات الدنيا الى حقوقها ، واستجمعت بعض القوة التي تستخلص بها شيئا فشيئا من تلك الحقوق ، ولكن تلك القوة توشك أيضا أن تزيد على الحقوق المطلوبة أو الحقوق العادلة منذ أصبح في مقدور الالوف من ذوي الاعمال اليدوية أن يشلوا حركة الصناعة ويعطلوا سير المعاملات التجارية ، مهددين بالاضراب أو مضربين وقادرين على المقاومة الى أجل طويل مع استمرار الاضراب والتعطيل(٧٢) •

أما الطبقة الوسطى فيرى العقاد « انها تظل دون الطبقتين الاخريين كبيرة الحقوق صغيرة القوة التي تمكنها من حماية تلك الحقوق وتهيىء لها أن تدفع عنها ضغط من فوقها ومن دونها ، كأنما هي الطحين المسحوق بين شقي الرحى • وهذه الطبقة أجدر الطبقات جميعا أن تعتصم بقوة تناسب حقوقها وتناسب عملها في المجتمع ، وهو عمل تتلاقى لديه كفايات من فوقها ومن دونها ، وتتزن به علاقات الاطراف المتباعدة ذلك الاتزان الذي لا غنى عنه لصد الطغيان من كلا طرفي المجتمع ، وانها لعلى حد قول النابغة :

(٧١ ، ٧٢) الطبقات الاجتماعية في المجتمع الحديث : المقدمة ص ١٥،١٦،١٧ •

فانك جانب القسطاس منهـا فتمنـع جانبيهـا أن يميـلا

وسيقول لنا المستقبل كلمته الفاصلة في مصير هـذه الطبقة ، وفيما ينفتح لها من أبواب التماسك والتعاون بين أجزائها المبعثرة ضمانا لحقوقها وحقوق كلتا الطبقتين العليا والدنيا »[٧٣] •

ويرى الدارس أن الطبقة الوسطى قد فقدت مقوماتها بتفتيت ماليتها بين ذويها من الاهل والابناء حتى غـدا نصيب الواحـد منهم من الارض الزراعية يقل عن نصيب أحد المنتفعين بالاصلاح الزراعي ، ولكي يحصل الواحد من هذه الطبقة على حقه في الحياة ، فلا بد له من الكفاح المستمر والمميت ، والا ضاع في الزحام •

ومعنى هذا أننا نختلف مـع العقـاد فيما يطلق عليـه اسم الطبقـة الوسطى بمعنى أن لها وجودا في المجتمع ، ويرى الدارس انها قد ذابت في الطبقة العاملة وليس لها وجود في المجتمع مستقل بذاته • ومن هنـا لا داعي لان يتخوف عليها العقاد من ناحية وأن ينيط بها توزان الطبقات الاخرى من ناحية أخرى •

على أن تذويب الطبقـات سينزل بالطبقـة العليا الى مصاف الطبقـة العاملة ، وهنا سيتساوى الناس في الحقوق وسينال كل منهم من هـذه الحقوق بمقدار ما يبـذل من جهـد ، وتذويب الطبقات ماض في سبيله لا يعوقه عائق ، ولا تعترضه عقبة كأداء تمنع تحقيقـه في مصـر والعالم بأسره ان شاء الله •

على أن تحقيق التقريب بين الطبقات في عالمنـا اسـتطاع أن يجذب استاذنا العقاد اليه فيسمي عالمنا عالم التقريب بين الطبقات لا عالم الذرة ، فاعتبر أن التقريب بين الطبقات حدث تاريخي عظيـم في تاريخ الانسانية يفوق حدث اكتشاف الذرة ، وفي ذلك يقول :

« أما العـالم الجديـد في المجتمع الانساني وفي النفس الانسانية ، فهو عالم التقريب بين الطبقات ، بعد التقريب بين القارات ، وقد بدأنا في

(٧٣) نفس المصدر السابق •

هذه السنين نشاهد الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تتوارد على عجل مع فترات الزمن ، بل مع السنين والايام ، وستأتي هذه الظواهر تباعا على عجل كما قدمنا ، فلا ينقضي القرن العشرون الا وهي ظاهرة متكررة في المغرب والمشرق وان تفاوتت قليلا مع كل تكرار »[٧٤] .

٤ ـ الاشتراكية والاسلام :

بقي جانب لا تتم الاحاطة الا به في موقف العقاد من الاشتراكية ، ويتمثل هذا الجانب في نظرته للاشتراكية من خلال الدين ، وهنا لابد أن نتعرف على رأيه في هذا الصدد من خلال ما كتبه عن المساواة في الدين وفي الفلسفة المالية ، اذ ذهب الى أن المساواة خير ومصلحة اذا أريد بها انها تعطي كل ذي حق حقه ، وأنها تحول بين كل انسان وبين العدوان على حق غيره ، وتسوي بين جميع الناس في حدود المعاملة ، ولكنها شر ومضرة اذا أريد بها أن تمنع المزايا والكفايات ، وتجعل الناس جميعا كأنهم فرد متكرر لا فرق بينهم في الصفات ، ولا اختلاف بينهم في الاعمال والاخلاق ولا تمييز بينهم في التبعية والغاية ، لان المساواة بهذا المعنى الاخير على كونها شرا ومضرة هي استحالة تامة ، لان أسباب التنوع غير معدومة بين أجرام الكواكب وأوراق الاشجار ، بل أن التنوع فيها عميق لا يُسبر غوره ولا يحصره سبب واحد ، ولا جملة من الاسباب المحدودة ، ومن ثم فان العقاد يعتبر انه من المسخ المشوه لتكوين الاحياء الانسانية على الخصوص ان نقصرها على شبه واحد وهي على تركيبها المتشعب أحق بالاختلاف من أجرام الكواكب وأوراق الاشجار[٧٥] .

وفي أعتقادنا أن كل ما يستهدفه العقاد من المساواة هو منع الاختلاف الظالم بين الناس ، واطلاق عوامل الحياة الحرة التي تؤدي الى تنويع مزايا الحياة وتوفير نصيبها من الكفايات والصفات وتوسيع مداها من

---

(٧٤) راجع : الهلال الصادرة في ١ يناير ١٩٦٢ .

(٧٥) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر سنة ١٩٥٩ .

الحقوق والواجبات(٧٦) .

وتأسيسا على هذا يرى العقاد أن الاسلام يسوي بين الناس جميعا ، فلا تمييز بينهم في حقوق الانصاف وحقوق المعاملة ، ولا فضل لأحد على الآخرين بغير أعماله وأخلاقه التي تجمعها كلمة التقوى ، وهي كلمة تجمع فيها كل ما ينطوي في أداء الواجب ورعاية الحدود واجتناب المحظورات(٧٧) .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وينشأ عن هذا التفاوت ـ في تصور العقاد ـ ما لا بد ان ينشأ عنه من التفاوت في الارزاق ، ولكنه لا يبيح لصاحب المال ان يحسبه حكرا له ، ولا يأذن لطائفة من الناس ان تحصر الاموال بين يديها « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم(٧٨) .

ويرى العقاد ان هذه هي المساواة الحقة ، لانه ليس من مصلحة الانسانية جمعاء ان يتساوى فيها العلم والجهل ، والسعي والكسل ، والطيبة والخبث ، والفطنة والغباء ، وفي الوقت نفسه ينعى على المساواة التي يدعيها اصحاب التفسير الاقتصادي للتاريخ ، بانها لا تتم ـ من وجهة نظر العقاد ـ في مجتمع من المجتمعات الانسانية ، يقبض على زمامه أصحاب هذا التفسير عشرات السنين ـ لانهم يضطرون في نهاية الامر على الرغم منهم الى التسليم بالعوامل الحيوية والعوامل الكونية ، التي لا تسمح لحظة واحدة بالغاء الفوارق والمزايا بين الاحياء(٧٩) .

وفي مقام التدليل على ذلك يذهب العقاد الى انه لم يمض جيل واحد على مجتمع من المجتمعات التى يفرضون عليها مبادئهم المادية الا ظهرت

(٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر ١٩٥٩ وانظر كذلك حياة قلم للعقاد ص ٢٨٦ .

فيه طبقات من الرؤساء والخبراء والمديرين يتاوتون قبل كل شيء في احوال المعيشة الاقتصادية من مسكن وملبس وطعام ووريادة ونفوذ وحظوظ من المال والمتـــاع[٨٠] .

على انه يرمي تلك المساواة الموهومة ـ في اعتقـاده ـ بانهـا سلبت عشرات الملايين قدرتهم على التقدم ، لانها قتلت فيهم عوامل الامل والحذر التي تستحث الخاملين والكسالى الى السعي والطموح اذ كان الباعث الأكبر على نفض الكسل والخمول ان يشعر الخامل الكسلان بالخوف من عاقبة الضعة ، وبالحافز الى التقدم واستثارة ما فيه من حسن الاستعداد للعمـــل وطلب المزيد ، وان الملايين من الخلق ليفقدون هذا الحافـــز الطبيعي اذا ايقنوا انهم مطمئنون الى مصيرهم ، عاملين او غير عاملين[٨١] .

ويخلص العقاد من هذا كله الى ان تلك المســـــاواة تنتهي الى ظلم محيط لا تفلت الامم ولا الاحاد من سوء عقباه ، ويتمثل هذا الظلم في انه يأبي للنازل ان يصعد باختياره ، وانه يسوى الاعلى بالادنى حيثما استطاع فاذا نظر المتساوون الى حضيضهم الذى يسمونه المساواة لم يجدوا دونــه منزلة يهبطون اليها ، فهي مساواة ليس دونها مكان يتسع للمزيـــــد من الهبوط ، وهم يتجنبون فيها الا على الدوام ولا يتجنبون ما هو ادنى[٨٢] .

وعلى الرغم من انه يعترف فيما سبق بأن الاشـتراكية تدعــو الى المساواة ، الا اننا نراه يلح دائما على ان هذه المساواة ليست مطلقة وذلك لكيلا تسلبه المساواة تميزه وتفرده اللذين حصل عليهما بكفاحه ونضاله عشرات السنين ، ولانه من ناحيــة أخــرى يقــدس الديمقراطية التي تكفل له الحرية السياسية والاجتماعية على سواء ، وهاتان الحريتان لا تمكنه منهما الاشتراكية العلمية التى دعا اليها كارل ماركس .

وتأسيسا على فهمه هذا نراه يغض من اشتراكية « كارل ماركس » حينما يذهب الى ان الاشتراكية قد وجدت قبل ان يوجد اسم الاشتراكية، وقد وجد اسم الاشتراكية قبل ان يوجد اسم الاشتراكية العلمية ، وان

(٨١ ، ٨٢) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر ١٩٥٩ .

اول من سعى مذهبه باسم الاشتراكية العلمية هو كارل ماركس على الرغم من انه ليس من العلماء بمعنى العلم المصطلح عليه في عصرنا ،لان الموضوع الذى نال به شهادة الدكتوراه بالمراسلة انما كان بحثا من بحوث الادب اليوناني ، ولم يكن بحثا في الاقتصاد أو الاجتماع على نهج قديم أو حديث[(٨٣)] » .

ومن ثم فانه يرى أن الاشتراكية العلمية هي الاشتراكية العملية التي يمكن تطبيقها بتنظيم رأس المال وانصاف العمال وتحريم احتكار الثروة العامة[(٨٤)] .

ثم يصرح العقاد بعد ان بين ان الاشتراكية أنواع ، بالنوع الذي يؤمن به منها ، وهو الاشتراكية الفابية التي كانت نصب عينيه وهو يكتب في تعزيز الفلسفة الاشتراكية والرد على خصومها قبل اكثر من خمسين سنة ، « ولا تزال الفابية كما بقيت اليوم أقرب الى اعتقادى من سائر الجماعات ، ومبادئها تقوم على الاسس الاخلاقية قبل قيامها على الاسس المادية الاقتصادية ، ووجهتها الكبرى هى بناء المجتمع على ارفع المثل العليا في الاداب الانسانية والفابيون تطوريون وليسوا بانقلابيين ، وعندهم ان نشر المعرفة والتوسل بالوسائل الديمقراطية الى ولاية الحكومة للمرافق العامة اصلح لتحقيق الغرض المقصود من الاشتراكية وهو منع الاستغلال والاحتكار والتسوية بين الناس فى فرص الاعمال والمشاركة فى ادارة الاداة الحكومية[(٨٥)] » .

(٨٣ ، ٨٤) راجع : صحيفة الاخبار الصادرة فى ٣ من اكتوبر ١٩٦٢ تحت عنوان « يوميات الاخبار » .

(٨٥) راجع صحيفة الاخبار بتاريخ ٣ من مارس سنة ١٩٦٣ تحت عنوان « الفابية بين المذاهب الاشتراكية » .

الفصل السابع

معالم الشخصية

١ ـ شخصيته(*) :

له قامة باسقة مديدة كالعملاق ، ووجه ابيض وضيء مليح القسمات ، معبر عن كل ما يجيش به وجدانه من انفعالات .

.. وتتوج وجهه المستطيل هامة سامقة يزيد قطر جمجمتها طولا على قطرها عرضا بنسبة ظاهرة ، وعيناه شديدتا السواد مع سعة في المقلة، ثاقبتان ، فيهما سعة .

تحس وانت تتأمل في عينيه كأن بهما عضلتين تحاولان ان تستشف ما تراه في استغراق عجيب ، وفيهما حيطة وزكانة ، وتتراءى فيهما أعماق حزن وتفكير .. تحفهما أهداف مائلة الى الطول تحت حاجبين أميل الى الغزارة .. ورأسه ادنى الى الكبر مستدير الى حد ما، ويحتفظ بكل شعره المنسدر المرسل المنسرح الى الخلف دائما ،يستوعبه الشيب الذى هاجمه قبل الثلاثين .. وخدان خفيفان من اللحم والشحم ، يتوسطهما أنف أشم جميل ، يتسم بارتفاع قصبته مع استواء في اعلاه عند اتصاله بالجبهة ، فيه عزة وحدة ، منفرج المنخرين ، وصدغان مستقران ، واذنان تنبسط كلتاهما من أعلى وتضيق من أسفل مع خفة في اطارها الاعلى واطمئنانه .. عارضان بسيطان ، وذقن بارز معقوف

(*) نتحدث في هذا الصدد عن مقومات شخصيته ، كما بدت لى من خلال مصاحبتي الطويلة له ودراستي لاثاره وعلاقاته بأصفيائه واعدائه .

واستقامة ، وفم معتدل من حيث الضيق والسعة ، وشفتان رقيقتان سفلاهما مقوسة تنم عن استخفاف وسرعة انفعال ، وشدقان واسعان ، يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين يخرج منهما يدان قويتان متدفعتان تنتهي كلتاهما بكف عريضة الاصابع صلبة العضلات ، وتحت المنكبين صدر فسيح •

وهو يسير بخطوات واسعة ، ويقتلع خطاه في سيره اقتلاعا،ويحرك ذراعيه في سمت وعزم ، ولكنه يحس جميع ما حواليه ويشعر معه • يتحدث وهو ساكن الاوصال بكل وجهه ، ويستعين في الحديث بحركة يده واصابعه ، وحينما يكون متحمسا في حديثه فانه يقبض اصابعه داخل راحته بعزم ، فتبدو كأنها صبت من فولاذ او صخر ، فاذا مابسطها بعزم بدت كأنها سيف بتار ••

قوة نفس وقوة بدن ، تعاورته الاسقام وهاجمته العلل ، واصطلحت عليه الهموم منذ بواكير شبابه ، اذ تعرض في عنفوانه لامراض الصدر ، وتحجر جزء من الرئة والكبد والامعاء • فنجا منها بمعجزة الجسد المكين ، وان ظلت عقابيله تعاوده فيما يعتريه من آلام الامعاء والكبد ، ولكنها لم تسلبه ما ركب فيه من الجلد وصلابة العزم وشدة المراس ، ومكافحة الاسقام كما يكافح الخطوب الجسام • وعلى الرغم من الاسقام التي اعترت العقاد ، فان نبضه لم يختل ميزانه ابان تلك الامراض ، وهاته العلل ، بل انه لا يستخدم المسكنات بجميع صنوفها حتى ولو أدى المرض الى اجراء عملية جراحية ، فانه يجريها دون استخدام للمسكن الذى يستخدمه كل انسان وهو « البنج » •

كما انه لا يخضع لاي مؤثر خارجي في التغلب عليه ، وليس ادلّ على ذلك ما حدث له مع احد المنومين المغناطيسيين الذى استطاع ان ينوم كثيرا من الشخصيات الكبيرة ، ولكنه باء بالفشل في تنويم العقاد[1]،

---

(١) من حديث شخصى مع العقاد ، وقد رجعنا الى أحد الحاضرين اثناء عملية التنويم وهو محمد توفيق دياب •

فاذا كان ذلك علامة على الطبع ، كما فيه علامة البنية فلا شك انها علامة على طبع من اقوى الطباع • ومما يدل على ذلك انه بالرغم من تلك الامراض التى اعترته بقى الرجل قادراً على اداء عمله ماضياً فيه نشيطا اليه في انبساط نفس ، وتجدد اقبال •

* * *

وأول ما يطالعك من رؤية العقاد مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء ، فلا يخطر لك وأنت تغشى مجلسه الذى يضم خليطاً عجيباً من الناس الاقوياء والضعفاء والكبار والصغار وأصحاب النياشين والالقاب والمجردين منها ، لا يخطر لك أن في المجلس أحدا غير العقاد ، يحس ذلك أعداؤه ، كما يحسه اصدقاؤه ، ويذهل لذلك من يدخل للتحدي والمناوشة ، كما يذهل له من يدخل للتحدي والولاء •

ومعنى هذا ان مهابة ظاهرة لا تخفى على ناظر ، ولا يحاول العقاد اخفاءها ، ولا يستطيع ـ ان أراد ـ أن يخفيها ، لان جذورها متمكنة في بنيته مع تركيبه ثم قوة نفسه وثقته بها ، وتعويله عليها وحدها •• فهى مهابة طبيعية ولدت معه ، وليست مصنوعة غرستها فيه النياشين أو الالقاب ، أو المنصب الحكومى الكبير ، أو الثروة العريقة أو الأسرة التليدة ، لان المهابة المصنوعة زيف كطلاء المساحيق والاصباغ التى نراها في وجوه الدميمات وعرائس الحلوى والدمى •

ومن ثم فأن مهابة العقاد لا تفارقه راضياً أو غاضباً ، فرحا أو حزيناً ، جاداً أو متفكهاً ••مهابة كتب لها الدوام أينما حل وأينما ارتحل ، ومع الناس جميعاً في أطوار أعمارهم المختلفة • مهابة تغري باحترامه والثقة به ، والتعويل عليه •• وذلك كما يراها خلطاء العقاد الأولياء •

على اننا نعتقد ان من يلتقي بالعقاد يشعر لا محالة بعد برهة قصيرة ان فيه عالما مبهماً مجهولا ينطوي على أسرار روحية ومطامح دنيوية ، تتلاشى احدهما في الاخرى وتتقمصها فلا يبين منه الا الروح القوية

العالية[٢] •

والذي لا شك فيه ان هذه النفس العميقة العامرة بالاسرار الروحية والمطامح الدنيوية في التباس وغموض ، وذلك القلب الكبير الذي حفظ ما أودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر ، هما اللذان حببا الى تلاميذه بالمدرسة الاعدادية الى تلقيبه بالكاهن « حرحور » وهاتيك النفس وهذا القلب هما اللذان حببا اليه الانسانية بحيث جعلاه يبتئس لويلاتها ويستبشر لسطعات نورها ، وغلبة روحها ويناضل في كل فرصة كالجندي الشجاع لنصرة قضيتها •

نحن على هذا أمام رجل قوي لا مراء ، والقوة في تصورنا تعنى العظمة ، لأن كل عظيم قوي بمعنى من معاني القوة ، تلك القوة التي تستفاد من جملة مناقب الانسان أو تدل عليها صفاته وأخلاقه •

وخلائق العقاد الكبرى بارزة جداً لا يسترها حجاب ، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين •

فنان يعتقد ان الحياة عمل فني تحكمه الاصول التي تحكم بيت الشعر ولحن الموسيقى وصورة المصور ، وتخرج في جملتها وتفصيلها من يد الفن الالهى كما تخرج الدمية من يد الصانع القدير في فكرتها الباطنة وتمثيلها الظاهر ، فالكون كله والحياة — وهي أعم من الكون في نظره — والفن ومناظر الأرض والسماء ، كل اولئك مظهر للتآلف أو للتنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة أو بين أفراح الفن وأحزانه •• قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذي يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية وهذا الائتلاف في نظر العقاد هو دستور الفن الالهي المحيط بكل شيء وهو فلسفة الفلسفات في هذا الوجود[٣] •

---

(٢) راجع فصول من النقد عند العقاد لمحمد خليفة التونسي ص ١١ •

(٣) مطالعات • أ • ب مقدمة •

ولذا فأنه ليهتز في مهاب نسائمها وعواصفها ، ولا يجد في الحياة شاغلا لا يشغله ، أو فتنة لا تجذبه أو خالجة لا تطرقه ، فهو يهتم بشؤون العالم العامة كأنها شئونه الشخصية الخاصة[٤] .

وهو حيي والحياء أقوى صفاته ، لأنه ينبع من الاحساس العارم في النفس بالقوة ، وهو غير الخجل الذي يرفده احساس النفس بالقصور والحياء لدى العقاد دليل على يقظة الضمير وتوفره ..

وهو شجاع يجاهر بالصدق والعدل ، ويمقت الكذب والظلم ومن هنا فأنه قد وقف نفسه لنصرتهما حتى لتحس بأن نصرة هاتين الصفتين هي رسالته في الحياة ، وذلك لانه يدافع عنهما دفاع المستميت ويجاهد في سبيلها جهاد الابطال .

ومن أدلة ذلك كراهيته لكل مستبد في التاريخ القديم والحديث ، اذ أنه لم يكتب في تراجمه الا على من هم شرف الانسانية وضميرها ، مثل محمد ، والمسيح ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والحسين ، وخالد وعثمان ، وسعد زغلول ، محمدعلي جناح ، وغاندي ، وسن ياتسن فقد كان لكل منهم رسالة عادت على امته والانسانية بالخير ، ولم ينل هو منها الا الكروب ، وكتابته عن هؤلاء دفع للظلم الذي ألحقه التأريخ بهم ، فمن عادات التاريخ في الظلم افتراء التهم على الابرياء . أو اخفاء كل الفضل ، أو اخفاء أشرفه واظهار أدناه ، ولذلك تصدى العقاد لدحض التهم التي ألصقها التأريخ ببعض هؤلاء الكبار[٥] .

واذكر انني ما رأيته مرة ـ على طول مصاحبتي له وتلمذتي عليه ـ سكت على ضيم لحق انساناً ، فانه ليهوله ان يهضم صاحب الحق هضيمة بين سمع القانون وبصره ، ومن هنا فانك لتجده يتوجه الى موطن الظلم

---

(٤) عبدالرحمن صدقي : العقاد كما عرفته : في العقاد دراسة وتحية ص١٠٥

(٥) محمد خليفة التونسي : فصول من النقد عند العقاد ص١٧ « العقاد كما اعرفه » .

فيدرأه بعزم مصمم على النهاية الحاسمة ، بل انه يغلي الدم في عروقه حتى يؤدي الى الاحتقان في رأسه حينما تكرر عليه قصة مظلوم •

وفي اعتقادنا ان اية شجاعته انه عندما آمن برسالته الادبية وهو شاب يافع جهر بأعلى صوته ووجه ضرباته بعنف في كل هدف حيث لزم الامر •

ومن ذلك حملته على شوقي وعلى أنصار الأدب القديم ، اذ وقف لهم وحده ، ثم أيده مريده الأكبـــر المازنى ، ولقيت دعوته كثيراً من الاولياء والاعداء في كل مكان ، ولكنه لم يبال وهو يوجـه ضرباته الى أنصـار الأدب القديم بكل ما فيـه من عزم وقوة وجـرأة على المخاطــر مهما تكن العواقب في سبيل الحق ، لم يبال ان يجاب على ضرباته تلك بأقوى الضربات وأقتلها ، حينما توجه الى شـخصه كأنما يلذ له كفاحها ونضالها فيقول متحدياً لها ، واثقا من عزيمته امامها[٦] •

ايـه يا دهـــر هـــات ما شئت ، وأنظر
عزمـــات الرجـال كيــف تكـــون
مـــا تعســـفت في بـــلائك الا
هـــان بالصبـــر منك ما لا يهـــون

ومن خلائقه كذلك ان احكامه على الاشياء ليست مؤسسة على هوى او غرض • وليس أدل على ذلك من مبادرته بنصرة سعد زغلول بما استطاع يوم تجرد لقيادة الامة في القضية القومية ، بالرغم من انه كان يقضى الشتاء بأسوان اذ ذاك الوقت مستشفيا لا يقـوى على الكتابة فى الصحف ولا على الاشتراك في الحركة •• بادر العقاد الى نصرة سعد، ولو استشار هواه ومصلحته الشخصية لرفض نصرة سعد ، لان سعدا قد رفض طلب العقاد حينما اراد ان ينتظم في بعثات الجامعـة المصريـة ، وأراد ان يكون الامتحان مباحا لجميع الطالبين •• ولكن سعدا ابى عليه ذلك بدعوى انه لا يمكن ادخال أي انسان الامتحان الا اذا كانت لديه

(٦) ديوان العقاد ص ١٧٩ •

الشهادة المشروطة قبل الامتحان ، فوقف سعد زغلول عند الشهادة المشروطة غاضا النظر عن الكفاءة الشخصية ، وقد كان العقاد يعتقد ان رفض سعد لطلبه لم يكن حتما لزاما ، لان العقاد لم يطلب الا ان يدخل الامتحان مع الممتحنين ، ثم ينتظم في البعثات الجامعية اذا كان من الناجحين[٧] .

ولم يغضب العقاد لذلك الرفض من قبل سعد ، لايمانه بان تضحية الفرد اولى من تضحيه الشعب ، وان القانون الذى يوضع لفرد يغاير القانون الذى يوضع لشعب ، ذلك انه لو فتح سعد الباب على مصراعيه لذلك الاستثناء لعمت البلوى ، بحيث لا يمكن درءها ، لان طلاب الاستثناء بحمد الله كثيرون ، وامامهم سابقة اخذت شكل القانون مع عباس العقاد .

ومن خلائقه الكبرى قوته وصلابته وتقديسه للحرية واعتزازه بالكرامة ، فلا لين ولا هوادة في حربه للباطل ، ولا رضوخ ولا استسلام امام طغيانه وجبروته ، ولا أدل على ذلك من قوله عقب خروجه من السجن في قضية العيب في الذات الملكية المشهورة[٨] :

وأعظم بها حرية زيد قدرها
لدن فقدت او قيل فى السجن تفقد

عرفت لها الحبين فى النفس والحمى
وكان لها حب – وان جل – مفرد

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فهأنذا فى ساحة الخلد اولد

---

(٧) سعد زغلول ص ٦٠٤ .

(٨) وحى الاربعين ص ١٧٣ وما بعدها انظر ص ١٥٤ من هذا البحث .

ففى كل يوم يولد المـــرء ذو الحجـى

وفى كـل يوم ذو الجهـــالة يلحـــد

وما اقعـــدت لي ظلمـة السجن عزمـة

فما كان ليـــل حـين يغشــاك مرقد

وما غيبتنى ظلمـة الســـجن عن سنى

من الرأى يتلـــو فرقـدا منه فرقـــد

عداتى وصحبى لا اختــلاف عليهمـــا

سيعهدنى كـل كما كـــان يعهـــد

فالابيـات السـابقة تكشف لنا مدى تقديسه للحـرية وتمجيدها ، وتضحيته في سبيلها بحياته وأمنه وراحته ، وانه لا يرضى بها بديلا، وان السجن لم يمحُ حبه للحرية ، أو يقلل من شأنها في نظره ، بل ان حبه قد زاد اعتزازه بها قد نما ، وقد تمكن هذا الحب في نفسه حتى غـدا حبين : حب لحريته الخاصة ، وحب لحرية وطنه ، وان ظـلام السـجن لم يطفيء وهـج عزيمتـه ، بل زادهـا ضرامـا واشـتعالا ، وانـه لن يغـير ولاءه لاصـحابه واخـوانه في الجهـاد والوطنيـة ، كما انه لن ينسى من حاربوه ووقفوا في سبيل حريته وحرية بلاده ، وسيعهد الجميع كمـا كانوا يعهـدونه قبل دخوله السـجن سيعهـدونه مدافعا عن الحق مناضلا عن الحرية كما كانوا يعهدونه قبـل دخـوله السجن ، سيعهدونه مدافعا عن الحق مناضلا عن الحرية كما قال فـى موقف آخر(٩) :

هـــو الحـــق مـا دام قلبـــى معـــي

ومـــا دام فـــي اليـــد هـــذا القلـــم

على أنه قد لاقى كثيرا من الصعاب والمشقات ، وضحى براحتـه وامنه ، ولم ينج من الاضطهاد والظلم والعسف والحيف ، ولكن ذلك كله لم يزده الا عنادا وتحديا واصرارا في التمسك بما يراه الحق غـير

---

(٩) عابر سبيل ص ٧٥ .

هياب ولا وجل مما يصيبه من اضرار ، لانه قد اختار لنفسه هذا الطريق الوعر الشائك ، على طريق الامن والسلامة .[10]

همـــاسبيـلان مـــن يبغ الســـلامة لا
يأسف عـــلى الحـــق او يحلم برؤيـاه
ومن بغـى الحـق فى الدنيـا فـلا أسف
عـــلى الســـلامة أن خانتـــه دنيـــاه
قد يهجـــر الامن من ذلوا ومن وهنـوا
وما تفـــرق قط الهـــول والجـــاه
فاختـــر لنفســـك : اما المجد في خطر
او الهـــوان وقـــد تشـــقى ببلـــواه
ومـــا اختيـــارك الا مـــا خلقت لـــه
ان الطبـــائع ما ترضـــاه نرضـــاه

وقد صور العقاد شقاءه من البلاء الواصب الذى اطبق عليه من كل جانب ، لاختياره ذلك الطريق الوعر الشائك ، ولكن شقاءه في نفســه هو الشقاء الذى تهون الى جانبه كل عداوات الاعداء .. صـــوره في مقطوعة عنوانها السعادة قال فيها[11] :

ان الشـــقى الـــذى لا صنو يشـــبهه
وللاصـــاغر أشـــباه وأمثـــال
من شـــابه النـــاس سرته مودتهـــم
ومـــن عـــلا عنهـــم ساءت به الحال
فاهنـــأ بمجـــدك ، اذ تشـــقى بعزلتـــه
وليحظ بالصـــفو أوغـــاد وجهـــال
ان الســـعادة تحـــت الارض معدنهـــا
لا يطـــلب الســـعد من آوتـــه أجيـالُ

---

(١٠) وحي الاربعين ص ٥٤
(١١) ديوان العقاد جـ١ ص ١١١ .

ويقول كذلك :

عشـــن آمـــن السرب كمـــا تشـتهى
مـــا نحـــن ممـــن يغبـــط الآمنيـن
ان حيـــاة الامـــن في شـــرعنا
مشنوءة مثـــل حيـــاة السـجين
كلاهمـــا يخفـــره حـــارس
مسدد النظـــرة فـــي كـــل حـــين
أيتهـــا الاخطـــار ، علمتنـــا
باننـــا الاحـــرار ، لو تعلميـن

وحينما يفخـر بانه حاطـم اصنام الحكم ، هادم الصروح البغـى والظلم ، حقق لنفسه مجدا ورفعة في ميادين الادب والسياسة والفكر ، ولا يعبأ بمال ولا تعب ، وحسبه فى هذه الدنيا انه حقق ما يبتغيـه من آمال كبار[١٢] :

أنـــا حاطـــم الاصـــنام والقبب
الحقـتـ منهـــا الـــرأس بالـذنب
في أمـــة الانســـاب أنشـــئ لـــي
ســـعيا بـــلا نعـت ولا لقـــب
فـــي أمـــة الامـــوال اتركهـــم
بعـــدى بـــلا مـــال ولا نشـــب
فـــة الانســـاب أنشـــئ لـــي
نســـبا مـــن العليـــاء والأدب[١٣]

وحينمـا رد على سـعد زغلول في مناقشته له حول خطبة العرش بقوله : « ليس كل فرد في الامة عباس العقاد » ردا على قـــول سعد

(١٢) المرجع السابق ص٢٠٨
(١٣) العقاد : ديوان من دواوين ص ٣١٧

« ردا على قول سعد » لو حاسبنى كل فرد فى الامة حسابك لعجزت عن أعباء وكالة الامة كما تقول[14] •

فالبواعث الكبرى في نفس العقاد تتجلى في القوة والحرية والعزة والكرامة ، وفرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين كلما وجب أن تفرض ، وفي هذا السبيل يهون المال ويهون العناء ويهون كل شيء !!

وقد يوحى اعتزازه بنفسه لدى بعض الناس بالغرور وخشـونة الملمس وصعوبة الشكيمة والجفاء فى القول اذا استغضب او اسـتثير ، والاستبداد بالرأى وغير ذلك من الصفات التي تشفى نفوسهم الكلمى وصدورهم الحانقة التى تتميز بالغيظ حقدا وحسدا على العقاد ، ولكنه لا يبالى بهم ولا يحفل بلومهم ويقول :

سرْ في طريقـك بين اللائمـين ولا
تحفـل بمن جـد فى لوم ومـن لعبـا

فالناس يرضـون عمن ليس يحفلهـم
ويغضبون عـلى من يحفـل الغضبـا

والذى نعرفه عن العقاد من طول مصاحبتنا له انه لا يتصف بالغرور الذي يقف بصاحبه عن الكفاح في سبيل المثل الاعلى مكتفياً بما يتوهم لنفسه من ذكاء وعبقرية ، وانما يتصف العقاد بالعزم الذى يدفـع الـى المخاطرة والاقبال على الاعمال الجليلة بغية الوصول الى المثل الاعـلى ، والتحدي للصعاب التى تصادفه •

كما اننا نعرف أنه لا يتصف بخشونة الملمس ، لاننا نعرف انه مهذب رقيق في علاقاته باصفيائه واوليائه والناس جميعا ، اللهم الا ان يلمس في محدثه تعاليا وتعالما ، فاذا تيقن ذلك انقلبت كفة الميزان حتى يقبل الى « القب » فيصب عليه شواظا ملتهبة من القضايا التى لا يستطيع ان يجادل

---

(١٤) سعد زغلول ص ٥٥٨

فيها ، ولا يسعه ازاءها الا التسليم والاذعان ، وذلك لمنطقة الجبار[١٥] •

على ان الخشونة ليست نقيضاً للرحمة ، وليست النعومة نقيضا للقسوة ، وليس الذين لا يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس ، فقد يكون الانسان ناعما وفي دخيلة نفسه عنف وبغضاء ، وقد يكون الانسان خشنا وهو اعطف خلق الله على الضعفاء •

وقد دافع العقاد عن الجهامة والجفاء والوحشة التى تبدو على وجهه في بعض الاحيان ، بانها ظل لافعال الناس معه ، وانها صورة أضوضاء الحياة وقتامها ، ومرآة لما يحدث في زمانه كذلك[١٦] :

اذا استصعبت نفسي وضاقت فجاجها
ولاحت لمرأى العين كالجبل الوعر
فلا تنكروا منها جفاء ووحشة
ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
فتلك ظلال الناس فيها ودونها
طبائع كالماء النمير اذا يجرى
ولولا صفاء الماء ما علقت به
مشابه من أو عار شطآنه الغبر
وان جشأت نفسي وصابت سماؤها
وغامت دياجيها على الانجم الزهر
فمن أرضكم ضوضاؤها وقتامها
ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
تليكم غواشيها الغضاب وفوقها
شموس تميط الليل عن طلعة الفجر

---

(١٥) اطلق عليه هذا الوصف سعد زغلول حينما وصفه بجبار المنطق •• « سعد زغلول بقلم سكرتيره » من سلسلة كتاب اليوم ، ص ١٩٥ وما بعدها ط عام ١٩٥٤ •

(١٦) عباس العقاد : ديوان العقاد ج ٣ ص ٢٥٨

وانا لمـــرآة لمـــا في زمانـــا
نحدث عنه حيث ندري ولا ندري
تفيـض لنـــا أفراحنـــا من صدورنا
وما فاضت الدنيا لنا بســوى الشـــر

على ان هناك زعما ينسب للعقاد استبداده برأيه ، وغضبه في حديثه وقلة صبره على مناقشيه • ولكن الدارس المنصف يرى انه زعم لا يستند الى دليل ، لان الذى اعرفه عن هذا الزعم ، انه في صميمه خرافـة الخرافات ، وباطل الاباطيل ، لان العقاد لا يكره المناقشـة ، بل إنـه ليطلبها ويستدعيها ، وينفر بل يضيق ويشمئز من الجلساء الذين لاعمل لهم غير التسليم والاذعان والتأمين على ما يقول دون اعمال فكر او شحذ قريحة ، ولكنه يضجر من المناقشة في حالتين اثنتين لم أره غاضبا في سواهما • أولهما : ان يتعالى المناقش أو يتعالم على العقاد كما قلنـا سابقا ، وثانيهما : تتمثل في ان من عادة العقاد تبسيط المسائل وتفصيل وجوهها وتقريبها من البـداهة بالبرهان الصادع والعبارة السلسة ، فاذا حادثه من لم يتعود هذا النسق من البحث ، أو من يضمر غرضا غـير الاقتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه الضجر وتكـدر من ضياع الوقت في غير طائل(١٧) •

وفي تصور الباحث انه لا يوجد انسان يكون اصبر من العقاد ، او أقل ضجرا منه ، لو تعرض لهاتين الحالتين في جلسة نقاش لقضيـة من القضايا ، وذلك لان المناطقة يناقشون ويجادلون ، ولكنهم يفرضون التسليم والاذعان في بعض الامور(١٨) •

والباحث المنصف يرى انه ماذنب العقاد في انه يتقدم زمنـه بصيرته النافذة التى تخترق الحجب وتهتك استار المستقبل المجهول •• ماذنبه مع رجل لا يكاد يرى الا ماهو ماثل بـين يديه ، أو تحـت

(١٧ ، ١٨ ، ١٩) راجع : عباس العقاد ناقدا للموءلف في مواضع مختلفة •

قدميه .. ان العقاد في مثل هذه الحالة ينفعل في حديثه وحواره بمنطق قوى ، ونهجة آمرة ، وقد تجمع النور في عينيه وانحصر منبعثا كالخنجر المسدد الى صدر مخاطبه .. حتى ينتهى نقاشه بأن يفرض على مناقشه التسليم شاء أو لم يشأ ، ذلك هو المنطق القويم فيما نعتقد بصدده[19] .

وبعيدا عن ذلك ترى العقاد في مجالسه الخاصة من أقدر الناس على مؤانسة جلسائه بالحديث الشائق والفكاهة الحاضرة والحدب المطبوع ، وحينما تسمع العقاد محدثا فانك لا تسأم من حديثه ولا تمل ، ولا تزال بين أذواد من الخبرة ، وطرائف الذكريات دون ان تلمح في حديثه شيئا من فيهقة العالم أو لجاجة الشيخ في تقرير آرائه وتجاربه على السامعين[20] .

واذا ما تأملنا العقاد صاحب هذه الشخصية الجبارة ، القوية الحازمة الجادة ، فاننا لنجده مترعا بالحنان ، مفعما بالعطف الانسانى على كل من يلقاه ، ويتمثل عطفه وحنانه في مداعبته لطفلة صغيرة بقوله[21] :

ما كان أملح طفلة | من غير شيء تخجل
ضحكاتها فتمايلت | وشعورها تتهدل
ورجوت منها قبلة | فأبت كمن يتدلل
وتعبت وهى تصدني | حينا وحينا تقبل

وهذا العطف والحنان نراه كذلك في تصويره لرجل عابس ، وهو في هذا التصوير يعبر نفسه من أعمق أعماقه[22] :

اذا ما تبينت العبوسة في امرىء
فلا تلحه ، واسأل سؤال حكيم
أجل سله قبل اللوم فيم انقباضه
وفيم رمي الدنيا بطرف كظيم

---

(٢٠) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٤٣ .
(٢١) عباس العقاد : ديوان العقاد جـ١ ص ٤٩ .
(٢٢) عباس العقاد : وحى الاربعين ص ٤٩ .

لعـــل طـــلاب الخير ســـر انقباضـــه
وعـــلة حزن في الفـــؤاد مقيـــم
فمـــا تحمـــد العينـــان كـــل بشـــاعة
ولا كـــل وجه عابـــس بذميـــم
قطوب كريم خـــاب في الناس ســـعيه
أحب مـــن البشرى بفـــوز لئيـــم

وفي اعتقادنا ان الدليل اصدق الدليل على هذا الحنان وذاك العطف تجاوزه من العطف والحنان على الانسان الى الحيـوان ، اذ ان العقـاد رثي كلبه « بيجو » بقصيدة شجية آسية ، لان فيها دلالة على النبـع الانساني العميق في نفس العقاد ، لان « بيجو » ليس حبيبا يلتذ حبه وليس صديقا افتقد اعقاد صداقته فيرثيه ، ولكنهحيوان يشغل من نفس العقاد مكان الود الانساني الخالص ، ويدل على مدى الفيض الشعوري في هذه النفس العامرة بالاسرار الروحية[٢٣] :

حزنا على بيجـــو تفيض الدموع
حزنا على بيجـــو تثـور الضلوع
حزنا عليـــه جهـد ما أســتطيع
وان حزنـــا بعـد ذاك الولـــوع
والله ـ يا بيجـــو ـ لحزن وجيـع

★ ★ ★

على ان من خلائق العقاد الكبرى انه رجل سمح ، لا يؤاخـــذ أصدقاءه على مابدر منهم في حقه ، ولا أدل على ذلك مما حدث له من عبدالرحمن شكري حينما نقده في صحيفة « عكاظ » في عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، اذ هاجم العقاد مع المازني في تلك المقالات مع ان العقاد لا ناقة له ولا جمل في خلافهما ، ومع ذلك فان العقاد لم يسيء الى شكري ، بل انه لم يرد عليه اصلا والتزم الصمت ازاء ذلك الاستفزاز الصارخ

(٢٣) عباس العقاد : أعاصير مغرب ص ١٧٥

الذي لا يسكت عليه احد كما سبق ان اشرنا الى ذلك .

وفي اعتقادنا انه لا ينفي سماحة العقاد كثرة معاركه الادبية التي خاضها واستخدم فيها أعنف الاساليب ، لانه لم يبدأ احد بالاعتداء أو التهجم عليه ، ولكنه يرد دائما على من يستثيره من خصومه عن طريق مهاجمتهم له أو التعالي عليه ، أو التفاخر بالدرجات العلمية والالقاب وغيرهما .

والباحث عن خلائقه الكبرى يرى انه رجل فكه ، وفكاهته حاضرة على البديهة ، وهي تارة بلسم وجراح ، وأخرى عدة من عدد الكفاح لديه ، وهي تصلح حينا لمساجلة الاصدقاء كما تصلح حينا آخر لمناجزة الاعداء . ولكنها على أي حال من النوع البريء السليم الذى لا أذى فيه ولا ضغينة ، ولا تعدو أن تكون مناوشة[٢٤] .

وتتجلى فكاهته بوضوح حين يعمد في كتابته الى الحديث عن خصم كريه ، فانه لا يبالي في هذه الحالة ان يرسمه بالفكاهة رسمه الهزلي الذى ينطبق عليه ، أو يرد شيئا من عداوته وأذاه ، أو حين يعمد الى دحض دعوى لا يؤمن بها ، فانه يصورها تصويرا فكاهيا ينفر منها ومن دعاتها القراء الذين أوشكوا ان يقعوا فريسة لدجل اصحابها[٢٥] .

ومن خلائقه كذلك حبه الخلوة وضنه بوقته عن اللغو ، وهي محسوسة لنا كأولياء أصفياء لاستاذنا ، وذلك لانه كان يصر على المضي في أداء رسالته وحدانيا مستقلا بكيانه وتقديراته في كل خليقة من خلائقه وفي كل اعماله ، وانه ليس جزءا من كتلة على أي حال[٢٦] .

وفي اعتقادنا انه ليس معنى وحدانية العقاد وعزلته انه يحارب الناس ولا يبادلهم العاطفة والشعور ، لانه يحب مسالمة الناس جهده ، ولا يستبيح لنفسه أن يبدأهم بما يسوء ، ولكنه لا يبيح لاحد ان يستخف بالاساءة اليه ، ولا سيما الاساءة التي على اعتزاز بقوة لا تدفع

(٢٤،٢٥،٢٦) العقاد بين اوليائه واعدائه لمحمد خليفة التونسى من كتاب « العقاد دراسة وتحية » ص٢٥ وما بعدها .

من اعتزاز بطغيان تعنو له الجباه ، فمثل هذا المسيء لا يدعه العقاد في طغيانه دون ان يندم عليه[٢٧] .

وقد كانت هذه العزلة التي ورثها عن أبويه ، والتي ابتعثتها في نفسه حب القراءة باعثا لان يطوف العام من مكانه ، اذ كان يشعر بأنه لا يقرأ سطورا على ورق ، ولكنه يحيا في تلك الاوراق بين أحياء[٢٨] .

ومن هنا كان يألف بعض شخوص التاريخ كأنه يعاشرهم كل يوم ، ويألف بعض الادباء في قراءة كلامهم فتمثلهم في ملامح وجوههم وعاداتهم ، في حركتهم وسكونهم ، بحيث انه لو كان مصورا لاستطاع ان يرسم لكل منهم صورة كاملة كما يرسم المصور أناسا من الاحياء يراهم كل يوم[٢٩] .

ومن ثم فانه منفرد بشخصيته ، منطو على نفسه ، ولكنه يتعاطف ويتفاهم مع اصدقائه واوليائه بنفس غنية بالعطف والفهم لاصدقائها ، تختلج لكل مؤثر ، لانها تلامس الحقائق وتتصل بالحياة والطبيعة صلة مباشرة ، فكل شيء يقع فيها وقعا جديدا ، ويبتعث خاطرا جديدا سواء كان هذا الشيء جليلا أم دقيقا ، أدبا أم تصويرا ، تمثلا أم غناء فلسفة أم اجتماعا ، جدا أم هزلا[٣٠] .

ومن خلائقه الطفولة الدائمة ، لانه ينظر الى الدنيا بعيني طفل ، فيألف الغريب ويستغرب المألوف ، ويلمح في كل شيء جديدا ، فينظر الى الافق الغامض البعيد ، متطلعا خاشعا يستخبر المجهول الذي وراءه ، ويحاول تفسير مالا يمكن تفسيره ، وذلك لعمق احساسه بان الحياة الكونية غير قائمة بذاتها مستقلة عن الحقائق العلوية وان ابسط الظواهر

---

(٢٧) من حديث خاص مع العقاد .

(٢٨،٢٩) عباس العقاد : انا ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٣٠) العقاد كما عرفته لعبدالرحمن صدقي من كتاب العقاد دراسة وتحية ص ١٠١ وما بعدها .

الطبيعية متصلة باسرار الازل والابد .

وكان رحمه الله يحب الحياة ويبتهج بها ، لانه لا عمل لكل حاسة في نفسه الا ان تحس وتحيا وتستجد احساسا وحياة ،ولا تشبع من الاحساس والحياة ، فالاحساس عنده يتجاوز حيز البديهة الى حيز التفكير ، ومن ثم فان يقظته الحسية في حبه للحياة تصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسرى به كل مسرى ، وتنفذ به الى كل منفذ ، وتترجم العواطف والاخلاق ، كما تترجم المناظر والالحان ومن هنا ابتعث حبه للحياة في نفسه ملكة التأمل في الحقائق والتعمق في الافكار، فاصطبغ فكره وادبه تلك الصبغة ذات الاسلوب الرصين ، والتفكير الدقيق ، والاحاطة الشاملة(٣١) .

كما ابتعث في نفسه حب القراءة ، لانها السبيل الوحيد لمضاعفة حبه للحياة وعبادتها ، فهو لا يريد ان يعيش حياة واحدة لانها لا تكفيه ، وليس المقصود بالقراءة لدى العقاد ان يكون كاتبا ، والا اصبح موصل رسائل او كاتبا بالتبعية ، وليس كاتبا بالاصالة ، فلو لم يسبقه كتاب آخرون ، لما كان كاتبا على الاطلاق ، ولو لم يكن احد قبله قد قال شيئا لما كان عنده شيء يقوله للقراءة(٣٢) .

ولا أدل على ان العقاد لا يقرأ لكي يكون كاتبا ، انه يقرأ كتبا كثيرة لا يقصد الكتابة في موضوعاتها على الاطلاق مثل علم الحشرات ، فهو يقرأه لينفذ بها الى بواطن الطبائع واصولها الاولى ، لان الاحياء الدنيا هي ـ كما يقول العقاد ـ « مسودات » الخلق التي تتراءى فيها نيات الخلق كما تتراءى في النسخة المنقحة ، وقد تظهر من المسودة اكثر ما تظهر بعد التنقيح ، ومن ثم نستطيع ان نعرف كيف نشأ الاحساس للقراءة ، فنقترب بذلك من صدق الحس عنده وصدق

(٣١) راجع : عبس العقاد ناقدا للمؤلف .

(٣٢) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ من مارس ١٩٤٨ تحت عنوان « لماذا أهوى القراءة » .

التعبير ولو في غير هذا الموضوع[٣٣] .

القراءة عنده مقصود بها اضافة مقدار من الحس والفكر والخيال، لانه ليس لديه الا حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا تكفيه، ولا تحرك كل ما في ضميره من بواعث الحركة ، والقراءة دون غيرها هي التي تعطيه اكثر من حياة واحدة في مدى عمر الانسان الواحد ، لانها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب[٣٤] .

فالفكر لدى الشخص واحدة وكذلك شعوره وخياله ولكنها اذا تلاقت مع فكرة غيره أو شعوره أو خياله ، فتصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد . لان الفكرة الواحدةجدول منفصل ، أما الافكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول جميعا ، والفرق بينها وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الافق الواسع والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور[٣٥] ، ومن ثم فانه يزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع ان يجمع الحيوات في عمر واحد ويستطيع ان يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل .

وليس أدل على حبه الحياة ، وتعميقه لحياته التي يحياها من تساؤله عن الموضوعات التي يقرأها ، حيث ردها الى منبع واحد ، وذلك حين يقول : « وقد تختلف موضوعات القراءة ظاهرا أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك اذا رددتها الى هذا الاصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين . أين غرائز الحشرات مثلا من فلسفة الاديان ؟ وأين فلسفة الاديان من قصيدة غزل أو قصيدة هجاء ، وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو تاريخ ثورة ؟ وأين ترجمة فرد من تاريخ امة ؟

(٣٣،٣٤،٣٥،٣٦) مجلة الهلال: مارس ١٩٤٨ وراجع عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٨٠ وما بعدها .

ظاهر الامر انها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب وحقيقة الامر انها كلها مادة واحدة، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود اليه غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة ، وفلسفة الاديان بحث في الحياة الخالدة الابدية وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة انسان في حالي الحب والنقمة ونهضة الامم أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرضة لحياة انسان ممتاز بين سائر الناس ، وكلها امواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول الى المحيط الكبير(٣٦) .

وينفي العقاد معرفته ابان نشأة القراءة عنده للصلة بين هذه الموضاعات المختلفة ، ولكنه كان يقرأ على كل حال الى ان نظر في موضوعات ما يقرأ ، فلم يجد بينها غير تلك الصلة الجامعة ، وهى التي تتقارب بها القراءة عند فراشه والقراءة عن المعرش وشيكسبير(٣٧) .

* * *

هذه هي صورة العقاد كما بدت لنا من خلال مصاحبتنا الطويلة له، ودراستنا لآثاره وعلاقاته باوليائه واعدائه .

وهذه الصورة يختلف فيها كثير من الناس فيحملها كل واحد منهم على المحمل الذى تمليه عليه شتى المدارك والامزجة تحت تأثير الحالات النفسية الطارئة ، فتأخذ الصورة ألواناً تحسبها ، وتتسمى الظاهرة أسماء عدة بعدادها ، بل ان كثيرا منهم لينسب اليه ما حصل وما لم يحصل ، وما يحسن لديه وما لا يحسن ، كعادتهم في فهم الشخصيات المركبة الحية التي تزدحم فيها كل نوازع الحياة وتتربع على عرش الشهرة ، ومغالاتهم في أحكامهم على تلك الشخصيات وتناقض أحكامهم على أصحابها في أغلب الاحايين .

---

(٣٧) راجع مجلة الهلال مارس ١٩٤٨ .

٢ ـ عقيـــدته :

والعقيدة الدينية التي يدين بها العقاد لا ترتكز على الحواس والعقل فحسب ، لانهما لا يكفيان في الوصول الى الحقيقة الكونية الـكبرى ، وذلك لان الحواس تدرك ولا تعرف ، والعقـــل يبرهن ولا يعرف ، والحقيقة الكونية اكبر من ان تدرك بالحواس ، واعمق من ان يبرهن عليها بالعقل ، ولكن السبيل الى معرفتها هو الوعي الكوني Cosmic Consciousness· وهو ملكة وجدانية اشبه بما يسـلكه المتصوفة في أذواقهم ومواجيدهم •

والوعي الكوني هو الذى يجعلنا نحيا هذه الحقيقة الكونية ونعيش معها ، وننفذ الى اعماقها ، لان الموجودات ـ كما يقول العقاد ـ غـير محصورة في المحسوسات ، ومن الواجب ان نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول ، لان انكارها جهل لا يقوم عليه دليـل ، ولان وجودها ممكن وليس بالمستحيل(٣٨) •

ويوضح العقاد هذه الحقيقة فيذهب الى ان أحق الناس بعرفان هذا لاولئك الذين نظروا الى الكون بعين الباطن •• وقالوا في ذلـك ما لـم ينقضه علم ولن ينقضه ما دام للانسان لباب وراء الحواس والعقول(٣٩) •

ومعنى هذا ان معرفة الذات الالهيـة بوساطة النظر العقلي والدليل المنطقي لدى العقاد لا ترقى الى مرتبة اليقين ، لانه يعتقـــد ان الاذواق الصوفية الصادرة عن البصيرة والالهام هي وحدها التـي تستطيع ادراك حقيقة الذات الالهية ادراكا مباشرا ، كما تستطيع مشاهدة كل ما يصدر عنها في الكون من آيات الحق والخير والجمال •

أما الموضوع الذى اخذ من تفكير العقاد كل مأخذ فهو العقيـدة ، لانه لابد للباحث أن يبدأ منه ويعود اليه دائما ••

---

(٣٨) العقاد : الله ص ٣٥ الطبعة الاولى •

(٣٩) العقاد : التصوف عند الدرس هكسلي : مجلة الكتـــاب ص ١١٣ سنة ١٩٤٦

وفي اعتقادنا أن معرفة العقاد بالله يستخدم فيها مشاعره المباشرة في بساطتها ونضارتها الكامنة في طوية نفسه ووجدانه ، وذلك بالاضافة الى اعنات فكره اعناتا ، وكد ذهنه كدا ، واستخدام حواسه حتى مداها ، ولكننا لا نغلو اذا قلنا ان العقاد ليصرح في جلاء ووضوح بأنه قد تعرض له فيما بينه وبين نفسه حقيقة يستطيع أن يدركها ادراكا مباشرا ، وأن يثبتها اثباتا يقينيا ، وأن يستكنه سرها لاول وهلة تعرض له فيها هذه الحفيقة دون أن يكون في ذلك كله معتمدا على الحواس أو مستندا الى العقل ، بل كل ما هنالك هو شعور روحي بهذه الحقيقة واشراق باطني يشع في جوانب القلب اشعاعا يكشف عن هذه الحقيقة(٤٠) .

وفي مجال التطبيق لهذه الحالة يحدثنا العقاد عما حدث له في موقفه بين يدى الرسول في المسجد النبوي أثناء زيارته للحجاز ، عدا ما يعرض له في اغلب الاحايين من هبة التلباثي Telepathy كما يسميها النفسانيون المحدثون ، أو على حد ترجمة العقاد الشعور البعيد(٤١) . وهي حالة نفسية يمتاز بها العباقرة عن العاديين من الناس فيدرك الواحد منهم ما يفكر فيه الآخرون دون أن يكون هناك كلام أو اشارة ولو كان البعد بينهما شاسعا، وهي مزية انسانية نادرة ..

ولا ننكر في هذا المقام معرفة العقاد لله بوساطة شعوره الروحي واشراقه الباطني لأنها تتفق وطبيعة العقاد الشاعر الذى يعي الكون بشعوره قبل أن يدركه بحواسه وعقله ثم يتمثل هذا الكون وينقله من العالم المادي الفيزيقي الى عالم الصور والمثال ..

وبعد الحديث عن منهجه في المعرفة يحسن أن نعرف موضوع المعرفة لديه ، وخلاصة ما يقال فيه انه موضوع واسع بقدر ما هو عميق ،

---

(٤٠) من حديث خاص مع العقاد في صيف عام ١٩٦٠ ، وراجع كذلك جلال العشري : العقاد الفيلسوف : العقاد دراسة وتحية ص٨٩ ط ١٩٥٧

(٤١) العبقريات ص٤٨٥ ط١٩٥٧ .
دراسة وتحية ص ٩٠

ينطلق من عقاله ليقبل على كل مجهول ، وينهل من كل مورد ، فيتناول بالبحث الاهتمام بما وراء الطبيعة أيا كان مظهرها حتى البحث في مذهب دارون والنظر فيما وراء الغيب ، أو في أرجاء الأرض ، أو في أعماق الانسان •• وهذه نزعة تصوفية ـ كما يقول العقاد ـ لأن المتصوف لابد أن يعرف نواحي الفكر المختلفة ، ثم يترقى بعدها •• فالغزالي مثلا لم يترك شيئا من الافكار التي ذكرها العلماء في عصره أو قبله ، وبعد ذلك تدرج الى درجة أعلى من[٤٢] التصوف • والعقيدة عند العقاد تتمثل في الذات الالهية التي يرى أن تصورها ليس عادة انسانية تعودها الانسان بغير تفكير ـ كما يرى بعض النفسانيين ـ لأنه تعود أن يخلع صورته على الاشياء ، ويحسبها ظلالا له تحكيه في ملامحه وخوافيه ، ولكنها نهاية ما يدركه العقل واعيا صاحيا مع التفكير ومتابعة التفكير الى مداه[٤٣] •

وفي موضع آخر نراه يتحدث عن علاقة العقل بمعرفة الله فيقول : « فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الايمان ، ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ، ثم لا ينكر ما وراءها لانه وراء تلك الحدود »[٤٤] • ووسيلة العقاد في معرفة الله هي الوعي الكامل وهو تيقظ ذات واعية حتى يحصل لها موضوع وعيها من الخارج ، لانه ليس بداخلها ••

على أن العقاد ينفي استلزام كلمة الذات الالهية فى التشخيص في في الحقيقة لا فى المجاز ، ولا تقتضى نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير كيان مستقل عن الوعي والصفات الواعية ، لانها تدل على الجوهر الذى تضاف اليه الاوصاف ، وتدل على الكائن الذى يملك صفاته فهو « ذو » تلك الصفات[٤٥] •

---

(٤٢) العقاد في ندوته ، وراجع كذلك جلال العشري العقاد دراسة وتحية ص ٩٠ •

(٤٣،٤٤،٤٥) العقاد : الله صفحات ٦٠ ، ٢٩٦ ، ٥٦ •

ومعنى هذا أن العقاد لا ينظر الى مشكلة الله على أنها مشكلة وجود ، وانما ينظر اليها على أنها مشكلة صفات ..

ويذهب العقاد الى أن تقييد « الذات » الالهية بأية صفة من الصفات المألوفة لنا أو المعهودة لدينا ، انما هو من قبيل الوهم والضلال ، لانه لا أساس للقول بأن « الله » لا تكون له صفات متعددة لانه جوهر بسيط ، ولا أساس للقول بأنه لا يعلم الجزئيات ، لانه يعلم أشرف المعقولات ، وهو ذات الله ، فمثل هذه الاقوال لا أساس لها من الصدق ولا من الصواب في الذهن أو الخيال ، ولم يفعل أصحابها شيئاً أكثر من أنهم زادوا اللغة كلمة ، ولم يزيدوا العقل تفسيرا ، ولا الفلسفة مذهبا ، ولا الدين عقيدة ، وهنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى ، بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا أن اللهجل وعلا ليس كمثله شيء .. فكل ما نعلمه أنه ـ جلا وعلا ـ كمال مطلق ، وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذي ليس له حدود ، وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون ، وكيف يفعل ، وكيف يريد(٤٦) .

ويسوق العقاد الحديث عن صفات الله الى الحديث في امكان الايمان، لانه ما دامت الذات كمالا مطلقا والعقل امرا محدودا ، فلابد من السؤال عن العلاقة بين العقل والايمان ، اذ كيف يكون ايمان والعقل الانساني قاصر عن ادراك الذات الالهية ، وكيف تكون صلته بين الكمال المطلق والانسان(٤٧) .

ومن ثم فليس من المعقول ـ في رأي العقاد ـ أن يكون سبب الايمان هو بعينه السبب المبطل للايمان ، وليس من المعقول كذلك ان يستحيل الايمان مع وجود الاله الذى يتصف بأكمل الصفات ، ولكن المعقول هو أن الصلة بين الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده ما دام الانسان

---

(٤٦) الله : ص٢٩٥ ، والعقاد الفيلسوف « لجلال العشري في العقاد دراسة وتحية » ص ٩٣ .

(٤٧) راجع : العقاد الفيلسوف لجلال العشري في « العقاد دراسة وتحية » ص٩٤ .

كله وما دام العقل وحده ليس هو قوام وجود الانسان •

وفي هذا الصدد يقول العقاد : فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وادلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن ، وضمير عطل من الايمان ، ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ، ثم لا ينكر ما وراءها لانه وراء تلك الحدود[٤٨] •

ويمضى العقاد مع العقل الى غاية مداه ، فيرى أنه قاصر عن معرفة الله ، ومن هنا فانه قد لجأ الى المعرفة الصوفية فتمكن « بالوعي الديني » الذي هو ضرورة لا محيص عنها ، وواقع ملازم للانسان من أن يجد لله في مجال العقيدة مكانا مستقلا بنفسه قائما بذاته • ويبقى بعد ذلك أن « الوعي » أعم من العقل المجمل وأعمق منه ، وأعرق في اصالة وجوده مع الحياة الانسانية منذ نشأتها الاولى ، ونعتقد أن الوعي الكوني المركب في طبيعة الانسان هو مصدر الايمان بوجود الحقيقة الكبرى التى تحيط بكل موجود[٤٩] •

على أن العقاد يبين الهدف من ايمانه ويوضح منهجه في الايمان فيذهب الى أن ايمانه في العقيدة والاخلاق والمعاملة والادب يوزن بميزان واحد هو ميزان المثل الأعلى ، أو طلب الكمال • وايمانه بالله جاء عن طريق الوراثة والشعور وبعد التفكير الطويل •

فالوراثة ، تتمثل في انه نشأ بين أبوين شديدين في الدين ، لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية ومن هنا فللوراثة شأن فيما عنده من سليقة الاعتقاد •

أما الايمان بالشعور ، فذاك لان مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب ، وربما كان « وعي الحياة » شعبة من « وعي الكون » أو من « الوعي الكوني » الذى يتعلق به كل

---

(٤٨) كتاب الله ص ٢٩٣

(٤٩) المرجع السابق ص٢١٠ وراجع كذلك العقاد دراسة وتحية ص ٩٥

شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم والوعي الحيوى مصدر النفس والوعي الكوني مصدر الدين[٥٠] •

أما الايمان بالله بعد التفكير الطويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون •

ثم يعقب العقاد على ما طرأ له في مجال العقيدة من حيرة وشكوك انتهت بانتهاء بواعثها ، ومن هنا فانه يعلن أنه ما م ن مذهب اطلع عليه من مذاهب الماديين الا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي الى توفيق أو يلجئه الى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والاساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة[٥١] •

ويناقش العقاد دعاوى الماديين قائلا : « فالقول بالتطور في عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول ، لان ابتداء التطور يحتاج الى شيء جديد في العالم القديم ، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في سؤال فضلا عن الفكر أو الخيال » •

والقول بالارتقاء الدائم من طريق المصادفة ، زعم يهون معه التصديق بالغيلان والسعالى وخوارق العادات في تركيب الاجسام والاحياء •

والقول بان المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت ، وان البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا ، أن يقال : ان العقل والمادة موجودان ، وان أحراهما أن يسبق الآخر ، ويخلقه هو العقل ، لان المادة لا توجد ما هو أفضل منها ، وفاقد الشيء لا يعطيه ••

فأنا أومن بالله وراثة ، وأومن بالله شعورا ، وأومن بالله بعد تفكير طويل[٥٢] •

---

(٥٠) الهلال يناير سنة ١٩٤٧

(٥١) المصور ٥ يوليه سنة ١٩٦٣

(٥٢) الهلال يناير سنة ١٩٤٧ ، وراجع كذلك المصور ٥ يوليه ١٩٦٣ •

وفي اعتقادنا أن ايمان العقاد بالله يتمثل في أن الله كمال محض • ومن هنا فانه ينزهه عن اشتهاء العقاب الذى ينزله بعبيده في الحياة الآخرة ـ كما صورته الكتب الدينية ـ لانه يكفيهم ما حدث لهم في الدنيا من آلام وأسقام •

على أنه يرى أن الحياة الآخرة نفسها لا يستطيع خيال الانسان أن يحيط بوصفها ،أو لن يصل في شأنها الى وصف يستقر عليه ، فهو لا يرضى ان تكون الحياة الآخرة كهذه الحياة لانه يطمح أبدا الى كمال بعد نقص ، وغبطة بعد ألم ، وهو لا يرضى أن تكون الحياة الاخرى مبدلة مستحيلة ، لانه متى تغير شعوره ، وتبدلت مداركه ومقاييس نظره أصبح مخلوقا آخر ، وأصبح النعيم الذي يرجوه كأنما هو نعيم مكتوب لانسان سواه ، فهو يحب أن يغير حياته ولا يحب أن يغيرها في وقت واحد ، والخروج من هذه الحيرة لن يكون الا على حالة فوق ما يعقل وفوق ما يتخيل ، ويعبر عن ذلك بقوله شعرا(٥٣) •

ايها السائل : ما بعد الممات ؟ يمم الصحراء وانظر قفرها
ما وراء القبر في قول الثقاة حالة تحمد يوما سرها
لست بالراضي حياة كالحياة لا ولا ترضى حياة غيرها

كما أن العقاد لا يقف بمقتضيات العقيدة عندما تحدث به الفقهاء من الواجبات التي تترتب على الايمان ، وتعتبر أثرا له ، لانه يرى ان مقتضيات العقيدة أوسع وأعمق من أن تقف عند هذه الاشياء ، وبمقدار ما يحققه الانسان من خير للانسانية يوزن ايمانه ، ونشدان العقاد للمثل الاعلى في الادب والفن والفكر والدين والعلم ، انما هو ايمان أعمق من ايمان من وقفوا عند الصلوات لا يبرحونها •

٣ ـ فلسفته العامة(٥٤) :

لا نقصد بالحديث عن فلسفة العقاد العامة البحث عن مذهب

---

(٥٣) وحى الاربعين ص ١٧ وما بعدها •

(٥٤) راجع : مجلة الثقافة في عدديها الصادرين في ٢٠ من اكتوبر، و٣ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ اذ نشرنا فيهما فلسفة العقاد العامة ••

فلسفي لديه ولكننا نقصد الحديث عن منهجه في الحياة الذى يتضمن سلوكه وفهمه للمشاكل التي تعترضه ومدى استقلاله في فكره وعلاقة فكره بعمله •

وفي اعتقادنا أنه من الممكن أن نستخلص فلسفة العقاد العامة من مجموع انتاجه الوفير في أسس ثلاثة هي الفردية ، والحرية ، والنظرة الفنية الى الكون والحياة •

أ ـ الفردية :

فالفردية عند العقاد ـ كما سبق أن أشرنا الى ذلك ـ ترادف من وجهة نظرنا الشخصية الـ Personality التي لا تتكرر ، وليست الفردية عنده هي الـ Individuality بحيث لو تأصلت لديه كانت أنانية وولوعا بالسطو على حقوق الآخرين ، لان العقاد يهتم في تكوين شخصيته ، بأن تكون ذا طبيعة قوية سليمة ، حتى تستطيع أن تفهم أن القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد ، غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الامة أو الامم في جميع العصور ، لان غاية الكون أكبر من غاية هذا الفرد أو ذاك الشعب • ومتى تعارضت الغايتان ـ ولابد أن تتعارضا في حادثة من الحوادث ـ فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لاجل الكبرى ••

وفي مقام التدليل على ذلك نستدل بموقفه من اسماعيل مظهر صاحب مجلة « العصور » التي أخذت على عاتقها مهاجمة العقاد في عام ١٩٢٩ عن طريق المقالات التي كان ينشرها فيها مصطفى صادق الرافعي تحت عنوان « على السفود » والتى كان يكتبها باسلوب فيه بذاءة ، وتفكير فيه فحش ، وروح منطوية على الشر •• ومع ذلك فان العقاد هو الذى رشح اسماعيل مظهر لعضوية مجمع اللغة العربية مطرحا العلاقة الخاصة بينه وبين اسماعيل مظهر وراء ظهره ، استهدافا للمصلحة العامة •

ومن هذا يتضح أن العقاد لا تتصف فرديته بالانانية ، وانما تهدف الى الكمال وفهمه ، ومن الكمال ما هو عسير على النفس محفوف بالمخاطر

مكروه العواقب ، مستهدف للنقد والمذمة بين من يجهلونه أو يصابون في منافعهم من جرائه ، ولا باعث لطلب الكمال أقوى من باعث الشوق اليه والارتفاع بالنفس الى ما ترضاه ..

ويذهب العقاد الى أنه لا باعث الى الخير في عالم الاخلاق أقوى من شعور الانسان بكماله ، ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الانسان بنقصه ، ولا أخلاق لمن يحسن لانه يؤجر على الاحسان ، أو يسيء لانه في أمان ، فساعة من الغبطة ببلوغ الكمال هي غاية ما تعلو اليه النفس من مراتب السعادة ، وساعة من تبكيت الضمير على النقص هى غاية ما تنحدر اليه النفس من الشقاء(٥٥) .

وشعور الانسان بكماله هو الذى يجعله يحب شخصية العظيم ، ولكنه لا يريد ان يكون مثله ، حتى ولو كان نبيا ، فهو يعتقد بعظمة الانبياء ، ولكنه لا يحسدهم ، لانه لا يريد ان يكون معصوما ، ولو خير مع العصمة فلا يرضى بها(٥٦) . وانما يتخذ لنفسه منهجا سلوكيا خاصا به ، يتمثل في أنه لا يقنط من طيبة الناس كل القنوط ، ولا يعول عليها كل التعويل ، بل يحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير ، ويعتمد على نفسه كأنه لا خير في الناس ، ويترجم عن هذا شعرا بقوله(٥٧) :

أنا لا ألوم ولا ألام حسبي من الناس السلام
ليس العتاب بمصلح خللا توارثه الانام
أنا ان غنيت عن الانا م فقد غنيت عن الملام
واذا افتقرت اليهم فاللوم من لغو الكلام

ومن ثم يقبل على الحياة بخيرها وشرها ، ونعيمها وشقائها ، وانما يمضى معها بفلسفة حيوية متزنة ، وذلك كما يقول(٥٨) :

قالوا : الحياة قشور قلنا : فأين الصميم ؟

---

(٥٥) راجع الهلال يناير سنة ١٩٤٧
(٥٦) العقاد في ندوته ..
(٥٧) ديوان العقاد ج ١ ص ١٢٠
(٥٨) ديوان العقاد ج ١ ص ٥٣

قالوا : شـقاء ، فقلنـا نعـم : فأين النعيـم ؟
ان الحيـاة حيـاة ففارقـوا أو أقيمـوا

فهو لا يتطرف في جانب النعيم فيرضى عنها ، ولا يتطرف في جانب الشقاء فيضيق بها ، ويسيء الظن ، لانه ينكر فلسفة سوء الظن(٥٩) :

من ساء بالناس ظنا دون ما ألم أحق عندى بسوء الظن والتهم
أسيء ظنونك لكن مكـرها أبدا كمن يظن ببعض الآل والحرم

وهـذا قول رجـل انساني تزخر نفسه بالعطف ، وتفيض بالثقة ، فينكر فلسفة سوء الظن ارتجالا وتطوعا ، فسوء الظن عنده بالانسانية أمر مكروه ، لا يقدم عليه الانسان • وله منفذ الى رجاء فيهـا كمن يظن ببعض الآل والحرم بعد ألا يجد بدا من الظنون •

على أنه يحدد منهجه في الحياة أكثر من ذلك حينما يقول(٦٠) :

زاهد الهنـد نعى الدنيا وصام أنا أنعاها ولكن لا أصـوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام أنا أرعاهـا ولكن لا أهيـم
بين هذين لنـا حد قوام وليلم من كل حزب من يلوم

ومن هنا نرى أنه يتطلع الى الجانب الوضاء من الحياة ، فينتشـل نفسه من بحر شقائها لينعم بخيرها وطيباتها ، ولكنه لا يتمادى في تنعمها ، وانما يكبح جماحها عن الابتذال حتى يظل على سمته ووقاره • فاذا ما أصيب بالمصائب الجسام ، أو ضاق بالحياة ذرعا فانه ليترجم مشاعره في شعره ترجمة صادقة لا كذب فيها ولا اختلاق فيقول(٦١) :

ظمـآن ضمـآن ، لا صوب الغمـام ولا
عـذب المـدام ولا الانـداء ترويني
حـيران حـيران ، لا نجم السماء ولا
معـالم الارض في الغمـاء تهديني

(٥٩) وحي الاربعين ص ٤٦ •
(٦٠) وحى الاربعين ص ١٩ •
(٦١) ديوان العقاد جـ٢ ص ١٩٤ •

يقظـــان يقظـــان ، لاطيب الرقـاد يـــدا
نيني ، ولا سَـــمر السمار يلهيني
غصـــان غصـــان ، لا الاوجـاع تبلينـــى
ولا الكـــــوارث والاشـجان تبكينـــى
شـــعرى دموعى ، وما بالشعر من عوض
عـــن الدموع نفاهـــا جفن محـــزون

وهاته اللوعة اللاعجة التي نلمسها في هذه الابيات يغص بها كثير من شعر شبابه ، حتى كاد ان يكون شكايته من كل شيء .. من الزمن[٦٢] :

فشـــت الجهـالة واســـتفاض المنكـــــر
فالحـــق يهمـــس والضـلالة تجهـــر
والصـــدق يسرى فى الظـــلام ملثمـــا
ويســير فى الصبــــح الريـــاء فيسـفر
انـــا لفـــى زمـــن كـأن كبـــــاره
بســـوى الكبائر شـــأنها لا يكبـــــر

ومن شباب مصر[٦٣] :

كـــم ذا أعـــاشر من صحبى وأعـــدائى
مـــن ليـــس يعقـــل آمـــالي وآرائـــي
قـــوم عـــلى كثب منـــى ويفصلنـــى
عنهـم مســـافة بيـن الليث والشـــاء
ويلي عـــلى مصر ! قـد أمست وليس بهـا
ضرب من الصـــدق الا قـــول هجـــاء
تجنبـوا الصـدق حاشـا في شتائمهم
فهـم نبيـــون فـى ظـــن وانبـــاء

(٦٢) المرجع السابق جـ١ ص١١١
(٦٣) ديوان العقاد جـ٢ ص١٥٣ وما بعدها .

مشهرون اسروا الامر ام جهروا
فليس اخفاؤهم الا كافشاء

وفى اعتقادنا ان كثرة الشكاية فى شعره لا تعنى ان الرجل متشائم ، لان الانسان قد يشكو لانه مفرط في التفاؤل ، ولانه ينتظر ويرجو ، ونحن لا نشكو الا من الصديق الذى نثق به ونعول عليه ، وننتظر منه المودة ولا ننتظر منه الجفاء ، فالشكوى اذاً قد تكون مقياسا للثقة والامل ، أو مقياسا للتفاؤل والاقبال(٦٤) ..

على ان العقاد بطبعه القويم وسلامته من ضعف الاعصاب واختلالها لا يتشاءم ولا يتطير ، لانه ينتظر من الدنيا خيرا ، بل انك لتجده متفتحا لها يتمتع بطيباتها ولذاتها فيقول(٦٥) :

« قم حزين العمر ، فاطرب وارتشف
من كئوس الحب ما يجلو الحزن
فاغنم اللذات فى اوقاتها
انما الميت من ينسى الزمن
واقتطف زهر ربيع مونق
نحن ان لم نقطف الزهر فمن !

ومعنى هذا انه لا يحس نفرة بينه وبين الدنيا ، وليس ضعيف الاعصاب مختلها حتى يؤدى به هذا وذاك الى التشاؤم والتطير ..

وفي تصورنا ان هذا المنهج السلوكي الذي انتهجه العقاد في حياته لا يهدف به الى ارضاء نفسه كفرد ، قدر مايهدف الى ارضاء نفسه كمثال يحقق الكمال الانساني او يكاد ، لان هذا المنهج قد فرش طريقه بالشوك والاحن والعداوات والخصومات التي وجهت اليه قربانا وزلفى ، لانه صاحب رسالة في مجتمع لا يعرف شيئا عن الرسالات واصحابها ، ومع ذلك فقد مضى في تأدية رسالته الانسانية في تصحيح الاذواق وتحرير العقول ، وتحريك

---

(٦٤) عباس العقاد : على الاثير ص١٢١ ، ١٢٢ ط أولى ١٩٥٣
(٦٥) ديوان العقاد . جـ٢ ص١٦٤

الضمائر ، وتدعيم الاخلاق ••

فالفردية لدى العقاد اذن لم تكن باعثا على التجديد في الشعر والادب كما ذهب الدكتور مندور[٦٦] ، وانما الباعث على التجديد هو طلب الكمال والارتفاع بنفسه من الفردية الى الشخصية الانسانية حتى يتمكن من أداء رسالته الانسانية التى اضطلع بها وناء بعبئها •

ب ـ الحريـــة :

أما الاســــاس الثانى في فلسفتــه العامة فهو الحرية التى يعتبرهــا فضيلة الفضائل ، ودليلا على رقي الامم وآدميتها ، بل انه لشدة شغفه بهـا اعتبرها مقياسا للجمال ، ومرادفة له ، فالجمال في مفهومه هو الحــرية ، والجمال في الجسم الانسانى هو حرية وظائف الحياة فيه وسهولة مجراها ومطاوعة أعضاء الجسم لاغراضها ، وقيام هذه الاعضاء مقام الادوات الملبية لكل اشارة من اشاراتها[٦٧] •

ويذهب في موضع اخر الى ان الجسم الجميل هو الجسم الـذى لا فضول فيه ، وانه الذى تراه فيخيل اليك ان كل عضو فيه يحمل نفســه غير محمول على سواه ، ومن هنا جمال الرأس الطامح ، والجيد المشرئب، والصدر البارز ، والخصر المرهف الممشوق ، والردف المائل ، والساق التى يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها انها لا تحمل شيئا من الاشياء ولا تنهض بعبء من الاعباء[٦٨] ••

ويقول في وصف فتاة على شاطىء الاسكندرية « والمصادفة من اجمل المصادفة ، طيارة في الهواء وفتاة على الارض هي اولى بالطيران من تلك الحديدة الصاعدة ، بل هي تطير ولا يتخيلها الناظر الا طائرة تفلت من لحظات العيون وخطرات الارواح •• ولا تحس العين انها ادركتها ، لانها اذا ادركتها تأملت فيها وسرحت في معانيها ، فاذا هي بعيدة ابعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل

---

(٦٦) الدكتور محمد مندور : عباس العقاد ناقدا في مجلة «المجلة» يوليو ١٩٥٩ العدد ٣١ •

(٦٧) راجع مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٥٣ •

(٦٨) مجلة الرسالة ٢٥ يولية ١٩٣٨ ، ع ٢٦٤

فاذا هو على الغصن ، ويثب اليه في غصن فاذا هو في الهواء[٦٩] .

ومعنى هذا اننا ـ كما يقول العقـاد ـ نحب الحرية حـين نحب الجمال ، واننا احرار حين نعشق من قلوب سليمة صافة ، فلا سلطان علينا لغير الحرية التي نهيم بها ، ولا قيود في ايدينا غير قيودها[٧٠] لان ميزان الحرية القيد ، وانها لا تتنافر او تتناقض مع النظام ، والا غدت ضربا من الفوضى والتهريج ..

والعقاد على هذا الاساس من فلسفته العامة وهو الحرية يبنى وحدة فكرة في الحياة والفن على سواء .

على اننا نعتقد ان طلبه للحرية يأتى من داخل نفسه وفكره واحساسه وجسده ، وليس تقليدا لاحد في طلبها ، لانه يعد التقليد في طلب الحرية نوعا رفيعا من الذل والعبودية[٧١] . ومن ثم فانه قد وطد نفسه على هجر حياة الامن ومقابلة الاخطار بصدر رحب في سبيل الحرية ، وذلك كمـا يدل عليه قوله[٧٢] .

عش آمن السرب كما تشتهى
ما نحن ممن يغبط الآمنين
ان حياة الامن في شرعنا
مشنوءة مثل حياة السجين
كلاهما يخفره حارس
مسدد النظرة في كل حين
أيتها الاخطار علمتنا
باننا الاحرار لو تعلمين

وظل يكافح في سبيل الحرية حتى انتهى كفاحه بسجنه . ولكـن

---

(٦٩) المصدر السابق نفس العدد .
(٧٠) مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٥٣ .
(٧١) ساعات بين الكتب ص ٩٣ .
(٧٢) ديوان العقاد ج ٢ ص ٢٠٨

السجن لم يزده الا اصرارا عليها وتوعدا للمستبدين الذين كانوا يحكمون الشعب بيد من حديد وفي ذلك يقول[٧٣] .

عـداتى وصحبـى لا اختـلاف عليهمـا
سيعهدنى كـل كمـا كـان يعهـد

وليس عجيبا على رجل تعتمد فلسفته العامة على اساسين احدهمـا الحرية ان يكره الوظيفة الحكومية ، وينفر منها ، لانه يـرى الموظف الصغير يبيع حريته ووقته وعمله بمرتب ضئيل ، وينـاط تقـدير كفاءته بارادة غيره ، وربما أريد منه فوق الكفاءة في العمل كفاءة أخرى في الملق والدهان[٧٤] على ان تقدير العقاد للحرية جعله يرفض من المذاهب الفلسفية والاجتماعية والفنية كل مذهب لا يحترم الشخصية الانسانية ، لان مقياس المذهب في رأي العقاد هو مقـدار احترامه للشخصية الانسانية فيما يتعلق بالاصلاح الاجتماعي ، فلا بد أن تكون الشخصية متجاوبة مع غيرها من شخصيات المجتمع لا منعزلة عنه .

ومن حيث الفن فانه يرى ان الفن تجربة شخصية ، واثر المجتمع قائم بذاته ، ولا يحتاج الى مذهب .. أما الذى يحتاج الى مذهب فهـو الشخصية الانسانية ، وتوسيع نطاقها واعطـاؤها كل فرصـة للفـن والكمال[٧٥] .

وفي اعتقادنا ان رفض العقاد للمذاهب يفسر لنا موقفه من الاشتراكية بالرغم من انه كان اشتراكيا في مطلع القرن العشرين ، حينما ذهب الى انه لا يحق لانسان أن يورث ابنه ثروة عريضة ، لانه لا يوجد مسوغ لان يستحل الابن هذا المقدار من ثروة الامة ، لان هذا معناه وجـود خلل متشعب في ثروة الامة لا يستقيم حال الجمعة البشرية الائتلافية ، وعـلى الوالد ان يربى ولده وان يعينه على انشاء مستقبل له في الحياة ، وليـس

(٧٣) وحي الاربعين ص ١٧٤ .
(٧٤) خلاصة اليومية ص٢٩ .
(٧٥) المصور ٥ يوليه ١٩٦٣ ، العدد ٢٠٢١ .

في هذا نزاع ، فاذا مات الاب فلتقم الحكومة مقامة فتولى تربية ولده ، وتمده متى حان له ان يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الاعمال ،ولتتركه بعد ذلك يلاقي ما يستحقه بجدارته من نجاح او فشل ، وتتفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الافراد(٧٦) ، ومعنى هذا ان العقاد لم يرفض من الاشتراكية الا الاشتراكيات التى تهدر الشخصية الانسانية ولا تقدرها ، وفيما عدا ذلك من حيث اقامتها للعدالة الاجتماعية في توزيع الدخل وتقسيم ثروة الامة ، فانه لا يقبله فحسب ، بل يدعو اليه ويطالب بتنفيذه •

ويمكننا ان نقول ان العقاد لا يتقيد بمذهب في الفن او الفلسفة او الاجتماع ، ويكره ان يفسر أي سلوك له بناء على مذهب معين ، ومن هنا فانه لينفي ان يكون عدم زواجه بناء على مذهب ، وانما كان نتيجة لظروف حالت دون هذا الزواج •• ويفسر العقاد هذه الظروف في موضع آخر بقوله : « لو كنت في الريف أو كانت صناعتي غير الادب لتزوجت • ولكنني الآن لا أستطيع الزواج ، لاني اوطن نفسي دائما على أن اواجه كل نوع من أنواع المعيشة ، واجازف بكل شيء ولا أبالي المستقبل »(٧٧) !!

ومن هذا يتضح ان العقاد ليس من أنصار عدم الزواج ، بل انه يؤيده ولا يشعر انه قد يعطله عن اعماله او يعوقها بحيث انه لن يصل الى ما وصل اليه لو تزوج • وذلك لانه يعيش مع اسرته في البيت الذي يقطنه •• ففى الشقة المقابلة لشقته اولاد اخته واولاد اخيه ، وحين يكون مشغولا بعمل لا يدخل عليه أحد ، لانه يحب الهدوء ••

وبالرغم من ذلك فانه لم يأت وقت ندم فيه على عدم زواجه ، وان كان يشعر بالعطف نحو الاطفال بل بالعطف نحو كل شخصية ، وانه لا يشعر بأنه مقطوع أو حزين ، حين يكون وحيدا ، لان العالم بما رحب

---

(٧٦) خلاصة اليومية ص ٧٦ ، ٢٧
(٧٧) مجلة كل شيء اغسطس سنة ١٩٣٥ •

ممثلا في كتابه ومفكريه وشعرائه بين يديه في بيته ، ومن هنا فانه من أشد الناس شعورا بأي انسان في البيت أو خارجه(٧٨) •

فالحرية لدى العقاد اذن تقتضيه الا يتقيد بمذهب معين ، او تفسر اعماله في الفن والفلسفة والاجتماع على مذهب معين •

ج ـ نظرته الفنية الى الكون والحياة :

يرى العقاد ان الحياة عمل فني تحكمه الاصول التي تحكم بيت الشعر ولحن الموسيقى ، وصورة المصور ، وتخرج فى جملتها وتفصيلها من يد الفن الالهى كما تخرج الدمية من يد الصانع القدير في فكرتها الباطنة وتمثيلها الظاهر •

ولكنه مع هذا يفرق بين نظرته اليها هذه النظرة ، وبين أن يكون الكون نفسه عملا فنيا ، وذلك حين يقول : أما الفرق بين نظرك الى الكون نظرة فنية ، وبين اعتقادك الفكرة الفنية في مظاهرة فهو انك قد تنظر بعين الفن الى شيء لا أثر للفن فيه ، ولكنك اذا اعتقدت الفكرة الفنية في ذلك الشيء نظرت اليه بتلك العين (الفنية) وزدت على ذلك ان تجعل الفن نفسه منطويا فيه(٧٩) • »

ويمضى العقاد في تفسير مظاهر الكون ليستدل بها على فنيته فيذهب الى ان الكون كله والحياة وهي أعم من الكون في نظره ـ والفن ومناظر الارض والسماء ، كل اولئك مظهر للتآلف او للتنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة ، أو بين أفراح الفن واوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين واقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ، ويسبر بالقيود اغوار الحرية ، وهذا الائتلاف هو دستور الفن الآلهي المحيط بكل شيء ، وهو فلسفة الفلسفات في هدا

---

(٧٨) من حديث خاص مع العقاد في ديسمبر سنة ١٩٦٠ •

(٧٩) مطالعات مقدمة ص أ •

الوجود[٨٠] .

فائتلاف القوى والقوانين في تصور العقاد هو دستور الفن الالهي المحيط بكل شيء ، وهذا التصور يدل على ان مزاج العقاد كيان شاعر ، لانه لايمكن أن ينظر هذه النظرة الى الكون الا شاعر مثله . ولا يتصور العقاد الحياة دون ضرورات وقوانين ، والا صارت عدما مطلقا ، بل ان هذه الضرورات وتلك القوانين انما هي مكملة للحياة ومشكلة لها ، اذ انه لايمكن أن نتصور عالما لا موانع فيه ولا اثقال ، لانه اذا صح هذا فانه لا يكون الا فضاء بغير فاصل ، أو هيولي بغير تكوين[٨١] .

ثم يمضي في تفسير فنية الحياة مبينا مثلها الاعلى ، ومقارنا بين قيود الشعر وبين قوانين الحياة وضروراتها فيقول :

« فقوام الأمرين في نظري أن نجعل من القانون حرية ، ومن القيود حلية ، ومن الثورة نظاما ومن الواجب شوقا وفرحا ، ومن « الكاوس » او الهيولى عالما مقسما وفلكا دائرا . فهذا هو المثل الاعلى في الحياة ، وهذا هو لب لباب فنها الالهي الذي يلتقي فيه - كما يلتقي في فنونها - قيد الوزن وفرح اللعب ويتعانق على يديه الخيال الشارد والقافية المحبوسة ، وتلك هي سنة الله في خلق هذا الكون الذي جعلت قوانينه مهرا لحريته وسببا للشعور به فقام على هذا النظام وسطا بين العدمين : عدم الفوضى وعدم الجوز الأعمى »[٨٢] .

ويبين العقاد ان الفن يستطيع ان يوفق بين الحرية والضرورة وان الجمال هوالحرية ، وهو في غاية الحياة القصوى ونحن نشترى الحرية العزيزة بالقيود الثقيلة ، بل نحن لا نجد الجمال ولا نوجده الا اذا ألفنا بين القيود والحرية وأصلحنا ما بينهما من التنازع والتنافر[٨٣] .

ويستطرد العقاد في مقارنته بين الادب والحياة مبينا ان في الاداب

---

(٨٠) راجع مطالعات في الكتب والحياة ، مقدمة أ ، وصفحة ٢١٩ .
(٨١) راجع ممطالعات في الكتب والحياة مقدمة أ ، والمقدمة ب .
(٨٢) مطالعات مقدمة - ب .
(٨٣) مطالعات مقدمة - ج - وراجع الفصول ص ٢٦٨ .

عنصرا اسمى من عنصر هذه الحياة الطبيعية المحدودة ، وذلك العنصر ، هو عنصر الخلود الذي لا يتاح للفرد في وجوده القصير ، ثم يوضح ذلك بأن كل حياة تؤتمن على قوتين عظيمتين: احداهما «مادية» تحفظها ـ أي تتمشى مع (الضرورة) وتخضع لها • والثانية « روحية » تتكبر على الضـرورة ، وتترع الى « الحرية » اى تعلو بها عن نفسها ، ومرجع هذه القوة الاخيرة في النفس انما هو الاشواق المجهولة ، وآمال الخيال اللدينة ، والمثل العليا التي لا تظهر في شيء مما يعالجه الناس ظهورها في مبتكرات الاداب والفنون[٨٤] •

على ان الاداب بهذا العنصر تشرف وتسمو على تلك العلوم والصناعات التي تقوم للضرورة المادية مقام الخدم المطيعة ، والعبيد المسخرة ، اذ انه ما زال في فطرة الناس ان يخجلوا من تحكم الضرورة فيهم ، ولو كانت شائعة بين جميع المخلوقات ، ويجاهدوا بما في طوقهم من قوة للتغلب عليها والتباهي بالافلات من قيودها[٨٥] • ويستدل على ذلك العقاد بنظرة بعض الناس من اهل الفطرة الى الطعام على انه عورة تستر ، وكراهيتهم أن يفاجئوا في أثناء خضوعهم لشهوة من الشهوات الاضطرارية المسلطة على المخلوقات عامة ، وفي الوقت نفسه تراهم يهللون تهليل الطرب والابتهاج لما يقرأونه في الشعر والقصص من وقائع البطولة التي يتمرد فيها جبابرة الخيال على سلطان الاقدار ، ويهزأون من آصار الطبيعة وقوانينها القاهرة ، ويستريحون الى ما تترجاه قرائح الشعراء والحالمين من عصور العدل والفضيلة والكمال والانطلاق من ربقة الحاجات المعيشية • يهللون لهذه الامور ويعجبون بها مع علمهم انها لا تكون كما يرجون في عالم الوقائع الملموسة • غير انهم قد ايقنوا بالالهام انها هي قائد الانسانية الذى صحبها خطوة بعد خطوة في معارج الحياة فتقدمت وراءه من حمأة الحشرات المستقذرة في هذا الاوج المتسامي صعدا الى السماء ، وجعلت الحياة فنا يخيل الى الانسان ان يخلقه باختياره ، كما يخلق بدائع

(٨٤ ، ٨٥) مطالعات ص ٨ و ٩ •

الصور ، والكون متحفا أبديا يقاس بمقاييس الحرية والجمال • بعد أن كانت الحياة قضاء محتوما ، وكان الكون سجنا لا فكاك لاسيره من أغلاله وحراسه(٨٦) •

وبجانب ذلك ففي الادب كل ما في الحياة من حاضر ومغيب ، ومن فرائض وآمال من شعور بالضرورة في الطبيعة الى تطلع لحرية المثل العليا • ومن هنا فانه يوجب على الذين يفهمون عظمة الحياة من ابناء هذا الجيل أن يحسنوا فهم هذه الحقيقة كي يعلموا ان الامم التي تصلح للحياة وللحرية لا يجوز في العقل ان يكون لها غير أدب واحد وهو الادب ألذى ينمي في النفس الشعور بالحياة والحرية(٨٧) •

على ان العقاد يذهب ابعد من ذلك حينما يرى ان الحياة بغير الروح الفنية عبث ، يعرف ذلك كل من خبر الفنون وتذوق معاني الحياة ، وعرف ولو شيئا قليلا مما يجب منها وما تستحق ان تعشقها النفوس من أجله• وينفي عن الفنون الجميلة أن تكون نافلة من النوافل التي تغتفر كما تغتفر بعض الملاهي التي فيها لبعض الناس لذة ، وذلك لان هذه الفنون ذات خطر في حياة الامة الناهضة ، ويؤكد ان الانسان لا يحيا الحياة الكاملة الا اذا أشبع حسه مما يحدق به ، وملأ نفسه من تصور ما تقع عليه الحواس ، فهذه هي الحياة كما يراها العقاد ، بل هذه هي الروح الفنية التي يحرمها كثيرون وهم قادرون على ايقاظها في نفوسهم لو اتيحت لهم الفرصة الهادية(٨٨) •

بيد انه يرى انه ليس من الممكن ان يخلق الناس كافة على مشرب واحد في حب الفن والاعجاب به والالتفات الى المظاهر الفنية من هذه الحياة ، ولكن ليس من البعيد الصعب على التذليل ان يراضوا بالتربية والمران حتي يعتادوا النظر الى الحياة بهذه العين • ويجمل بنا ان نفهم قيود الضرورة فى هذه الحياة انما هي مسبار ما في النفوس من جوهر

(٨٦ ، ٨٧) مطالعات ص ٨ ، ٩ •

(٨٨) المرجع السابق ص٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وراجع كذلك خلاصة اليومية ص ٣ ، ٤

الحرية الصحيحة ، كما ان القيود التي تثقل بهـا اعضاء البهـلوان هي مسبار مهارته وقدرته على الوثب[٨٩] .

ومن ناحية اخرى يرى العقاد ان الوسيلة الى فهم الحرية الصحيحة هي الفن الجميل ، الملكة التي يدرك بها الفن الجميل ، ويضرب مثلا لذلك ببيت الشعر وتصرف الشاعر فيه ، اذ انه مثل حق لما ينبغي أن تكون عليه الحياة بين قوانين الضرورة وحرية الجمال . فهي قيود شتى من وزن وقافية واطراد وانسجام . غير ان الشاعر يعرب عن طلاقة نفس لا حد لها حين يخطر بين كل هذه السدود خطرة اللعب ، ويطفر من فوقها طفرة النشاط ، ويطير بالخيال في عالم لا قائمة فيه للعقبات والعراقيل[٩٠] .

على ان العقاد يوضح هذه الفكرة اكثر فيذهب الى ان فكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون ، فلا فن بغير تطلع ، ولا تطلع بغير حرية ، ولكن ينبغي أن نذكر أن ألحرية تستلزم المنـــع ، وان الجمال هو غلبة الحرية على القيود ، او هو ظهور الحرية بين الضرورات، وليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام ، ولا يحيط بها قانون ، فلا عجب أن يمثل « الفن » قيود الجمال وانظمته ، كما يمثل حريتـــه وانطلاقه ، وان نرى الفن حافلا بالاوزان والاوضاع كما نراه حافلا بالتطلع والرجاء[٩١] والفن بعد هو صورة مختصرة من جمال الحياة نرسمها لأنفسنا لنتبعها بالامل والاحتذاء ، وماذا تصنع انت اذا اردت ان تختصر المعـــانى والكلمات ؟ انك تأخذ منهـا صفاتها البارزة وخلاصتها الجامعة ، وكذلك يصنع الفن اذ يجمع لديه في وقت واحد نظاما اوضح من نظام الحيـاة ، وحرية اطلق من حريتها ، أو يستخلص من جمال الحياة عنصريه البارزين وهما النظام والرجاء .

ويرى العقاد كذلك ان الانسان اراد بالفن ان يتمم حرية الحيـاة ،

---

(٨٩) المرجع السابق ص٢٠٨ ، ٢٠٩ وراجع كذلك خلاصة اليومية ص٣ ، ٤ .

(٩٠) ـ مراجعات ص ٦٦

(٩١) ـ مراجعات ص ٦٦ ، ٦٧ .

او يستدرك عجزها عنقهر ضروراتها التى تثقل عليها ، اذ قد خلق الفن للانسان اجنحة قبل ان يطير في الهواء ، وانشأ لنا في الشــعر اجيالا من الابطال هزموا نواميس الكون واحكام القدر وجمع في جسـم واحـد من رشاقة الاعضاء وملاحة القسمات ما تضن به الحياة على الكثير من الاجسام، وارسل احلامنا في سماوات من الغبطة والكمال لا تفتح لابنـــاء الفنـاء ، فتمت به آمال الحياة ، واصبنا في عالمه حرية لا تصيبها في عالم الحاجـــة والاضطرار[٩٢] .

ويخلص العقاد من هذا كله الى قوله : وصفوة القول ان الحريـة المنظومة ، أو الحرية التي تظهر بين قيود الضرورات ـ هي سر الجمال في الفنون كما انها سر الجمال في الحياة . وان امنية الانسـان القصوى التي يتطلع اليهـا من الحياة والفنون هي الحرية لا القوة ولا الغنى ولا السعادة نفسها .. وقد يخطر لك ان تسأل من يطلب القوة لماذا انت تطلبها وما هي غايتك منها ؟ ولكنك لا تسأل من يطلب الحرية هذا السؤال لان كراهيـــة الموانع غريزة مركبة في جميع النفوس ان لم نقـل في جميـع الاشياء[٩٣] .

على ان الفلاسفة السطحيين يعيبون على هذه النظرة الفنيـــة الى الاشياء ، انها نظرة الى الظواهر ومن هنا يتساءل العقاد عن ماهية هذه الظواهر في هذا الوجود ، هل لهذا الوجود سطوح وأعماق ؟ وهل فيه « كينونة زائفة » و " كينونة صحيحة " ؟؟ أليس كل شيء فيه على مسافة واحدة من اعماقه أو من سطوحه ؟ فالجمال البادي على وجوه الاشياء كما يقولون هو جمال متصل بأسباب الابدية ، اتصال أصدق الحقائق ، وأخفى البواطن ، أو لعله ـ اذا انعمنا النظر وتأملنا مليا ـ هو صورة الحقائق الابدية الحسنى ، اذا كان لا بد لهـــذه الحقائق من صـــورة يتجـلى فيهـا وجودها لمن يحس ويرى[٩٤] .

ويذهب العقاد الى ان هذه النظرة الفنية يقابلهـا النظرة العلميــــة

(٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) مطالعات ، مقدمة ج ، د .

والفلسفية ، ويصفهما بالنقص والانحراف في الفطرة ، لانهما يفترضان الخروج من الكون واعتزاله لرؤيته ورصد حقائقه، ولن ترى الكون حق رؤيته وانت تحاول الخروج منه والانفصال عنه[٩٥] . لانك لا تدرك حقيقة الكون الا وانت " بعضه " ، اى وانت متأثر به ، مؤثر فيه ، متصل بكل ما فيه من سر وجهر وسرور والم ، انما تدرك حقيقة الكون المقدرة لك وهو جسم حي يعاطفك وتعاطفه ، وتعطيه وتأخذ منه ، ولن تدركها البتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تعمل فيها المبضع وتهيئها للدفن في التراب[٩٦] . ويستدل العقاد على خطأ هاتين النظرتين المجردتين ، وذلك بتشبيهه الحياة بامرأة يتوسمها الرجال ، فأي الرجلين اصدق نظرا اليها ، واجود فطرة ، وأبين عن حقيقة وصواب : الذي تعجبه وتحركه وتكشف له عن محاسن مرغوبة ومباهج مرموقة ، ويستهويه منها ما يستهوي الرجل من المرأة ، أو الذي ينظر اليها فيراها جسما من اللحم والدم والعظام ، ثم يمعن في التجرد من الهوى فيراها جرما من المواد العضوية التي يوجد مثلها في نبت الارض وفي اخس ديدانها[٩٧] .

ثم يذهب في الاستدلال الى تشبيهها مرة اخرى بصورة عبقري مبتدع في فنه ، ويتساءل في هذا الشأن : هل نحن مصيبون حين ننقدها ونقدرها فاذا هي أصباغ وألياف لا تختلف عن الاصباغ التي في القناني والعلب ولا تتمايز عن الألياف التي في عروق الشجر وعيدان الخشب ، أو تكون ادنى الى الصواب حين نرى فيها اقتدار مبدعها ، ونلمح في الصورة خلجات نفسه وخواطر قريحته وجمال معناه وما يرمز اليه[٩٨] .

ثم يعقب على تلك النظرتين بما يوحي ان لكل وجهة يتجه اليها ، ولكن النظر الاول اجدر بالحي واخلق بالكائن الموجود ، اما النظر الاخر فليس في الحقيقة نظرا ، لان النظر يقتضي التمييز والتباين ، ولا تمييز

---

(٩٥) نفس المصدر السابق .
(٩٦) ، مطالعات ص المقدمة د
(٩٧ ، ٩٨) ، نفس المصدر ص ٧١

ولا تباين حين يذهب الناقدون هذا المذهب ، ويسترسلون في رد الأشياء الى ما يسمونه حقائق لها واصولا ، فانما هم منتهون في آخر الامـــر الى حالة يستوى فيها الاعمى والبصير والحي والميت ، اذ هم رادون الحياة كلهـــا لا محالـــة الى ذرات متشابهـــة ثم الى عماء لا نهــــاية له ، ثم الى ماذا ؟ ثم الى وجـــود كعـــدم ، وشيء لا كشيء وكون لا كون فيــه بغير حد ولا فاصل يجسر عنه نظر البصير ولا يفقد منه العمى شيئا[٩٩] •

ويستدل على صدق النظرة الفنية بضلالات الحياة واباطيلها ، اذ انه يرى انها احق واصدق وارسخ في قرار الاشياء ، لانه لا شك في أن سراب الحياة أصدق من بحرها ، ووعدها اوثق من حاصلها • واملها أقرب الى الحس من وجودها ، بل انه يذهب الى ابعد من ذلك ، حينما يذهب الى انه ليس هناك سراب على التحقيق في الحياة ، ولا يمكن ان تنخـــدع ألحياة على هداها ، والا فأين ترى يكون السراب لو انه كان ! ففي خارج الحياة لا يكون لنا سراب ، وفي داخلها لا يكون السراب سرابا ، وانما هو ماء ترتوي منه العطاش ، وتنطفىء به وقدة القيظ ، وننتفع به ونزرع على شاطئه فنجني أحسن الثمر وأجمل الازهار[١٠٠] •

ويوضح العقاد نظرته الى الكون اكثر حينما يتحد مع الـــكون ولا ينفصل عنــه حينما يقول : « وخليق بمن يرتاب في صـــدق ما نقول أن يذكر الامل فيذكر أي سراب هو في نظر الحس القريب والعقل الكليل ، ثم عليه أن يذكر بعد ذلك أي بحر هو للظامئين الضاربين في مفاوز الحياة ، الخابطين في مجاهلها الذين يملئون مزاودهم وهم يحسبونها موكاة خاوية، خاوية ، ويشربون ملء نفوسهم ، وهم يتخيلونها ملتاحة صادية ، وليقـــل لنفسه كيف يكون البحر ان لم يكن هذا السراب الخادع بحرا متلاطم الامواج بعيد القاع محييـــا للنفوس مميتـــا لها كما يحيي كل بحـــر ويميت »[١٠١] •

---

(٩٩) نفس المصدر •
(١٠٠) ــ مطالعات ص ٧١
(١٠١) ــ مطالعات ص ٧١

ويذهب العقاد في نظرته الى الكون الى ابعد من ذلك ، حيث يتحد مع الكون وينظر اليه من باطن ذاته ، ذلك انه ينظر الى مظاهر الكون نظرة تدل على ان وجودنا مظهر نشاط عام ، وليس نشاطنا سوى جزء من الكون ، وانه لا شيء نافر في مادة الكون التي هي مادة الحرية الفنية ،

ومن ثم نرى العقاد يقودنا الى مفهوم الادب وعلاقته بالحياة بناء على نظرته الى الكون . فالادب في تصور العقاد ترجمان الحياة الصادق ، لانه كما يكون الادب تكون الحياة ، ان جدا فجد ، وان هزلا فهزل ، وذلك لانه يرى ان للادب طريقين في تعريفه . فمن هنا ادب تمليه بواعث التسلية وعلالات البطالة ، وتخاطب به الاهواء العارضة وهو الادب الذي يحوي فيه ما توزع من الوان الاداب السقيمة الغثة . ومن هنا ادب تمليه بواعث الحياة القوية ، وتخاطب به الفطرة الانسانية عامة وهو الادب الصحيح العالي[١٠٢] . ثم يحدثنا عن العلاقة بصراحة حينما يتساءل عن السبب الذي يدعونا لقراءة فنون الادب ان كنا لا نقرأها للهو ولا لنزجي بها ساعات الفراغ المضيعة ، ولماذا يقرأ المرء الآداب اذن ؟ ويرى انه يقرأها ليحيا وليوسع على نفسه من الحياة . وليست الحياة لهوا ولا تزجية فراغ[١٠٣] .

ويتساءل مرة اخرى عن العلاقة بين الأدب والحياة وذلك حينما يذهب الى ان الحياة والادب شيئان كلا نسيجهما من مادة واحدة ، فالحياة هي شعور تتملاه في نفسك وتتأمل آثاره في الكون وفي نفوس غيرك .والادب هو ذلك الشعور ممثلا في القالب الذي يلائمه من الكلام، وما احتاج الناس من قبل الى من يثبت لهم ان الادب لا يكون بغير حياة ، ولكنهم يحسبون انهم بحاجة الى من يثبت لهم ان الحياة لا تكون بغير ادب ، مع ان الامرين بمنزلة واحدة من الحقيقة ، فانه لكل حياة أدبا ، ولكل أدب حياة ، ويستدل العقاد على ذلك بأن الحياة لا توجد بغير

(١٠٢ ، ١٠٣) المرجع السابق ص ٤ ، ٥ .

عطف ، والعطف يستدعي التعبير ، وهذا التعبير لا يستوي فيه التعبير الصادق الجميل ، والتعبير الكاذب الشائه ! ومن هنا فان الحياة ـ من وجهة نظره ـ لا تكون بغير أدب يلائمها(١٠٤) .

على انه يعلل اختلاف ضوابط الادب ، وتشعب مقاييسه ، لمن ذهبوا الى ان الادب لا حدود له كحدود العلم المقررة تميز في كل حالة من الحالات تمييزا قاطعا بين صحيحه وفاسده ، وبين جيده ورديئه ، فقد تجتمع صفة الجودة والبلاغة لالف قصيدة في موضوع واحد ، ثم لايكون بينها وبين التشابه شيء كثير ، بل قد يكون فيها تناقض محسوس في اشياء عدة ..

يعلل اختلاف ضوابط الادب بأن مقاييس الادب من السعة بحيث تأذن لكثير من الاختلاف والتشعب ، ويرى في الوقت نفسه ان هذا الاختلاف هو مزيتها لاعيبها وفضلتها لا نقيصتها(١٠٥) .

وهذا الاختلاف آت من الوجهة التي ينظر منها الاديب الى مظهر النشاط الانساني وابعاده وهو اختلاف في مادة الادب والتجارب ، ومعنى هذا انه آت من اتساع مجالها وتجدد حقائقها ومشابهتها للحياة في انها نامية متحركة مضطربة متحولة ، فلا تثبت على وصف ولا تنحصر في حد(١٠٦) .

ثم يعقد العقاد مقارنة بين ضوابط الادب ومقاييسه من حيث اختلافها ، وبين مقاييس العلم معللا سر ضبط وتقرير المقاييس الاخيرة بانها محصورة مجردة من اللحم والدم ، فاذا ما عرفت القضية الهندسية مرة فقد عرفتها على حقيقتها الاخيرة المقيدة التي لا تتغير أبدا ، وأحطت بجميع جوانبها ، لان جوانبها قابلة لان يحاط بها(١٠٧) .

اما الحقائق النفسية : فليست على هذا النمط لانها قد تتراءى لك في كل مرة بلون جديد وصورة متغيرة . ويضرب مثلا لذلك ليستدل به على

---

(١٠٤) مطالعات ص ٤ ، ٥

(١٠٥،١٠٦،١٠٧) مطالعات في الكتب والحياة ص ٦،٧

صدق نظريته بغريزة الحب التي هي من الغرائز المركبة في كل نفس ، ولكن بينها تغايرا في القوى والدوافع والاغراض والاطوار والمعاني التي لا يسبر غورها ولا يستقصى آخر مداها ، لان الناس لا بنساوون في حبهم لاحبائهم ، والانسان الفرد لا يكون على حال سواء في حبه لجميع الاحباء، وليس على حال سواء في حبه للحبيب الواحد في جميع الاوقات ، وليس هذا نهاية ما هنالك من اسباب الاختلاف الشاسع في تصوير غريزة الحب، لان هنالك اختلاف الناس في اللغات واللهجات والاساليب وطرائق التفكير ، وهي اختلافات لا نهاية لتقلباتها وألوانها في القائلين والسامعين(١٠٨) .

ويتساءل العقاد قائلا : « ومن أين لحقيقة تلم بها وتتداولها كل هذه الادوار والغير أن تنحصر في وضع واحد كأوضاع القوالب المصنوعة والحقائق الآلية ؟ ذلك ما لا يكون ولا يحسن ان يكون ، فلا جرم تختلف مقاييس الأدب ، وتتشعب مداخل حدودها ولا يعاب عليها هذا الاختلاف لانه آت من عنصر الحياة الذى فيها »(١٠٩) .

ويبادر العقاد الى نفي شبهة ربما تخطر لانسان ما ، فيفهم من اختلاف ضوابط الادبان تصير الى فوضى بلا قانون رشيد ، ولا قسطاس مستقيم ، والا لكانت الحياة نفسها فوضى بلا قوانين ولا أصول ، وهي ليست كذلك كما يراها العقاد(١١٠) .

على انه يذهب الى ابعد من هذا حين يقرر ان في الاداب عنصرا أسمى من عنصر هذه الحياة الطبيعية المحدودة ـ فيها عنصر الخلود الذي لا يتاح للفرد في وجوده القصير ـ لان كل حياة تخلق على هذه الارض تؤتمن على قوتين عظيمتين احداهما تحفظها والاخرى تعلو بها عن نفسها(١١١) .

---

(١٠٨) المرجع السابق ص ٧
(١٠٩) مطالعات فى الكتب والحياة ص ٨
(١١٠ ، ١١١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٨ .

وبعبارة اخرى احداهما مادية تتمشى (مع الضرورة) وتخضع لها ، والثانية روحية تتكبر على الضرورة وتنزع الى «الحرية» . ومناط هذه القوة الاخيرة في النفس هو الاشواق المجهولة وآمال الخيال اللذنية والمثل العليا التي لا تظهر في شيء مما يعالجه الناس ظهورها في مبتكرات الاداب والفنون . والاداب بهذا العنصر فيها تشرف وتسمو على تلك العلوم والصناعات التي تقوم للضرورة المادية مقام الخدم المطيعة والعبيد المسخرة ، اذ انه مازال في فطرة الناس ان يخجلوا من تحكم الضرورة فيهم ولو كانت شائعة بين جميع المخلوقات ويجاهدوا بما في طوقهم من قوة للتغلب عليها والتباهي بالافلات من قيودها(١١٢) .

وفي مقام الاستشهاد على ما سبق يرى ان اكل الطعام عورة تستر عند اقوام من اهل الفطرة ، وهرب الناس جميعها من الفقر ، وميلهم الى مداراته والاستخفاف باحكامه ، وكراهتهم ان يفاجئوا في اثناء خضوعهم لشهوة من الشهوات الاضطرارية المسلطة على المخلوقات عامة . كما سبق ان بينا ذلك في موضع آخر .

ويستخلص من هذا كله بأن في الادب كل ما في الحياة من حاضر ومغيب ، ومن فرائض وآمال ، ومن شعور بالضرورة في الطبيعة الى تطلع لحرية المثل العليا ، وواجب على الذين يفهمون عظمة الحياة من أبناء هذا الجيل ان يحسنوا فهم هذه الحقيقة ليعلموا ان الامم التي تصلح للحياة وللحرية لا يجوز في العقل أن يكون لها غير أدب واحد ، وهو الادب الذي ينمي في النفس الشعور بالحياة والحرية(١١٣) .

وعلى ضوء ما سبق يبادر العقاد بالاجابة على من يتساءل بقوله : وما بالنا ننكر الهزل في الادب اذن ؟ ان كان في الادب كل ما في الحياة ، ومع ان الهزل عارض من عوارض الحياة التي لا تفارقها .

يجيب العقاد بانه اراد ان يصحح النظرة الى الادب ، ولم يرد سرد موضوعاته ولا المقارنة بينها ، وعلى هؤلاء المتسائلين ان يذكروا انهم

(١١٢ ، ١١٣) مطالعات في الكتب والحياة ص ٨ ــ ٩ .

لا ينظرون الى الحياة نظرة هازلة لاشتمالها على الهزل في بعض الاحيان، فكذلك يجب الا ينظروا الى الادب هذه النظرة لاشتماله على المهازل والجلائل ، بل ان الاشتغال بالهزل غير الاشتغال بتمثيله ، فان في تمثيل الهزل حظا وافرا من الجد ، كما ان في تصوير القبح حظا وافرا من الجمال[(١١٤)] .

ويتضح مما سبق أن العقاد لا ينظر الى الأدب نظرة نفعية ، أو على انه وسيلة من وسائل التلهي وتزجية الفراغ ، لان هذه النظرة لا تأتي الا لمن ينظر الى الحياة نظرة ضيقة ، في الوقت الذى ينظر اليها العقاد نظرة ارحب واشمل من تلك النظرة التي تنتهي بالنفع أو التسلية . ومن هنا نراه ينعي على من يعرفون الادب بانه ظاهرة اجتماعية ، او ظاهرة اقتصادية ، او ظاهرة بيولوجية ، او غير ذلك من الظواهر المختلفة ، ينعي عليهم بقوله :

« ولك ان تقول عن ظاهرة من هذه الظواهر او عنها جميعها : حسن ثم ماذا ؟ فلا يسع صاحب التعريف أن ينتهي بك الى باب مغلق على نوع من انواع الادب ، ذلك ان الادب كالحياة ، فلا يستوعبه مذهب ، ولا يستغرقه اسلوب »[(١١٥)] .

ونخلص من الحديث عن الاساس الثالث من فلسفته العامة ، وهو نظرته الفنية الى الكون والحياة، والى تبيان الاساس الذي يعتمد عليه الادب لدى عباس العقاد ،وهو الصدق ، لا النفعية ولا المادية ، لانه من العناء الضائع في تعريف الادب على صورة من الصور الاعتراف بنوع من الأدب وانكار نوع آخر ، لانه مهما يقال في تعريف الادب على الف صورة : مسألة اجتماعية تارة ، ومسألة اقتصادية تارة ، ومسألة حركية او سكونية تارة أو تارات ، مهما يقال فيه ذلك ، فانه لن يمتنع بذلك عن موضوع ، ولن ينقطع لموضوع ، ولن يكون ادبا ما لم يكن له نصيب من شعور الانسان ، وبهذه المثابة يحدثنا الادب عن القطب الشمالى فيحدثنا

(١١٤ ، ١١٥) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص ٩ .

عن قريب ، ويروى لنا خبر البطولة فيروي لنا خبرا يهز نفس الفقير والغني والصغير والكبير ، ويذكر لنا الزهرية مثلا ، فلا يخول قائل حي : دعها واذكر قدرة الفول المدمس ، ما دام انسانا يرجع الى الطبيعة ان لم يرجع الى نفسه ، فيلمس منبت الفول وزهرته من تربة الحياة[116] .

---

(116) عباس العقاد : افيون الشعوب ص ٩٢ وما بعدها ط أولى سنة ١٩٥٦ .

الفصل الثـــامن

نهــاية المطــاف

١ ـ الرحيـــل :

انا لله وانا اليـــه راجعـون　　　غال الردى سيرة من السير

انا الى الله راجعون لقد

(ابن الرومي)

وها نحن نقف وجها لوجه امام النهاية المحتومة المقدورة لجميـــع الاحياء ، نقف مع الموت .. مع موت اعز الاعزاء واقرب الاقـــرباء الى النفس والعقل والشعور .. مع موت الاستاذ والوالد معا .. مع موت عباس العقاد . والموت في حقيقة امره لا صعوبة فيه ، لانه فوق انـــه مقدور للاحياء فهو نتيجة طبيعية للاحياء جميعا ولولاه لما انتظم الكون ، ولا تقدمت الانسانية نحو التمام والكمال المنشودين .. لان الكثير منا ليس امتدادا شعوريا ولا فكريا لوالديه او لاساتذته . بل قد تكون الحياة اقسى من الموت " وان قسوة الموت لرحمة في بعض الاحايين عن قسوة الحياة ، فليست اوجع السهام مخبوءة لنا في جوف التـــراب ، بل هي مخبوءة لنا في رحب الهواء " على حد تعبير العقاد[1] .

وعن طريق السلب فاننا نرى ان الدموع التي يذرفها المحزونون على موتاهم ليست الا تعبيرا عن العاطفة والشعور فحسب ، لانه من منـــا يرضى ان يعود اليه اجداده واجداد اجداده الى آخر ما يعرف من اجداده الاعلون ، ان يعود اليه هؤلاء ليقتسموا معه رغيفه ، وليفسروا ما يعن له من مشكلات حسبما يتفق وفكرهم وشعورهم لعصـــرهم أو عصـــورهم

(١) راجع الرسالة الصادرة في ٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ العـدد ٥٩٢ .

التي عاشوا فيها ... لا يوجد من يرضى بهذا ، والا فأن مديري " البيمارستانات » لن يحظوا بأحسن منه ، ولا يفرطون في مثله اذا وجده .

ومن ثم فان موت استاذنا العقاد ليس بدعا ولا غرابة من القدر ، ولا خرقا للناموس الطبيعي في الحياة والاحياء جميعا ، ذلك الناموس الذي تسير عليه الانسانية في ماضيها الغابر ، والدي تسير وستسير عليه في حاضرها ومستقبلها البعيد حتى تقوم الساعة ويرث الله الارض ومن عليها ، يرجع كل منا الى الله بما تزود به في دنياه من اعمال استهدف بها وجه الحق والخير والجمال .

لم يكن في تصورنا اذن ان العقاد بعد ان ذرفت سنه على السبعين انه خالد مخلد في هذه الحياة الدنيا ، لان كل شيء في حياتيه الجسمية والنفسية كان يؤذن بقرب الرحيل .

فمن حيث النفس رأيناه في رثائه لصديقه شكرى ، الذي كان ثالث ثلاثة قامت على عاتقهم مدرسة الجيل الجديد ، كان يرثي نفسه لاحساسه بقرب الرحيل ، اذ قال في مطلع القصيدة(٢) :

بعد ابراهيم شكرى الهم أودى	قرب الرحل لقد قاربت جدا
قرب الرحل ورحب بالنوى	النوى في العيش أن تمسى فردا
كنتما بعد شبابي عوضا	وأراني زدت بعد الفقد فقدا

وعلى الرغم من صراحته في ميدان النقد ، الا أنه كان يجامل في السنوات الاخيرة مما كان يوقعه في مخالفات لمبادئه النقدية التي قررها قبل ذلك ، الامر الذى جعلنى أرد عليه في أكثر من مجلة أذكره بهذه المبادىء وأذكره كذلك بان المجاملة أو مخالفة المبادىء التي سبق تقريرها ، أمران لا يتفقان ومنزلة العقاد الادبية .

وبالاضافة الى ما سبق ، فانه طلب في آخر ندوة له من بعض

---

(٢) راجع الاخبار الصادرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٥٨ .

الحاضرين أن يسمعه قصيدة « ليلة الوداع » ، وما ان أوشك القارىء أن يتممها حتى استأذن العقاد من الندوة وانصرف وهو يبكي بكاء مرا ، وكانت آخر ندوة تحقق فيها مضمون القصيدة ، اذ أصيب العقاد بأزمة المرض في نفس الليلة(٣) .

أبعدا نرجى أم نرجى تلاقيا ... كلا البعد والقربى يهيج مابيا
اذا أنا أحمدت اللقاء فانني ... لأحمد حينا للفراق أياديا
ألا من لنا في كل يوم بفرقة ... تجدد ليلات الوداع كما هيا
ليال يبيح الدل فيها زمامه ... ويرخص فيها الشوق ما كان غاليا

ويقول في نهايتها(٤) :

فيا من يعيد الدهر من حيث بدا ... أعدلي ليلات بمصر خواليا
اذا كان لي في مقبل العيش مدة ... فياليت يغدو مقبل الغيب ماضيا

وقد أكد قرب الرحيل في نفسه حالته الصحية بعد السبعين ، اذ كان قد ضعف بصره الى درجة أنه كان يكتب بالقلم « الباست » الكبير ، ليستطيع رؤية الكتابة حين القراءة .

وقد عرفنا فيما سبق أنه كان مصابا « بالقولون » وأن الرئة قد تحجر جزء منها ، فاننا لابد أن نعرف بالضرورة أن هده الامراض قد استفحلت ، ولا سيما أن الجسم قد ضعف عن مقاومتها ، اذ كان العقاد يقاوم آلام « القولون » منذ أصيب به من أربعين سنة ، وقد كان يصاب بتشنج في مصرانه الغليظ بين الحين والحين . وقد حدث له هذا التشنج عدة مرات : مرة يوم مقتل محمود فهمي النقراشي ومرة يوم ماتت أخته ، ومرة يوم مقتل غاندي والمرة الاخيرة في مرضه الاخير .

ويرجع الكثيرون أن سبب مرضه الاخير الى أنه رجع من أسوان غاضبا ولم يمض فيها المدة التي كان يقضيها في أسوان من كل شتاء ، وذكروا من أسباب غضبه أشياء وأشياء .

وأيا ما كان سبب الغضب ، فان الذى لا شك فيه أن العقاد رجع بعد

(٣،٤) عباس العقاد : ديوان العقاد جـ ١ ص ٦١،٦٣ .

ثلاثة أيام من سفره ، وهو مغيظ محنق ، وكان يخفي غضبه وحنقه نوعا ما من الاخفاء ، أخفاه مثلا على بعض تلاميذه ، وكاشف به من اصطحبوه عشرات من السنين •

وقد أقام لتلاميذه احدى وليمتيه السنويتين في آخر رمضان ، اذ كان يدعوهم الى الغداء في يوم شم النسيم على فسيخ يطهوه لهم بنفسه ويدعوهم على الفطار في رمضان بعد أن يرجع من أسوان • وفي هذه الوليمة ، جلس العقاد على عادته مع تلاميذه بعد الفطار زمنا طويلا لم يعهده التلاميذ منه ، وتحدث في كل ضروب المعرفة ••

وفي الثلث الاخير من ليلة الاثنين السابع عشر من فبراير من عام ١٩٦٤ فزعت استاذنا العقاد آلام مضنية وقاتلة في « القولون » ، وطلب طبيبا ليعطيه حقنة مسكنة ولاول لمرة في حياته يطلب هذا الطلب ، الا أنه كان يتحاشى المسكنات ، بل انه كان يشمئز حينما يرى انسانا يتعاطاها حتى الاسبرين منها •

واذا عرفنا أنه قد أجريت له عملية في عام ١٩٥٦ في عينه بغير « بنج » أو أى مخدر آخر ، اذا عرفنا هذا أدركنا خطورة الآلام التي كان يعاني منها حينما طلب حقنة مسكنة ، وأدركنا أن الحقنة المسكنة لم تمنحه الراحة التي كان يبتغيها بتسكين الألم ، ولكن هيهات •

وطبيعي ازاء هذه الآلام أن تختل الدورة الدموية ، ولولا هبوط ضغط الدم ليلتها لقضى العقاد نحبه في تلك الليلة الرهيبة أو أسفرت عن شلل ••

وبات العقاد يتلوى من الآلام التي أقسمت ألا تبرح أمعاءه ، وأن تسكنها حتى يقضى الله امرا كان مفعولا ••

وفي الصباح طلب العقاد أطباء متخصصين في الامعاء ، وجاءوا واحدا بعد الآخر ، وعرض عليهم حالته ، وراح يصف لهم في ذكاء وفهم شديدين كيف داهمه المرض منذ أربعين عاما ، وكيف كان يعالجه منذ ذلك الوقت ومنذ ثلاثين ،ومنذ عشرين عاما ، وكيفية علاجه له ، ثم أخبرهم أنه

قرأ كل شيء عن المصارين وعن المصران الغليظ بالذات ، وقد حرص الاطباء على الكشف عليه ، وكان العقاد يقبل الكشف عليه ، وفي أغلب الاحايين يرفض طلبتهم ، لانه يعرف سلفا ما سيقولونه بعد الكشف • ثم أشار على الاطباء اجراء تحليل لدمه ، وأسفرت نتيجة التحليل عن وجود نقص في الكريات الحمراء ، وما لبثت هذه الكريات الضائعة أن استعادها بينهم(٦) •

وقد خشي الاطباء على العقاد من أن يكون مريضا بمرض آخر لم يعرفه ولم يقرأ عنه ولم يستطع أن يشخصه •• لقد خشوا على قلبه ، ومن هنا طلبوا اليه ألا يرهق نفسه ، وألا يبرح الفراش • وقد خشي لفيف آخر ممن يعالجونه أن يكون مصابا بالسرطان ، وتهامسوا فيما بينهم(٧) •

وبينما كان العقاد يعالج نفسه ويشير عليهم بأنواع الادوية التي يجب أن يستخدمها ، ويؤكد للاطباء مرضه ، ويوجههم الى ما ينبغي أن يكون ازاء المرض ، بينما كان على هذه الحالة ، كان يعاني في الوقت نفسه من شيء في القلب وهو ما خشي عليه الاطباء منه •• كان يعاني من جلطة دموية كان على يدها نهاية الفقيد(٧) •

وأشار الاطباء أنه لابد من دخوله المستشفى لاجراء عملية جراحية في المصران الغليظ ، وصح عزم العقاد على ذلك ، وتفاءل من العملية معللا هذا التفاؤل بأنه لن يتأثر بها ، لانه لا يشكو من مرض السكر ، وهو لا يشكو من مرض القلب ، وهو ليس مصابا بأي مرض يحول دون اجراء العملية ، أو يجعل اجراءها شيئا صعبا على الاقل •

صح عزم العقاد على اجراء العملية ، وعلى دخول المستشفى ، وان كان سيدفع ثمنا لذلك من النظام الذي اعتاد عليه في حياته ، وربما كان

(٥،٦) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ ١٣ـ٣ـ١٩٦٤ •

(٧) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ ١٣ـ٣ـ١٩٦٤ •

هذا هو السبب الاساسي الذي جعله يهرب من المستشفيات على حد تعبير الاستاذ أنيس منصور[٨] •

وكان العقاد طيلة مرضه لا يفتأ يتحدث عن مرضه وعن علاقة المصران الغليظ بالتفكير ، وكيف يصاب به جميع المفكرين ، حتى وصفه الدكتور جمال‌الدين بحيري بانه نصف طبيب ، لانه يفهم في التشريح ، وقرأ كل شيء عن الدوسنتاريا[٩] •

وما ان نشرت الصحف أنباء مرض العقاد حتى هرع العلماء والادباء والوزراء يستفسرون عن صحته ، ويرفعون أكف الضراعة الى الله أن يزيل عنه ما به ، وفي مقدمة هؤلاء وهؤلاء الاستاذ أحمد الشرباصي عضو مجلس‌الرياسة آنذاك والدكتور عبدالعزيز السيد وزير التعليم العالى ، كما أبرق الى العقاد الاستاذ كمال‌الدين حسين نائب رئيس الجمهورية آنذاك ، وغيرهم ممن كانوا يزورونه بصفتهم الشخصية ويتركون له بطاقة رقيقة تعبر عن مدى استيائهم لمرضه ، وتمنياتهم له بالشفاء •

وفي هذه الاثناء كتب الاستاذ احمد بهاالدين رئيس تحرير أخبار اليوم كلمة في يوميات الاخبار بمناسبة مرض العقاد يقول :

فوجئنا هذا الاسبوع بمرض الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد • فوجئنا •• رغم أن الاستاذ قد جاوز الرابعة والسبعين من العمر ، لان العقاد أعطى الناس من نفسه صورة (اسبرطية) : صورة الرجل الذي يمارس حياته في نظام دقيق ولا يشكو قط من المرض الخطير أو البسيط • وليست له أي متع تذكر خارج متعة العمل المتصل • وتذكرت ، وأنا اقرأ عن هذا المرض الذي قد يطول ، أن العقاد هو الكاتب الوحيد بين كل كتابنا وأدبائنا الكبار الذي لم يتول قط أي منصب حكومي أو نقابي أو صحفي ، ولكنه عاش طول عمره يكسب حياته من شيء واحد فقط •

---

(٨) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ ١٣-٣-١٩٦٤ •

(٩) المرجع السابق للاستاذ جليل البنداري بتاريخ ٢١ من فبراير سنة ١٩٦٤ •

هو الكتابة والتأليف[١٠] •

وأنا لم أر الاستاذ العقاد مرة واحدة في حياتي ، وبالتالي فانني لا أعرف أي شيء قط عن حياته الشخصية غير ما أقرأ في الصحف • وأغلب الظن أن طبيعته الخاصة ذات الكبرياء العنيد تأبى تماما أن ينشر مثل هذا الحديث عن المرتب والمعاش والتكريم • يضاف الى هذا كله أنني كنت دائما من بين الذين يقفون في الطرف المناقض له سياسيا وفكريا وثقافيا ، ولكن هذا لا يحول دون ابراز هذه الحقيقة وهي : أنه من المستحيل أن يشعر مجتمعنا ، وأن تشعر الدولة التي تعبر عنه ، انها قد أدت واجبها نحو علم من أبرز اعلامها الفكرية والثقافية اذا كانت تتركه في سن الراحة المتصلة والتأمل الطويل والعمل القليل ، دون مرتب ثابت يكفل له كل هذا[١١] • لقد كان العقاد علامة كبرى من علامات ثورتنا الثقافية في النصف الاول من هذا القرن • علامة كبرى من علامات هذا الشعب الذى يحاول أن يرتفع بنفسه فوق كل الصعوبات ليتعلم ويتثقف ويصبح ندا وشريكا في حركة التنوير العالمية ، وقد ظل العقاد على الدوام نقطة من نقط النشاط الخصب والصراع الحي في حياتنا الثقافية ، فكان وما يزال شاغلا أحدث الكتاب عمرا بمناقشة آرائه وافكاره والوقوف منها موقف التأييد أو المعارضة الحادة • ومن واجب الدولة في مجتمع اشتراكي بالذات ، يشعر بمسئولية عن أبنائه بقدر ما أسدوا اليه ، من واجب الدولة أن تقرر له هذا الدخل الثابت •• واذا كان في هذا العمل شيء من القيمة المادية بالنسبة للعقاد ، فان فيه بالتأكيد الشيء الكثير من القيمة المعنوية ، للعقاد ، ولكل الكتاب والادباء والفنانين ، وللامة باسرها[١٢] •

وقد أبى المرحوم الدكتور محمد مندور الا أن يزور العقاد ، على

---

(١٠) راجع صحيفة الاخبار الصادرة في ٢٤ من فبراير سنة ١٩٦٤، تحت عنوان « العقاد والمرض » للاستاذ أحمد بهاءالدين •

(١١،١٢) راجع صحيفة الاخبار الصادر في ٢٤ من فبراير ١٩٦٤، تحت عنوان « العقاد والمرض » للاستاذ أحمد بهاءالدين •

الرغم من أن العقاد كان قد هاجمه منذ وقت غير بعيد ، ولكن صفاء مندور وانسانيته أبت عليه أن يمرض العقاد ولا يزوره ، واصطحب معه الدكتور هلال وكاتب هذه السطور ، وحاول أن يشترى له كروانا ليقدمه لصاحب ديوان هدية الكروان فلم يجد ، وحينئذ اكتفيا هو والدكتور هلال بتقديم طاقات من الورد عليها بطاقة كل منهما .. كما زاره الدكتور كامل حسين الذي اعترك معه العقاد وقسا عليه في معركته ، وعلى الرغم من ذلك كان أول من زاره ، وتمنى له الشفاء العاجل . وذلك على الرغم من أن بعض من اعترك معهم العقاد ممن يزعمون الحفاظ على الاسلام ويتزيون بزي المشايخ لم يعد العقاد في مرضه ، ولكنها النفوس المترعة بالحقد والانانية .

وتوافد على بيت العقاد تلاميذه في مصر وجميع الاقاليم العربية وغدوا لا يبرحون البيت ، لان العقاد والد ، ووالد كريم ، واستاذ علمهم كيف يقرأون ، وكيف يفكرون ، وكيف يكتبون .

وأذكر أنني حينما علمت بنبأ مرضه وأنا أقضي اجازة العيد في الاسكندرية غادرتها على عجل ، وتوجهت الى بيت العقاد ، واذن لي في الدخول عليه ، وكان في ذلك الوقت يرفض أن يدخل عليه أحد ، فوجدت عنده الاستاذ احمد الشريف ابن خاله وأخذ يحدثه في شأن المرض وأشياء أخرى ، ولاحظ الفقيد أنني جلست ساعتين لم أنبس فيهما بكلمة على غير عادتي وعيني تنظران اليه في اشفاق ، فراح يطمئنني على مرضه .

وفي ذلك الوقت حدثنا الاستاذ أنيس منصور أن الاستاذ مصطفى أمين عرض عليه أن يفاتح العقاد في أن تتولى الاخبار علاجه وأن يتقبل مبلغ مائتي جنيه بصورة مبدئية وحينما فاتح العقاد في ذلك ، رفض العقاد أن يقبل هذا المبلغ دون عمل يعمله .

وحينما أخبر الاستاذ أنيس الاستاذ مصطفى امين بما حدث ذهبا اليه ومعهما الاستاذان علي أمين ، وعادوا العقاد ، فشكر لهم هذا الشعور ،

وقال من يدري هل سيصرف هذا المبلغ أم غيره •

وحدثنا الاستاذ طاهر الجيلاوي أن العقاد رفض من صديق له مبلغ ٨٠٠ جنيه بعد شكره لما ابداه الصديق من وفاء ، وتعلل في رفض المبلغ بما ابداه لرؤساء تحرير الاخبار •

وحدثنا الاستاذ الجيلاوى ايضا ان الدكتور حاتم استدعاه وقال له بعد ان سأله عن صحة العقاد ، ان الدولة قد خصصت له مبلغ ألف جنيه للانفاق على علاجه ، وانها قررت في الوقت نفسه أن تنقله الى المستشفى لان صحة العقاد ليست ملكا له وانما هي ملك للشعب ، ولهذا فانهـا تطلب اليه أن ينزل على نصيحة الاطباء ، وأنه يرغب في أن يزور العقاد في بيتـه في مسـاء اليـوم (الاربعـاء) • وان الدولة قررت في الوقت نفسه شراء جميع مؤلفات العقاد • ثم حدث أن مرض وزير الثقافة ولم يخرج من بيته في مساء ذلك اليوم ، وقرر تأجيل الرسالة للعقاد الى مساء اليوم التالي (الخميس) •

وقبل أن يتم تبليغ الرسالة ، وقبل أن يزوره الدكتور حاتم في بيته كانت المنية أسرع من التحقيق ، وأسلم العقاد الروح الى بارئها راضية مرضية •

وكانت صحة العقاد قد تحسنت في صبيحة الاربعاء الموافق ١١ من مارس ، وعاده في المساء الدكتور ناجي المحلاوي والدكتور محمد عطية ، ثم جلس مع أقاربه يتحدث عن المرض وعن عجز الطب الحديث عن اكتشاف أبسط أنواع الجراثيم ، ثم سأل عن موعد قدوم الكتب التي طلبها من انجلترا فقيل له انها ستجيء بعد أسبوع ، ثم تمدد على الفراش وقال اتركوني أنام ، فانا أشعر الآن بتحسن في صحتي ، ومضت دقائق قليلة بعد أن انصرف أقاربه واحدا بعد الآخر ، حتى سمعوا حشرجة من فمه أسرع اليه عبدالعزيز الشريف قريبه فوجده يتقلب فوق سـريره بعصبية وقلق ويتلوى من المرض الذي يعانيه • وطلب منه أن ينادي له على شقيقه أحمد العقاد ، وقبل ان يرجع اليه الرسول بأحمد سمعوا صوت سقوط جسم

الفقيد على الارض وأسرع اليه كل من بالمنزل فوجدوه ملقى فوق الارض ، ونبضات قلبه ضعيفة جدا[١٣] •

واستدعوا له على الفور الدكتور يس عليان فوصل مسرعا ، ولكن الاجل المحتوم كان أسرع من لمح البصر والدكتور عليان على سواء •

وقطعت الاذاعة والتلفزيون اذاعتهما ، ليذيعا على العالم نبأ وفاة الاديب والمفكر العربي ، كما نشرت جميع الصحف الصباحية – على الرغم من أن الوفاة حدثت في الثانية صباحا – هذا النبأ •

وما أن أذيع هذا النبأ المشئوم حتى توافد الى بيت العقاد تلاميذه وكان في مقدمة من وصل الاستاذ محمد خليفة التونسى الذى وصل بعد الوفاة بحوالي نصف ساعة •

وقد مات العقاد وهو يفكر في الحياة ، اذ كانت الساعات الاخيرة في حياته لم تكن ساعات يأس ، بل كان يأمل في الشفاء ويرجو الحياة ، وكان يمر في يومه الاخير بصحوة تامة ، لعلها كانت صحوة الموت •

ومات العقاد قبل أن يلقي المحاضرة التي كان في نيته أن يلقيها عن الاشتقاق في اللغة وعن موسيقية الافعال ، وقد القى جانبا من هذه المحاضرة ، قارن بين اللغة العربية وبين اللغات الاوروبية واللهجات السامية ، وكان العقاد لا يتوقف عن الكلام الا لكي يضع يده على بطنه ، والا لكي يعتدل في جلسته ، رغم أن الاطباء نصحوه بعدم ارهاق نفسه جسميا ، وكان العقاد يقول : انه اذا لم يفكر ، فانه يحس انه سيقع من طوله ، فالتفكير هو المجهود الوحيد الذي يبقيه من السقوط ، تماما كالارض ، لانها تدور فهي لا تقع[١٤] •

ومات العقاد وعلى مكتبه طائفة من الكتب تنتظره ، منها ثلاثة كتب عن الادب « التشيكي » ، وأربعة كتب عن « فضيحة كريتستين كيلر » وكتاب للرافعي ، وكتاب عن « الاسكندر الاكبر » وكتاب عن الصواريخ

(١٣) راجع الاخبار الصادرة في ١٢ مارس سنة ١٩٦٤ •

(١٤) راجع الاخبار الصادرة في ١٣–٣–١٩٦٤ « ركن الادب » لانيس منصور •

المتعددة المراحل ، وكتاب عن الحشرات الموسيقية ، وكتاب عن النقد الادبي في القرن الثامن عشر ، وكتاب عن علم الجمال ، وكتاب عن « آرثر ميللر » ، وكتاب عن آخر معرض للرسام « بيكاسو »[١٥] •

ومات العقاد قبل أن يتم مشاريعه التي كان يأمل في تحقيقها • ومن هذه المشاريع تفسير القرآن ، بأن يضع له منهجا جديدا في كتاب واحد يستغرق ألف صفحة ، وبعد ذلك يتبعه بعشر مجلدات عن التفاسير المختلفة •

ومن هذه المشاريع أيضا وضع كتاب عن الامام أبو حامد الغزالي وكتاب عن فن القراءة • كانت هذه مشاريعه ، وتحتاج تحقيقها الى سنوات ، ولكن المنية لم تمهله ثوان معدودات ••

وفي صباح الخميس كان بيت العقاد يتلقى العزاء الى أن يحين موعد الجنازة الرسمية ، وكان في مقدمة المعزين السيد كمال الدين حسين الذي مكث مدة طويلة حتى أوشك موعد قيام الجنازة أن يحين •• وفي ذلك الوقت كان تلاميذ العقاد ومحبو أدبه وفكره ينتحبون نحيبا يوشك أن يودى بعضهم • كأنهم يعتقدون أن الموت غير جائز على استاذهم ، ومن هنا انطلقت حناجرهم وتعالت صيحاتهم تبدد الوجوم الذي أحاط البيت بله الشارع الذي يقطن فيه العقاد ••

ودنا موعد الجنازة وبدأت من ميدان التحرير ، وسار في جنازة عملاق الادب العربي من الرسميين حكمدار القاهرة نائبا عن رئيس الجمهورية ، ثم أعضاء مجلس الرياسة والوزراء الحاليون والسابقون ، والسفراء العرب ورؤساء البعثات التعليمية بالقاهرة وقد شيعه كذلك الادباء والفنانون واصدقاؤه القدماء وتلامذته من الشبان ، واكثر هؤلاء جميعا لا يعرفون بعضهم البعض ، ولكنهم جميعا تلامذة في مدرسة عملاق الفكر العربي ، التي استغرقت ما يربى على خمسين عاما ونحو تسعين كتابا عدا شعره الذي يربى على عشرة دواوين ألفها العقاد جميعا بالعرق والتعب ،

(١٥) نفس المصدر السابق •

والهدوء حينا وانفعال في أغلب الاحايين ، وبالجد والاخلاص النادرين لدى أغلب كتابنا المعاصرين[١٦] •

وقد سار في جنازته كذلك خصومه في الرأي والمعتقدات السياسية كما كانوا يترددون على بيته متمنين له الشفاء ، ومع هذا الاختلاف فانهم قد أصابتهم الدهشة التي عقدت ألسنتهم ، فساروا في صمت كئيب ووجوم مستبد ، على هذا الرجل الذي كان يملأ حياة الادباء فيقبلون آراءه أو يختلفون عليها ، ولكنه يمثل ظاهرة كان لابد منها لتعميق مفاهيم كل فريق من الكتاب بالاختلاف قبل الاتفاق على آرائه ومعتقداته • ومن ثم كان معارضوه يحترمونه ويحترمون علمه وروحه المخلصة في البحث والدراسة[١٧] •

واتجهت الجنازة في شارع سليمان فعبدالخالق ثروت فالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين •• وكان أغلب المشيعين من جموع الشعب الذين يسيرون في موكب الفقيد الراحل وهو يزف في طريقه الى دار البقاء ، وضربت الكنائس التي مرت عليها الجنازة أجراسها تحية للفقيد الراحل الذي أبى أن يظل في دار الفناء بعد اليوم ، وكان تلاميذه يحملون النعش طوال الجنازة •

وعند المركز العام للشباب المسلمين وقف تلاميذه المنتحبون تساقط الدموع من أعينهم غزارا يتقبلون العزاء هم وأسرته ، ليتوجه الجثمان بعد ذلك الى أسوان ، ليوارى التراب في مثواه الاخير •

ورافق تلاميذه الجثمان حتى محطة السكة الحديد ، ولكنهم أصيبوا بهلع شديد على هلعهم ، وتفزروا وتفزروا من رؤية جثمان الفقيد وهو يأخذ طريقه الى عربة السكة الحديد ، وهنا أغلقوا عقولهم بباب له رتاج محكم ، وحاولوا أن يستبقوا الجثمان ، وتساقطوا عليه وهم يصيحون لان الفقيد لن يرجع ولن يعود •• وبقوة وعنف من حرس

(١٦،١٧) انظر ما كتبه أنيس منصور عن تشييع الجنازة في الاخبار الصادرة في ١٣ـ٣ـ١٩٦٤ •

والمسؤولين فيها حاولوا انقاذ التابوت من أيديهم كأنها معركة حامية الوطيس ، وتأهب القطار للسير ومعه عدد غفير من تلاميذ العقاد ليزفونه الى مثواه في أسوان التي استقبلت مولده وعليها درج الفتى طفلا فشابا فيافعا . وأقيم في ليلة الجمعة سرادق كبير على نفقة وزارة الثقافة ليتلقى وزير الثقافة ومعه أبناء العقاد الفكريون العزاء .

وفي صباح الجمعة أخذت جموع الشعب الاسواني تتوافد على محطة أسوان في صبيحة ١٣ من مارس في انتظار الجثمان ، وفي الساعة الواحدة الا ربعا وصل القطار الذي يحمل جثمان العقاد ، وقد وضع النعش الذي يضم رفات الفقيد على عربة خاصة تابعة لمديرية أمن أسوان ، وكانت على العربة مئات من باقات الورد وعلم الجمهورية العربية المتحدة .

وبدأ الجثمان يمر من المحطة الى شارع النيل حتى مسجد المنصور الذي يبعد عن بيت العقاد بمائة متر فقط ، وكان في استقبال الجثمان عباس رضوان وزير الادارة المحلية نائبا عن الرئيس ، ومحمد صدقي سليمان ، وزير السد العالي ، وعزت سلامة محافظ أسوان ، ومدير أمن أسوان ، وكبار المسؤولين في المحافظة ، وجماهير الشعب الغفيرة في أسوان تتزاحم وتتدافع بالمناكب لتودع ابنها البار بأسوان وبأهلها .

وقد بدأت الصلاة على الجثمان في الساعة الواحدة ، وبعدها بدأ الموكب الرسمي من مسجد المنصور عن طريق شارع النيل فميدان شارع الخزان حيث تقع مقبرة الشيخ محمود أحد كبار العلماء الاسوانيين ، كما تقع المقبرة بجوار محطة الاذاعة .

وبعد أن ووري الجثمان في التراب ، وقف الاستاذ محمد خليفة التونسي على مقبرة العقاد ، وألقى كلمة نارية ، أبكت جموع الشعب الحافلة وختمها برثاء العقاد لنفسه(١٨) :

إذا شيعوني يوم تُقْضَى منيّتي
وقالوا أراح الله ذاك المعذَّبا

---

(١٨) عباس العقاد : ديوان العقاد جـ ١ ص ٥٥ .

فلا تحملوني صامتين الى الثّرى
فانـي أخاف اللّحد أن يتهيّبا
وغنّوا فان الموت كأس شهيّة
فلا زال يحلو أن يُغَنَّى ويُشْربا
وما النعش الا المهد مهد بني الردى
فلا تحزنوا فيه الوليد المُغيّبا
ولا تذكروني بالبكاء وانما
أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

وودع المشيعون من تلاميذ العقاد وغيرهم مقبرته التي تكفلت ببنائها الدولة ، ولم تبن الى الان ، وقفوا راجعين الى القاهرة بعد أن ودعوا أبا حانيا ، ومفكرا فذا ، وشاعرا مبدعا وعالما كبيرا . بعد أن ودعوا العقاد الذي لم يتعرض يوما من الايام لموضوع في الادب والفن والحيوان والنبات والموسيقى والفضاء دون أن يرجع الى عشرات الكتب ، « ولم يحدث أن ادعى العقاد أنه قرأ كتابا لم يكن يعرفه معرفة كاملة ، ولا يوجد مفكر في العالم لم يقرأ عن العقاد . ولم توجد شخصية في السياسة وفي العلوم لم يقرأ عنها العقاد . وأكثر المواد والموضوعات التي قرأها العقاد لم يكتب عنها حرفا .. ولكنه في كل ما يقرأ كان مفكرا ، وفي كل ما يكتب كان مبدعا »[19] .

* * *

٢ ـ أقوال الكتاب فيه :

وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقد نعت الى العالم نبأ وفاة العقاد اذاعاته وصحفه في البلاد العربية والاسلامية والاوربية على سواء ، وكلها قد اتفقت على صيغة واحدة تقريبا تؤكد فيها أن مصر والعالم العربي والاسلامي قد منوا بفقد كاتب

«١٩» راجع مع العقاد لانيس منصور في الاخبار الصادرة في ١٣ـ٣ـ١٩٦٤ .

يعتبر من ألمع المفكرين العرب المحدثين ، كما كان أغزر المفكرين العرب ، لان مؤلفاته تربى على التسعين كتابا عدا شعره الذي يزيد على عشر دواوين •

وبالاضافة الى ذلك أقامت له جامعاتنا العربية والاسلامية والجمعيات الادبية والثقافية ، والجامعات الاوروبية ـ كجامعة كولون بالمانيا ، وجامعة لندن وغيرهما ـ حفلات تأبين قوم فيها الدارسون انتاج العقاد الفكري والادبي تقويما لا يداخله ريب ولا زيف ، واحله اولئك الدارسون المكان اللائق به من الفكر العربي والعالمي •

على ان الكتاب العرب ما ان انتهوا من تشييع جنازة العقاد حتى رجعوا الى صحفهم يكتبون عن العقاد كلمات يودعون فيها ذلك الراحل الكريم ، وتناول آخرون أعماله بالدراسة والتقويم •

ولم تقتصر كلمات التوديع او التقويم على محبيه وعارفي فضله على الثقافة والمثقفين ، والادب والادباء بل شملت المناقضين لآرائه سياسيا وفكريا ، والمناوئين له في حياته ، لان الفجيعة في موت العقاد لم يختص بها أناس دون اناس ، ولا قوم دون قوم •

ويرى الدارس ان التقدميين من الكتاب قد برهنوا بكلماتهم عن العقاد على نبل في نفوسهم ، وعلى نوازع انسانية لا يتمتع بها كثير ممن كانوا يجلسون في جلسة العقاد ـ الرسمية وغيرها ـ جلسة المؤمن على ما يقول العقاد ، لانه يتخذ من العقاد سندا يخفى به ضعفه ونوازعه الشريرة تجاه التقدميين •

وها نحن نثبت طائفة من كلمات هؤلاء ليقف القارىء على مدى الخسارةالتي اصابت الفكر العربي بموت عباس محمود العقاد ، كما توحي بذلك كلماتهم ••

طه حسين[٢٠] :

وكذلك فارقتنا أيها الأخ الكريم والصديق الحميم والزميل العزيز ، فارقتنا فجأة على غير آذان لنا بهذا الفراق ، وعلى غير انتظار من عوادك وأطبائك ومن اهلك الاقربين الذين كانوا يحيطون بعنايتهم ورعايتهم والذين كنا نسألهم عنك فلا نسمع منهم الا خيرا اى خير •

ولكني أصبح فاذا النبأ يفجوءني فيقع على موقع الصاعقة ،واقسم اقد ذهلت ذهولا افقدني الشعور بمن حولي وما حولي ، أو كاد يفقدني هذا الشعور ، ولقد احتجت الى وقت غير قصير وعناية متصلة لأئوب الى نفسى أو لتثوب نفسى الي ، ولقد لبثت ساعات لا اصدق هذا النبأ ولا اطمئن اليه حتى بعد رؤيته في كل صباح •

ايه ايها الاخ الكريم ان موتك لم يفجع اسرتك وحدها ولا وطنك وحده ، وانما فجع العالم العربي كله ، فقد كنت علما من اعلام العروبة الشاهقة ونجما من نجومها المشرقة ، ملاءت الدنيا أدبا وحكمة وفلسفة علما •

تألق نورك بين مواطنيك منذ شبابك الاول وما هي الا ان تجاوز وطنك واشرق على العالم العربي كله ، ثم لم يلبث ان تجاوزه الى الى المعنين بشئون الادب العربي في جميع اقطار الارض حتى كأن الشاعر العربي القديم انما رثاك بقوله :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

في ذمة الله ايها الاخ الكريم لقد فارقتنا على غير وداع واختطفك الموت من بيننا فجأة كأنه اختلسك منا اختلاسا ، ولكن أمثالك تموت حق على الاحياء جميعا ، ولكن ذكرهم لا يموت لانهم فرضوا انفسهم على الزمان وعلى الناس فرضا • وسيوارى شخصك الكريم في اطباق الثرى ولكن القبر الذي سيحتوى شخصك لن يستأثر بك ، فلك في

(٢٠) الجمهورية الصادرة في ١٣ من مارس سنة ١٩٦٤ •

قلوب الذين يحبونك والذين ينتفعون بادبك وعلمك ذكر لن يموت الا بموتهم ولكنهم لن يستأثروا بذكرك وانما ستشاركهم فيك الاجيال التي تبقى ما بقى الدهر :

انـــا الى الله راجعـــون لقـــد
اصبح حزني عليـــك الوانـــــا
حـــزن اشـتياق وحـــزن مرزاة
اذا انقضى عاد كالـــذي كانـــــا

أحمد حسن الزيات[٢١] :

قضى الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ان يسكن العقـــل المفكر ، ويقف القلب المحرك ، ويقف القلب السيال ، ويموت العقاد الانسان ، بعد ستين عاما قضاها في سبيل الفكر العميق الصافي لا يفتر في ليل ولا نهار ، ولا يكل في صحة ولا مرض ، ولا يهن في رخـــاء ولا شدة ..

ان في كل ساعة من ساعات النهار والليـــل الوفا من الانفس تبتلعهم القبور ، فلا يعقب فقدهم فراغا ولا دهشة ، ولكن فقد عظيم واحـــد في العلم او الادب او الفن أو السياسة او الاصلاح يحدث في العالم من الخسران ما عبر عنه عبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم :

فما كان قيس هلـــكه هلك واحـــــد
ولـــكنه بنيـــان قوم تهـــــدما

نعم انا جزعنا على العقاد بعقولنا أكثر مما جزعنا عليه بقلوبنا ، لانه لم يترك من بعده من نرثي له ونشفق عليه من زوجة كان يكفلها ، وولد كان يربيه ، وعش كان يحميه ، وحب كان يشغفه ، وانما ترك عقولا كان يغاديها بالمعرفة ويراوحها بالحكمة ، وشيعة كان يسددها بهديـــه ويوجهها بوحيه ..

---

(٢١) الرسالة الصادرة في ١٩ مارس ١٩٦٤

وستظل كتبه على تعاقب الاجيال ملء الافواه وشغل الاذهان ما دام في الارض ناطق بالضاد وطالب للمعرفة ، فاذا بكينا فانما نبكي علينا لا عليه ، واذا سألنا الله العوض منه فانما نسأله لنا لا له ..

الدكتور محمد مندور[٢٢] :

لقد استطاع العقاد ان يؤثر في التكوين الثقافي العام لمجتمعنا الحديث تأثيرا كبيرا ، وبخاصة وان حرصه الدائم على مواصلة القراءة والاطلاع على الثقافات العالمية قد مكنه من ان يبذر في حقلنا الثقافي الحديث الكثير من الافكار والقيم والاتجاهات العالمية الحديثه ، وان يناقش كل ذلك فيقبل البعض ويرفض البعض على أساس من توافق او تناقض بين شخصيته القوية المتميزة التي كانت تعرف دائما ما تريد وما ترفض في عناد وشجاعة بل وصلابة ..

وبالضرورة لم يكن من المستطاع ان نوافق المرحوم العقاد على كافة آرائه الخاصة ولكننا مع ذلك لم نكن نستطيع الا احترامه لشجاعته واصالته وغيرته على رأيه كغيرة الرجل الكريم على عرضه ، ومما لا شك فيه اننا قد فقدنا بفقد العقاد علما كبيرا من اعلام نهضتنا الثقافية المعاصرة ورائدا من رواد الادب والفكر ومناهج البحث في عالمنا العربي المعاصر كله ..

الدكتور محمد غنيمي هلال[٢٣] :

كان العقاد الوحيد بين اقرانه الذي ارسى دعائم نقده على ثقافة نظرية وفلسفية واسعة هيأت له أن ينظر الى العمل الادبي بوصفه كلا ، وان ينظر بعد ذلك الى الجزئيات في ضوء هذا الكل . وقد عرف كيف

---

(٢٢) الرسالة الصادرة في ٢٦ من مارس ١٩٦٤ من مقال : العقاد واثره في حياتنا الثقافية .

(٢٣) الثقافة الصادرة في ٢١ من ابريل ١٩٦٤ من مقال : العقاد رائد الاتجاهات المعاصرة في الشعر العربى .

يمثل الثقافة العالمية في جانبها النظرى والعملى ، بعد ان اطلع « ادق اطلاع واوسعه على تراثنا الادبي القديم الذي تذوقه بحاسته الفنية المرهفة الخلاقة ، فاهتدى بذلك كله الى ما يدعم بناء القصيدة العربية ، ويهيء للشعر أن يؤدي رسالته ، بتوفير الوسائل التصويرية الحديثة لها ، وكان من اثر ذلك ان تجدد ادراكنا الفني ، فقومنا المفهومات القديمة على منهج جديد ، وبمقتضى نظريات استقرت ورسبت في الفكر العالمي منذ ما يزيد على قرن ونصف من الزمان ، وكان للعقاد فضل جلائها لدينا على وجهها الصحيح العميق •

الدكتور شوقي ضيف(٢٤) :

لم يكتسب العقاد مكانته الادبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا من لقب علمي ، انما اكتسبها بكفاحه المتصل العنيف الذي يعد به اعجوبة من اعاجيب عصرنا النادرة ، فقد تحول بعد حصوله على الشهادة الابتدائية يزود نفسه بالمعارف زادا وافرا ، واحتل الادب قلبه وشغله عن كل متاع في دنياه مستأثرا بكل ما فيه من قوة وفكر وعاطفة • ولا يخطو في العقد الثالث من عمره خطوات حتى يفجأ البيئات الادبية فجآت متوالية بما ينقل عن الغرب من آثار محللا وناقدا مستنبطا مناقشا ،وبما يرسم للشعر العربي من وجهة جديدة تتأثر فيها ملكات الشاعر بما يتجاوب حوله من موسيقى الطبيعة واصداء الجمال •

وهدته بصيرته النافذة منذ اول الامر الى ان واجب الاديب العربي المعاصر ان يتطور بأدبنا في ضوء الآداب الغربية حتى يخرج به من عالمه التقليدي بقيوده واغلاله اللفظية والمعنوية الى عالم حر فسيح ، تندفع فيه أمتنا العربية اندفاعا الى حرية التفكير والتعبير ، بحيث تتوهج جذوة الآمال القومية في ضميرها توهجا ، وبحيث يحيي ادبها حياة قوية حافلة

(٢٤) من مقدمة الدكتور شوقى ضيف لكتابه « مع العقاد » الذى صدر في أول يولية ١٩٦٤

بما يملأ النفوس اعجابا . وفرغ لهذه الغاية النبيلة ، وقصر عليها كـل ملكاته ، وكانت ملكات خصبة اروع ما يكون الخصب ، لما امتلك من عقل ذكي ثاقب ومن شعور رقيق مرهف ، ومن حس دقيق حاد ، ومن قدرة بارعة على درس ما يقرؤه وبحثه وتحليله ، فعكف على قراءة فلاسفة العرب والغرب ، وانفتحت له أبواب ادبنا والآداب الغربية على مصاريعها ، ونفذ من كل ذلك الى صورة ادبية عربية جديدة فسح فيها لطاقات التعبير ، حتى لكأنما انتقل بادبنا من ضفة الى ضفة ...

مصطفى أمين(٢٥) :

كان العقاد جبلا ، فلا عجب ان تحدث وفاته دويا كسقوط الجبل وقد كان فيه من الجبل شموخه وعلوه ، وقوته وصلابته ، وصموده أمام العواصف والاعاصير ، ولم يكن في استطاعة الواقفين في السفح ان يتبينوا مقدار ارتفاعه ، ولا كل عظمته ، فاذا ابتعدوا عن الجبل مسافة وزمنا استطاعوا ان يروا هذا المجد الكبير الذي تمثل في رجل واحد ..

ويجب الا ننسى للعقاد انه جعل للاديب كرامة ، وارغم الحكام ان يحترموا كرامة الكاتب ، ورفض ان يكون الكاتب السياسى ذليلا لرئيس الحزب ، بل انه اصر على ان الكاتب شريك للزعيم ، يكتب ما يؤمن به ، ويناقش رئيس الحزب على قدم المساواة .

كامل الشناوي(٢٦) :

لم أكد اسمع نبأ وفاة استاذنا عباس العقاد ، حتى اعترتنى قشعريرة واحسست ان الدموع لا تنحدر من عيني ولكن تنحدر من ذهني . فالعقاد بالنسبة لي ليس فقط صديقا ينبض به قلبي ، وانما هو حبيب عقلي ، اشعر وانا اقرؤه ، او انا اناقشه ، او اتبادل الحديث معه اني

---

(٢٥) الاخبار الصادرة في ١٢ من مارس ١٩٦٤ .

(٢٦) الاخبار في ١٢ مارس ١٩٦٤ تحت عنوان « يا حبيب عقلى لا تمت » .

ابثه نجوى افكاري واصغي الى افكاره وهي تناجيني بمنطق باهر ، وذكاء عميق ، ونبرة ساحرة •

أحمد بهاء الدين[٢٧] :

هذه الصفحات تقدمها اخبار اليوم تحية متواضعة متعجلة لـذكرى رجل عظيم ، لقد بدأ العقاد مغامرته الشاقة في طريق الفكر والفن والادب وبلادنا في قرارة الاضمحلال : الفكر ميت ، والفن بمعناه المحترم غير معروف ، والادب متحجر في قوالب بالية تحمل كل آثار الظلام العثماني الذي دام قرونا طويلة ، وانتهت حياة العقاد منذ أيام وحياتنا الفكرية حافلة باليقظة والنشاط والصراع ، وأنواع الفنون بشتى أشكالها تغمر ارجاء البلاد ، وترسل بعض اشعتها عبر الحدود ، والادب قد تحطمت في طريقه الصخور وانفتحت امامه كل الآفاق •

وكان العقاد من ابرز الذين كافحوا وناضلوا في سبيل هذا كله خمسين سنة مستمرة بدأ هذه السنوات الخمسين مناضلا مقاتلا يثير الضجة في كل مكان وختمها مناضلا مقاتلا يثير نفس الضجة والجدل •

وكل رجل عظيم تموت بموته اشياء كثيرة جانبية ، هي من طبيعة الحياة وما فيها من صراع وخلاف واحتدام ، وتبقى منه للتاريخ انجازاته الكبرى ، ومواقفه الاساسية بما فيها من خطأ وصواب يصبح كلاهما جزءا اساسيا من تراث بلادهم •

ان كل من يحمل قلما في العالم العربي كله مدين للعقاد بصورة أو بأخرى ببعض ما لمهنة القلم من كرامة ، وببعض ما في عالم الفكر والفن والثقافة من نور وحياة أما التقييم الكامل لعمل عباس محمود العقاد واثره ، فسوف يتسع له ولا شك الكثير من اعداد الصحف ومن الكتب ، ومن السنوات •

---

(٢٧) أخبار اليوم الصادر في ١٤ـ٣ـ١٩٦٤ « افتتاحية العدد » •

أنيس محمد منصور[٢٨] :

لم يكن في حياته شيء سهل ، فحياته شاقة وافكاره ايضـــا ، واذا تناول العقاد موضوعا قلبه من كل ناحية ، وامسكه بكماشة اسمها العقـل ولضمه في خيوط اسمها المنطق ، والقى به في شبكة اسمها الهدف . وعلمنا العقـاد من عشـــرات السنين أن نفكر بالعقـــل ، وان العقل متعـــة ، وانه كرامة أيضا . وانه من الممكن ان يكون الانسان عالما خفيف الدم، بل من الصعب الا يكون العلماء محبين للمرح ، والذين لا يعرفون العقاد شخصيا يتصورون انه كئيب وانه جاف . ولكن العقاد كان يحب النكتة والقفشة ، ولا اعرف لماذا كان العقاد شديد الولع بالضحك في الايـــام الاخيرة ، ولااعرف لماذا كان محبا للحياة ساخرا من المرض ، لا يتهيب الموت ، وانما هو يضيق فقط بالالم .. وكان يقول : الموت واعرفـــه .. لكن هذا الذي يوجعني ولا اعرفه هو الذي يضايقني ، وأما الذي يوجعـه فهو يعرفـه أيضا .. انه الموت يتعثر في أعمـاق الحيـاة ، لقـد حكم العقاد على نفسه أن يعيش بالعقل ، فاختار في نفس الوقت أن يموت بنفس السلاح الذي عاش به .. بالعقل ايضا ...

ومات العقاد .. ولا اعرف بالضبط ما احس به من ألم او من وجع او ذهول ، واننى هنا اسجل عجزى عن البكاء على فقد الادب كله ، وعلى فقيدي أنا وحدي .

أحمد عباس صالح[٢٩] :

قابلته آخر مرة منذ عامين او ثلاثة ، كانت قامته المديدة قد انحنت قليلا ، وبياض الشعر قد غزا رأسه كله ، أما عيناه فكانتا كئيبتين بعض

---

(٢٨) الاخبار الصادرة في ١٣ من مارس ١٩٦٤ « ركن الادب » الذى يعده أنيس محمد منصور .

(٢٩) مجلة الكاتب الصادرة في أبريل ١٩٦٤ تحت عنوان عظمـة العقاد ومأساته .

الشيء ، والملل يسيطر على جلسته القلقة وكلامه المقتضب ، والافكار التي لا تكترث كثيرا بأن توضح نفسها •

وحين انصرف ، وانصرفت خلفه ، وقفت ارقبه وهو يعبر الطريق في صحبة مريد قريب من سنه استكان الى هذا البناء الشامخ الذي يسير الى جواره ، فعلى كتفي هذا البناء القى المريدون جميعا ، كل اعباء النضال عما يعتقدون •

تابعته من مكاني وهو يمضي في الشارع الطويل، كان صامتا ومهموما، حتى انه لم يتبادل وصفيه كلمة واحدة الى أن اختفيا عن ناظري في اول انحناءة •

واحسست بقوة جذب شديدة اليه ، كيف اسحب كلماتي وتربصات عيني من تصوراته الان •• كان كالفارس الذي مل النضال الرجل البطل الذي لم تدرك بطولته كما ينبغي •• فارس عظيم من عصور قديمة هبط في عصر يتبرج بعقائد وافكار غريبة •• وها هي ذى السنين الطويلة تمضي في الكفاح الصلب العنيد كاعنف ما يكون الكفاح ، والعمر يوشك أن يفنى ولم يزل البطل بعيدا عن المكان الذي تطلعت اليه عيناه •

لقد كان العقاد بطلا حين ناضل من اجل الدستور ومن اجل الحرية ومن اجل الاستقلال • وكانت بلادنا في حاجة الى ابطال • ولم يكن يضيرنا ، بل انه لا يضيرنا ، الان ان نعترف باننا ما زلنا بلدا يحتاج الى الابطال ••

رجاء النقاش(٣٠) **:**

مات العقاد ، مات الرجل العظيم الذي ملأ حياتنا بصوته المدوى طيلة خمسين عاما متتالية ، مات الرجل الذي احبه الكثيرون ، واختلف معه الكثيرون واحترمه الجميع •• مات بعد ان ترك للمكتبة العربية

---

(٣٠) الجمهورية بتاريخ ١٩ من مارس ١٩٦٤ تحت عنوان : محامي العباقرة •

ثروة اقلها سوف ينساه الزمن واكثرها سوف يعيش مع التراث العــربي الاصيل •

اطلق عليه بعض النقاد اسم : محامي العبــاقرة ، واطلق عليه سعد زغلول اسم الكاتب الجبار ، واطلق تلاميذه حينما كان يشتغل بالتدريس في شبابه الاول اسم « الكاهن حرحور » وهم اسم كاهن مصري قــديم جمع في صورة قوية بين السلطة الدنيوية والسلطة الروحية وهكذا كان العقاد ـ دائما يغرى الذين يعرفونه ويتصلون به بالبحث عن اســـم او صفة خاصة ، ويرجع ذلك دون جدال الى انه شخصية ممتازة متفــردة ، وكان الناس يشعرون بهذا الامتياز والتفرد منذ اللحظات الاولى للاتصال به ، واخطر من ذلك انه هو نفسه كان يشعر بهذا الامتياز والتفرد في شخصيته ••• منذ طفولته الاولى حتى نهاية حياته ••

لقد مات الرجل العظيم الذي فقده ادبنا في هذه الايام ، والذي كان يملأ علينا الحياة بحرارته وعنفه وصوته المدوى •

المراجع العربية :

ابراهيم عبدالقادر المازني : ديوان المازني القاهرة ١٩٦١

ايفور ايفانز : تاريخ الادب الانكليزي ، ترجمة الدكتور شوقي السكري وعبدالله عبدالحافظ القاهرة ١٩٥٨

تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود القاهرة ١٩٣٥

جمال عبدالناصر : فلسفة الثورة

الجزيري : سعد زغلول بقلم سكرتيره القاهرة ١٩٥٤

حسن نجيلة : ملامح من المجتمع السوداني القاهرة ١٩٦٠

رمزي مفتاح : رسائل النقد القاهرة ١٩٦٤

الدكتور شوقي ضيف : مع العقاد القاهرة ١٩٦٤

عباس العقاد : انا : القاهرة ١٩٦٤

الانسان الثاني ١٩١٢

اعاصير مغرب القاهرة ١٩٤٢

افيون الشعوب القاهرة ١٩٥٦

بعد الاعاصير القاهرة ١٩٥٠

حياة قلم القاهرة ١٩٦٤

ديوان من دواوين القاهرة ١٩٥٨

الديوان في النقد والادب القاهرة ١٩٢١

رجال عرفتهم القاهرة ١٩٦٣

ساعات بين الكتب القاهرة ١٩٤٥

سعد زغلول القاهرة ١٩٣٦

شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي القاهرة ١٩٣٧

الشيوعية والانسانية القاهرة ١٩٥٥

الطبقات في المجتمع الحديث	القاهرة ١٩٥٧
عابر سبيل	القاهرة ١٩٣٧
العبقريات	القاهرة ١٩٥٧
على الاثير	القاهرة ١٩٥٣
الفصول	القاهرة ١٩٢٢
فلسفة الثورة في الميزان	القاهرة ١٩٥٥
في بيتي	القاهرة ١٩٤٥
لا شيوعية ولا استعمار	القاهرة ١٩٥٧
الله	القاهرة ١٩٤٧
مجمع الاحياء	القاهرة ١٩١٦
محمد عبده	القاهرة ١٩٦٢
مراجعات فى الاداب والفنون	القاهرة ١٩٢٥
مطالعات في الكتب والحياة	القاهرة ١٩٢٤
هتلر فى الميزان	القاهرة ١٩٤٠
هدية الكروان	القاهرة ١٩٣٣
وحى الاربعين	القاهرة ١٣٣
يسألونك	القاهرة ١٩٤٧
عبدالحي دياب : عباس العقاد ناقدا	القاهرة ١٩٦٥
عبدالرحمن شكرى : اعترافات شكرى	القاهرة ١٩١٦
مقدمة الجزء الخاص من ديوانه	القاهرة ١٩٦٠
عبدالرحمن صدقي : العقاد كما عرفته من كتـــاب العقـاد دراسة وتحية	القاهرة ١٩٦١
عمر الدسوقى : دراسات أدبية	القاهرة ١٩٦٠
في الادب الحديث ج ٢	القاهرة ١٩٥٠
محمد توفيق دياب : اللمحات	القاهرة ١٩٤٥

محمد خليفة التونسى : فصول من النقد عند العقاد القاهرة ١٩٥٤
محمد عطية الابراشى : الشخصية القاهرة ١٩٣٨
مصطفى السحرتى : الشعر العربى المعاصر على ضوء ثالنقد الحديث القاهرة ١٩٤٨
ميخائيل نعيمة : الغربال القاهرة ١٩٢٣
مى زيادة : باحثة البادية القاهرة ١٩٢٠
الدكتورة نعمات فؤاد : أدب المازنى القاهرة ١٩٥٤
نيقولا يوسف : مقدمة ديوان شكرى القاهرة ١٩٦٠

الدوريات

الأداب البيروتية يناير ١٩٦١
الاساس ١٩ من اكتوبر - ١٩٦١
الاستاذ الجزء الثاني والعشرون من السنة الاولى
الازهر نوفمبر سنة ١٩٥٩
أبوللو ابريل سنة ١٩٣٤
آبولـو يونيه ١٩٣٤
الثقافـة ١ ابريل ١٩٦٤
الثقافـة ٢٠ أكتوبر ١٩٦٤
الثقافـة ٣ نوفمبر ١٩٦٤
الجمهورية ١٩ مارس ١٩٦٤

آخر ساعة : ١٤ و٢١ و٢٨ اغسطس و ٤ و١٨ سبتمبر و٢ و٩ و١٦ و٢٣ و٣٠ اكتوبر ١٩٥٧

الاخبار : ١١ سبتمبر ١٩٥٢ و ١٨ و ٢٢ ديسمبر ١٩٥٨ و٢١ ديسمبر ١٩٦٠ و ٣ ١اكتوبر ١٩٦٢ و ٤ سبتمبر ١٩٦٣ و٢١ فبراير و١٢ و١٣ مارس ١٩٦٤ و ٩ يوليه ١٩٦٥ .

أخبار اليوم : ٢٥ سبتمبر ١٩٤٧ و ٢٤ فبراير و١٢ و١٤ مارس ١٩٦٤ ·

الدستور : ٢١ و٢٣ و٢٤ و٢٦نوفمبر ١٩٠٧ و٢ و٤ و٧ و١١ و٣١ديسمبر ١٩٠٧ و١٠ و١١ يناير و٢ ابريل و١٣ و١٤ ديسمبر ١٩٠٨ ·

الرسالة : ٢٥ يوليه ١٩٣٨ و ١ ديسمبر ١٩٤١ و٦ نوفمبر ١٩٤٤ و ١٩ و ٢٦ مارس ١٩٦٤ ·

السياسة : ٥ و١٢ ابريل ١٩٣٠ ·

عكاظ : ٢٧ يوليه ١٩١٣ و ٩ و٢٣ مارس ١٩١٤ ·

والأعداد ٥٨ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ من سنة ١٩٢٠

الكتاب : م-٢ ١٩٤٦ ومايو ١٩٤٧ واكتوبر ونوفمبر ١٩٥٢ ·

الكاتب : ابريل ١٩٦٤

كل شيء اغسطس ١٩٣٥

المجلة : فبراير وابريل ويوليه ١٩٥٩ وابريل ١٩٦٢ ·

مجلة المجمع اللغوي : الجزء السابع

الهلال : فبراير ١٩٣٩ ويناير ١٩٤٧ ومارس ١٩٤٨ ويناير ١٩٤٩ واكتوبر ١٩٥١ ويناير وديسمبر ١٩٥٢ وفبراير ويوليه ونوفمبر ١٩٥٣ واكتوبر ١٩٦١ ويناير ١٩٦٢ ·

المصوّر : ٥ يوليه ١٩٦٣

المقتطف : يناير ١٩١٧

المراجع الافرنجية

1. Tahir Khemiri and G. Kampffmeyer: leaders: in Contemporary Arabic Literature. (1930) P. 13

2. A Tale of Two Cities, by Dickens Charles, Every Man's Library, London. 1942, P5

3. Wordsworrth poetry and Prose, Introduction by, D. N. Smith, P.4 etc.

4. A Short History of English Literature by Emile Legouis P. 281 etc.

المحتـــوى

وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

صدر عن مديرية التأليف والترجمة والنشر المطبوعات التاليـة في سلسلة الكتب الحديثة :

	فلس	دينار
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تاليف عبدالحميد العلوچي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف حسين علي محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية : تاليف ميخائيل خليل‌الله ويردى	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تأليف ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تاليف حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ... الشاعر والانسان : تأليف أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تاليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠	ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تأليف خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ـ من شعرائنا المنسيين : تاليف عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ
١٢ـ محمد كرد علي : تاليف جمال الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ـ ادباء المؤتمر : تاليف عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : تاليف عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تاليف عباس خضر	٢٠٠	ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : تاليف نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ

١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : تأليف احمد فوزي ٢٠٠ ـ
١٨ـ خسرناها معركة ٠٠ فلنربحها حربا :
تأليف فيصل حسون ٢٠٠ ـ
١٩ـ عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي ٣٥٠ ـ
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق :
تأليف فاضل زكي محمد ٠ ٣٠٠ ـ
٢١ـ من عيون الشعر : مختارات ناجي القشطيني ٤٥٠ ـ
٢٢ـ مع الكتب وعليها : تأليف عبدالوهاب الامين ٢٠٠ ـ
٢٣ـ مقال في الشعر العراقي الحديث :
تأليف عبدالجبار داود البصري ١٥٠ ـ
٢٤ـ مع الاعلام : تأليف جميل الجبوري ٣٠٠ ـ
٢٥ـ محاكمات تاريخية : تأليف مدحة الجادر ١٢٠ ـ
٢٦ـ سنتان في المغرب : تأليف جابر الفؤادي ٢٠٠ ـ
٢٧ـ دراسات تأملية : تأليف شاكر حسن آل سعيد ١٧٥ ـ